لعنة الدم

وقصص أخرى

سلسلة أدرينالين 2

دار اكتب

لَعْنَةُ الدَّم

لعنة الذم
وقصص أخرى

سلسلة أدرينالين

2

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: 2017/ 22099

I.S.B.N: 978-977-488-534-1



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف: 01144552557 — 01147633268

بريد إلكتروني: darOktob1@yahoo.com

لعنة الدم

وقصص أخرى

قصص

سلسلة أدرينالين

2



دار اكتب للنشر والتوزيع

اللَّحظاتُ الأخيرة

في البداية كان الصوت هامسًا، ثم ارتفع تدريجيًا، وأصبح واضحًا، هذا هو صوت المرأة التي رآها في الحلم تُناديه، إنها هي، لا يعــرف كيف، ولكنه مُتيقنٌ من هذا، ارتفع الصوت حتى أنه سَدَّ أذنيه بيديه في محاولة يائسةٍ لكتمانه، يشعر بوجود شخصين يتصارعان داخلــه، أحدهما يريد أن يخرج مُسرعًا، ويتبع الصوت إلى مصدره، فالصوت يجذبه، ولا يمكنه مقاومته، والآخر يشعرُ بالخوف الشديد، يــتمنى أن يصرخ ويطلب المساعدة، ولكنه مُقيَّد لا يمكنه فعل أي شيء.

– مرووووووان... مروووووان

يتعالى النداء الممدود، يشعر بمقاومته تنهار، عليــه أن يتبعــه، لا يمكنه الاحتمال أكثر، يجبُ أن يذهب إليه، يجب أن يفعلها حتى لــو كان هذا آخر شيء يفعله في حياته، ولديه شُعورٌ قوي بأنه ســيكون كذلك.

– ما بك؟

يصدر السؤال من زوجته الواقفة على باب الغرفة، تتطلَّع إليه، ثم تُكمِل:

- أأنت مريض؟ سأتصل بـــ.

يقاطعها مروان قائلًا:

- إنها.. إنها.. تناديني...

- مَن التي تناديك؟

- ألا.. تسمعينها... إن صوتها في كل مكان.. النداء....

- أنا لا أسمعُ شيئًا، لا بد أنك كنتُ تحلم.

يسقط مروان أرضًا، ويتقلب دقائق كمريض صرعٍ، وسط صراخ زوجته التي تسرع للهاتف للاتصال بأقاربه، ولكنها تُفاجأُ به ينهض، ويُسرِعُ نحو الباب قائلًا:

- إنها تناديني، ويجب أن أذهب.

تحاول زوجته إيقافه، ولكنه يلطمها بقوة فيصطدم رأسها بالحائط، وتسقط فاقدة الوعي، ويخرج هو راكضًا نحو مصدر النداء.

وفي الصباح يعثر الفلاحون على جثته الغارقة في الترعة، وعلـــى وجهه أعتى آيات الرعب والفزع.

– أظنُّ أن هذه القصة خاصةً لا تصبح قديمة أبدًا، إنها مرعبة في كل مرة تُروى فيها.

نطقت نور بالعبارة، وهي تتطلع إلى طارق المسترخي في مقعده أمامها، يتحدث بمنتهى البساطة كأنه يحكي لها مُزحة خفيفة، قال طارق:

– عندما تعيشين حياة مثل حياتي، ستصبح قديمة، ومكررة بالنسبة لك.

حركت نور القلم فوق أوراقها، وقالت:

– وأنا هنا لأسمع عن حياتك.

صمت طارق لحظاتٍ، ثم قال:

– ماذا تعرفين عن النداهة؟

– النداهة!

كررت نور الكلمة، فقال طارق:

– نعم، النداهة، ماذا تعرفين عنها؟

وضعت نور أوراقها على المنضدة الصغيرة بينهما، وقالت:

- أعرف أنها وحش شهير في الأساطير المصرية ينادي الناس، لا يسمعها إلا الشخص المنادي، فيتبع الصوت، وغالبًا يُلاقي نهايته غرقًا.

- وماذا أيضًا؟

- يقولون إنها تتخذ شكل امرأة حسناء لتخدع ضحاياها، فيقتربون منها، وتقتلهم.

هَزَّ طارق رأسه قائلًا:

- معلومات قليلة، ولكنها كافية كبداية.

صمتت نور لحظات، ثم قالت:

- اعذرني يا سيد طارق، ولكن ما علاقة النداهة بحديثنا؟

تطلع طارق إليها قائلًا:

- هل تعرفين كم كان عمري عندما سمعتها أول مرة؟

- ماذا؟

***

- لا أصدق أنني قد فعلتُها.

نطقت نور بالعبارة، فصفّقت صديقتها هند بيديها قائلة:

- لقد أخبرتُك أن الأمر سيحدث، أليس كذلك؟

– أنا مَدينةٌ لك بنصف حياتي.

– لا أريدُ نصف حياتك، أريد الهدية التي اتفقنا عليها سابقًا.

– حسنًا.

غادرت هند، وبقيتْ نور وحيدةً تُحرِّكُ طرف القلم بين شفتيها، وتنقر بيدها الأخرى على لوحة المفاتيح أمامها، لا تصدق أن الأمر قد حدث، التقطت جوالها للمرة الخامسة، ونظرت إلى شاشته، الأمر حقيقي، لقد تلقت مكالمة من سكرتير الكاتب طارق عبد الفتاح يخبرها فيها أنه قد قبل طلبها، وسيُجري حوار معها.

طارق عبد الفتاح، يعتبره البعض أسطورة، والبعض الآخر أفّاقًا، تنتمي نور بشدة إلى المعسكر الأول، يحيط الرجل نفسه بدائرة غريبة من الغموض، ويرفض الحديث مع أي صحفي أو الظهور في أي لقاء من أي نوع، كثرت القصص، والشائعات حوله، حتى أن البعض قال إنه ليس بشريًّا، بل هو كائن آخر، وغيرها من الشائعات، ولكن الكاتب ظَلّ على غموضه، ولم يوضح أي شيء.

لا تُنكِرُ نور أنها تشعرُ بشيءٍ مختلف عندما تقرأ كتاباته، تشعر أن كتاباته تحوي رُعبًا مُختلفًا عما اعتادت قرأته، رعبًا خامًا لو أرادت الدقة، كأن الرجل يُفرِغُ رُعبه على الورق، فتصل الجرعة كاملة إلى القارئ، تمنت نور أن يحاوره أي شخص، ويسأله كيف يفعلها، ولكنّ أحدًا لم يتمكن من الوصول إليه.

أرسلتْ نور طلبها لمقابلته على عنوان مكتبه بعد إلحاح صديقتها هند، وقولها إنها مجرد تجربة لن تخسر شيئًا، ولكن المفاجأة كانت من نصيبها هي، لقد وافَقَ الرجل، وحصلت على موعدٍ لمُقابلته، ستقابل طارق عبد الفتاح وتُجري حوارًا معه.

ترُى، عمَّا سيتحدث معها؟ ما الأسرار التي سيقرر هذا الصندوق الأسود إخراجها للمرة الأولى؟ أخذت نفسًا عميقًا، وهمَستْ لنفسها:

– أرجوكِ لا تفسدي الأمر.

***

– غدًا سيصبح عمري سبع سنوات.

ارتسمت العبارة في عقل طارق، وهو يتطلع إلى أمه التي تضع أغطية الفراش عليه، سيكون رائعًا لو حصل على حفل عيد ميلاد مثل بقية أصدقائه، ولكنه للأسف يعلم أن هذا لن يحدث، فعائلته لا تفعل هذه الأمور، سيكون رائعًا حتى أن يغيب عن المدرسة في الغد، يعلم أن والدته سترفض هذا أيضًا لذلك عليه أن يلعبها بذكاء، تناول كوب الماء من يد والدته وجَرَعَه دفعةً واحدة، وقال:

– لا أشعرُ أنني على ما يُرام، أشعر أنني مُتعب للغاية.

مررت والدته يدها على جبهته وقالت:

– أنتَ بخير، كُفَّ عن التمثيل.

يمكنها أن تقرأه مثل كتاب مفتوح، ولكنه سيحاول ثانية، قال:

– ولكنني مريض.

جاءه صوتُها حاسمًا.

– ستذهب إلى المدرسة في الغد.

قالتها، وذهبت، وتركته في فراشه، حسنًا، لم يكن كاذبًا بالكامل، إنه يشعر بالفعل بتعب غريب في جسده يزداد مع الوقت، تقلب في فراشه، هناك شيءٌ خاطئ، يمكنه الشعور به، ولكن لا يمكنه معرفة ما هو، يزداد الألم، يشعر بانقباض شديد في قلبه، يشعر أن شيئًا رهيبًا على وشك الحدوث، لا يعرف ما هو، ولا كيف يعرف هذا، ولكنه متأكد أنه سيحدث.

يذكر أن والده قد استيقظ ذات يوم، وأخبرهم أنه يشعر بضيق شديد في صدره، يشعر أن شيئًا ما سيحدث، وبالفعل وصلهم بعد قليل نبأ وفاة عمه في مدينة (....) ربما كان الأمر شبيهًا بهذا، تُرى، هل سيموت أحد أقاربه، مَن هو؟ يدعو ألا يكون والده، أو والدته، هذان هما كل ما يهمه، ثم تذكّر عمَّه فأضافه للقائمة، وقال انتهت، ولكنه يذكر شخصًا آخر يحبه فيضيفه ويدعو من جديد.

ظَلَّ يتقلّب في فراشه، يحاول أن يستدعي النوم بلا فائـدة، إنـه ينتظر شيئًا ما، تمنَّى أن يحدث سريعًا لكي يرتاح من هـذا العـذاب الذي يمزقه، أتته الإجابة سريعًا، سمع صوتًا ينادي:

- عليييي.. عليييي

نداء طويل ممدود جمَّد الدماء في عروقه، جذب الغطاء فوق رأسه، وسدَّ أذنيه بيديه في محاولة لإيقافه، شعر بالنداء يخترق أذنيه، ويسري في كيانه كله، إنه لا يعرف مَن المُنادي، ولا مَن المنادي عليه، ولكنه يشعر بالرعب الشديد، استمرَّ النداء عدة دقائق، ثم تلته صرخةٌ عاليةٌ جعلته ينتفض في فراشه، توقَّع أنه سيجد باقي أهله يخرجون مسرعين، ولكن أحدًا لم يتحرك.

ظَلَّ يتقلب في فراشه فترةً، ولا يدري متى غلبه النعاس، فنام نومًا عميقًا حتى والدته أيقظته بصعوبة بالغة في اليوم التالي.

شعر بمخاوفه تختفي مع ضوء الشمس، وفكر أن ليلة الأمس كانت حلمًا مزعجًا، ولكن الرعب عاد أقوى عندما سمع في المدرسة أن علي الجنايني أخذته النداهة بالأمس.

***

- لا أفهمُ، كيف حدث هذا؟!

نطقتْ نور بالعبارة، وصمتت لحظةً ثم أكملت:

- كيف سمعتَ النداهة، وهي تُنادي شخصًا آخر؟

اعتدل طارق في مقعده، وقال:

– الجميع يعرف النداهة الوحش الأسطوري الذي ينادي فلا يسمعُ نداءه إلا الشخصُ المستهدف، ولكن لا أحد يعرف المستمع.

كررت نور:

– المستمع!

– المستمع هو الشخص الذي يمكنه سماع نداء النداهة، يمكنه سماع صوتها عندما تُنادي أيَّ شخص.

صمتت نور لحظاتٍ ثم قالت:

– إنها قدرة... رهيبة.. لستُ متأكدة إن كانت منحة أم لعنة، أن تكون قادرًا على سماع اللحظات الأخيرة في حياة الآخرين، إنه شعور رهيب.

– إنه مثل... مثل... لا يوجد له مثيل، أن تسمع النداء باسم شخص ما، تعرف أن حياة هذا الشخص ستنتهي بعد دقائق، ستسمع صرخته الأخيرة ثم ينتهي كل شيء.

– إنه أمر رهيب فعلًا، أن ينتزعك فجأة هذا النداء من حياتك، ويخبرك أن شخصًا ما سيموت الآن.

– أنتِ نصفُ مُحقّة، فالأمر لا يكون مُفاجِئًا.

– كيف؟!

– يمكنني الشعور بالأمر قبله، أعرف أن النداهة ستأخذ أحدهم اليوم، يمكنني الشعور بذلك، إنه مثل.. لا أعرف كيف أصفُه لـك، كأننا مرتبطان معًا، يمكنني الإحساس بها، ومعرفة أنها ستأخذ أحدهم اليوم.

حركت نور القلم بين أصابعها، وقالت:

– تظنُّ أنكما مرتبطان معًا، هذا غريب جدًّا، ما سبب هذه الرابطة؟

– لا أعرف، أظنُّ أنه شيء يولد به الإنسان، ولا يمكنه التحكم فيه.

– ماذا فعلت بعدها؟ أعني بعد أول ليلة سمعت فيها النداء.

– لم أفعلْ شيئًا، لم أكن متأكدًا مما حدث، صحيح أنني كنت مرعوبًا عندما عرفت أن شخصًا اسمه علي أخذته النداهة في الليلة نفسها التي سمعتها تناديه فيها، ولكنني لم أكن متيقنًا من أي شيء، ظننتُ أنني كنتُ أتوهم، فقد كنتُ أعرف وقتها أنه لا أحد يسمعها إلا المستهدف فقط، ظللت قلقًا فترةً أنام بشكل متقطع ثم انتظمت الحياة بعدها، ولم أسمع النداء فترةً، فظننتُ أن الأمر انتهى.

– ومتى عرفتَ أنك مستمع؟

***

– لنذهب، باقي الفريق ينتظرنا.

نطق أمجد بالعبارة، وهو يجذب طارق من يده أمام بوابة المدرسة، ولكن طارق أفلت يده قائلًا:

– اذهب أنت، لا أشعر أنني على ما يُرام، لا أستطيع اللعب.

ألحَّ أمجد فترة، ولكن طارق واصل الرفض، فسار أمجد مُبتعــدًا، ولوَّح بيده قائلًا:

– لو خسرنا المباراة بسببك، سأريك.

سار طارق نحو المنزل، شعور غريب يجتاحه منذ الصباح، يمكنه أن يقسم أن شيئًا رهيبًا سيحدث الليلة، حاول كثيرًا أن يتشاغل عنه، أن يُقنع نفسه أنه يتوهم، ولكن في أعماقه كان متأكدًا أنه مُحقٌّ، إنه يتذكر، هذا هو الشعور نفسه الذي زاره في تلك الليلة، ليلة موت علي الجنايني، حاول التحدث مع بعض أصدقائه، ولكنهم سخروا منه، ونعتوه بالكاذب، ولا يمكنه التحدث مع أسرته، سيظنون أنه يخترع قصصًا وهمية، وربما يضربه والده ليتوقف عن سردها، ويتوقف عن محاولاته للهروب من المدرسة، دائمًا يعود كل شيء إلى هذه النقطة، المدرسة، صحيح أنه يكرهها، ولكن ليس هذا وقتها.

ظَلَّ شاردًا، قلقًا، متوجسًا طوال النهار، حتى جاء الليل، وأوى إلى فراشه، ظَلَّ يتقلب فيه، ويعدُّ الثواني منتظرًا لحظة النداء، يدعو ألا

تحدث، ولكنه متأكد أنها ستحدث، والعجيب أنه يشعر بجزء منه سعيد بها.

– عثماااااان.... عثماااااان.

لم يمكنه الاحتمال، فقفز من فراشه، وأسرع إلى غرفة والديه، طرَقَها بعنف، ودخلَ مُسرعًا، سألته والدته:

– ماذا هناك يا طارق؟

– أنا خائف للغاية، أنا أسمعها تُنادي.

– مَن التي تنادي؟ أنا لا أسمع شيئًا.

– إنها النداهة، أنا أسمعها تُنادي عثمان في الخارج الآن.

صمتت والدته لحظاتٍ، ثم قالت:

– لا يوجد شيء، ربما كنتَ تحلمُ.

– أنا لا أحلمُ، أُقسِمُ لك، يمكنني سماعها.

اعتدل والده في الفراش، وقال:

– لا يوجد شيء، اذهب لتنام.

ظَلَّ طارق واقفًا، ورفض الذهاب لغرفته، فذهبت والدته لتنام معه، ظَلَّ قلقًا فترة، ثم غرق في نوم عميق مثل المرة السابقة، استيقظ

في الصباح فلم يجدها خرج بحثًا عنها، وجدها تتحدث مع والـــده في غرفتهما، قال والده:

– الولد يسمعُها.

– أنت لا تعرف هذا، ربما كان يحلم.

– لقد أخبرَنا أمس، إنها يسمعها، وقد عرفتُ بالفعل أن عثمـــان قد أخذته النداهة أمس.

جلستْ والدتُه على طرف الفراش قائلة:

– لا أُصدِّقُ هذا، لا أصدق أن هذه اللعنة قد أصابت ابني أيضًا.

جلس والده بجوارها، ومَدَّ يده يمسح دموعها قائلًا:

– سيكون بخير، سأُعلِّمه كيف يتعامل مع الأمر.

رفعت والدته رأسها نحوه قائلة:

– لا بد من وجود شيءٍ نفعله.

– لا يوجد ما يمكننا فعله، لقد أخبرتُك من البداية، لقد ورثـــتُ هذه القدرة عن والدي، وقد ورثها طارق عني، ولا يوجد ما يمكنـــه تغيير هذا، ولكنني سأعلمه كيف يتعامل معها، ويعيش حياة طبيعية.

– ولماذا لم تسمعها أنتَ الآخر أمس، لقد أخبرتُك أنه يتوهم، لو كان حقيقيًّا لسمعتَه أنتَ أيضًا.

– لقد أخبرتُك سابقًا، كل مستمع يمكنه سماع نداهة واحدة، لا أحد يسمعها غيره.

غطت والدته وجهها بكفيها، وقالت وسط دموعها:

– لا أُصدِّق أن طفلي الصغير سيعيش كل هذا الرعب.

– سيكون بخير.

***

قالت نور:

– وماذا فعلتَ بعد هذا؟

– ناداني والدي، وحظينا بحديث الأب، وابنه.

ابتسمت نور قائلة:

– تقولها ببساطة كأنه حديث تقليدي مثل بقية العائلات.

– لكل عائلة تقاليدها الخاصة، فبعض العائلات تعد أطفالها ليتسلموا أعمال العائلة، أما نحن فنتحدث عن النداهات، وكيفية التعايش معها.

– لا أتمنى خوض مثل هذا الحوار مع ابني، أقصد.. لا أتمنى خوض هذا الحديث مع أي شخص.

- اطمئني، إنها قدرة نادرة للغاية، تصيب ربما واحدًا في المليار.. لا أعلم، ولكنني لم أقابل أيَّ مستمعٍ آخر باستثناء والدي.

- بماذا أخبرَك والدُك؟

***

جلس طارق على الأريكة بجوار والده الذي ظَلّ صامتًا دقائق ثم قال:

- لا أعرفُ من أين أبدأ، كيف يمكنني أن أخبرك هذا؟

قال طارق:

- تريد أن تخبرني أنني مستمع؟!

- ماذا! كيف تعرف هذا؟!

- لقد سمعتُك تتحدث أنت وأمي في ذلك اليوم، عرفتُ أنني مستمع، يمكنني سماع النداهة.

ربت والده على رأسه قائلًا:

- حسنًا يا بني، هذا هو قَدرُنا الذي لا يمكننا الهروب منه أو تغيره، إننا نتوارث هذه القدرة في عائلتنا منذ زمن بعيد، يمكننا سماع صوت النداهة عندما تنادي أيَّ شخص، مهما يكن مكان هذا الشخص، حتى لو كان في آخر العالم، فتسمع لحظة ندائه.

- لماذا نسمعها؟ لماذا نسمع لحظة وفاة الشخص؟

- لا أحد يعرف لماذا، إننا نسمعها فحسب.

- وهل سينتهي الأمر؟ أعني هل سأفقدُ هذه القُدرة؟

- لا يا بني لن ينتهي الأمر، ولكنك ستعتاده، حتى أنك لن تشعر به.

- ماذا؟! كيف يمكنني أن اعتاد سماع لحظات وفاة الآخرين، كيف يمكن هذا؟!

- صَدِّقني يا بني الوقت يقتل كل شيء، ستصبح الأمور عادية، تسمع النداء، تتوقف عنده لحظات، ثم تكمل حياتك بمنتهى البساطة، ولاحقًا لن تتوقف عنده لحظات حتى، ستشعر به مثل ضوضاء في الخارج، لن تنتبه إليها.

- لا يمكن أن يكون الأمر هكذا، لا بد من وجود شيء نفعله.

- لقد جرب أجدادنا كل شيء، ولكنهم فشلوا، لم يستطع أحدهم فهمها، أو التحكم فيها، كل ما أمكنهم فعله هو التعايش معها كما قلت.

- وماذا فعلت أنت؟

- لم أفعل شيء، في البداية كنتُ مثلك غاضبًا، حانقًا، كارهًا لكل شيء، ولكنني لم أدَعِ الأمرَ يُدمِّر حياتي، لقد ألقيته وراء ظهري،

وعشتُ حياتي، ومع الوقت أصبحت الأمور أسهل كما أخبرتُك، وعشتُ حياتي بشكل طبيعي.

– طبيعي! كيف يمكنك أن تنطق كلمة طبيعي بعد كل ما أخبرتني به! لا يوجد شيءٌ طبيعي ينتظرُنا.

– بالطبع هناك الكثير ينتظرنا، حياة كاملة تنتظرنا، لا تفسدها من أجل شيءٍ صغيرٍ مثل هذا.

– كيف يمكنك أن تدعوه شيئًا صغيرًا، إننا نسمع أناسًا يموتون!

– وهناك مَن يسمع، ويرى أناسًا يموتون، الأطباء مثلًا، الجنود في المعركة يحملون أصدقاءهم الموتى، ولكنهم لا يجعلون هذا يوقفهم عن عيش حياتهم، بل يجعلونه دافعًا لهم لعَيش حياتهم.

– هل تظنُّ هذا؟

– انظر إليَّ، أنا لم أدَعْها تقفُ في طريقي، لقد عشتُ حياتي كما أريدُ، وحققتُ كل أحلامي، لديَّ عائلتي، أصدقائي، منزلي، عملي، لديَّ كل شيءٍ حلمت به وأكثر، كما ستفعل أنتَ أيضًا.

وصمتَ لحظةً ثم أكمل:

– صدقني يا بني، ستصبحُ الأمور أفضل.

***

– وهل أصبحت الأمورُ أفضل؟

سألت نور، فتطلّع إليها طارق لحظات، ثم قال:

– ماذا تظنين؟

– لا أعرف، ربما تعودتَ الأمر كما أخبرَك والدُك، وعشتَ حياتك.

– أهذا ما كنت ستفعلينه؟

فكّرت لحظاتٍ ثم قالت:

– لا أعرفُ، ربما نعم، وربما لا.

– كنتُ مثلك، لم أكن واثقًا بأي شيء، ولكنني قررتُ تجربة ما أخبرني به أبي، قضيتُ اليوم كله أُقنِعُ نفسي أن الأمر بسيط، لا يتعدّى دقائق قليلة أسمعُ فيها النداء، وينتهي كل شيءٍ، إنها لن تأتي إليّ، ولن يحدث أيُّ شيءٍ لي، سأعيشُ حياتي مثل والدي، وسأُحقّقُ كلّ ما أريد، ظللتُ على هذا الحال فترةً، وبالفعل عاد الهدوء إلى حياتي، وظننتُ أن الأمور قد أصبحت أفضل، ولكنني كنتُ واهمًا بالطبع.

– ماذا حدث؟

– سمعتُ النداهة للمرة الثالثة.

– هل كان الأمر مختلفًا؟

- كانت أسوأ مرة سمعتُ فيها النداهة في حياتي كلها، بدا اليوم عاديًّا، ثم شعرتُ بالانقباض الملازم لسماع النداء، أخبرتُ نفسي ألا أقلق، وأن الأمر سينتهي سريعًا، ولكنه لم ينته، بل ازداد سوءًا، آلامٌ رهيبة اجتاحت جسدي كله، شعرتُ كأن جسدي يحترق، كأن النيران تنبع من داخلي، فيما بعد أخبرتني والدتي أن يدها قد احترقت عندما وضعتها على جبهتي.

وصمتَ لحظةً ثم أكمل:

- ثم سمعتُ النداء، كان الصوت أوضح، وأقوى من المرتين السابقتين بكثير، كأنها تجلس أمامي، وتنادي، كأن الصوت يصدر بالقرب مني، وتأكدت لي الحقيقة المُرعِبة، إنها موجودة معي في الغرفة نفسها، يمكنني أن أراها.

- هل يمكنك أن تصفها لي؟

- لا، فأنا لم أرَها.

- ولكنك قلتُ إنك رأيتها.

- كان الأمر غريبًا ككل شيءٍ متعلق بها، أظنُّ أنني رأيتُها، ولم أرَها في الوقت نفسه، لا يمكنني أن أصِفَ لك ما حدثَ.

- حسنًا، كم مرةً تسمعها؟ أعني كم مرةً يتكرَّرُ الأمر؟

- لا توجد قاعدة للأمر، أحيانًا مرة شهريًّا، أحيانًا ثلاث مرات في العام أو أربع، ربما تمرُّ سنةٌ أو أكثر دون سماعها.

– وماذا حدثَ بعد ذلك؟

***

– لا بد من وجود شيءٍ أفعله.

همسَ طارق بالعبارة لنفسه، وهو يتطلع إلى شاشة الكمبيوتر أمامه تعرض مقالات عن النداهة، لقد أجرى العديد من البحوث، يمكنه القول إنه قد بحثَ في كل مكانٍ، قرأ كل المقالات، والكتب التي تتحدث عن النداهة، وسأل كلَ مَن يمكنه سؤاله، ولكنه لم يصل إلى أي شيءٍ جديد، كلهم يتحدثون عن الأساطير المنسوجة حولها، دون كلمة واحدة عن المستمع.

– لا بد من وجود شيءٍ أفعله.

هذه القدرة، أن تسمع اللحظات الأخيرة في حياة الأشخاص، هذه ليست أمرًا عاديًّا، ولا بد أن هناك سببًا لمنحه هذه القدرة، إنها ليست مجرد شيءٍ يتعايش معه، إنها طريقة لحياته، وعليه أن يستغلها، عليه أن يجد الإجابة التي عجز الجميع عنها قبله.

فكّر طارق، أن تسمع اللحظات الأخيرة في حياة الآخرين، إذًا ماذا تفعل؟ يبدو الأمر بسيطًا للغاية، عليك أن تُنقذهم، نعم هذه هي، إنهم ليسوا مستمعين، إنهم منقذون، عليهم أن ينقذوا هؤلاء البائسين من يَدِ النداهة.

المشكلة أنه لا يعرف من الشخص المُنادى عليه، فعندما تنادي النداهة أحمد مثلًا لا يعرف أيَّ أحمد تقصده، ولا يعرف مكان هذا الشخص، يمكنه أن يكون في أي مكان، ضرب جبهته بيده، لا بد من وجود وسيلة لمعرفة الأمر.

سمع النداء ثلاث مرات بعد ذلك، كان قلبه يتمزق في كل مرة، يتمنى أن يفعل أي شيء، أي شيءٍ، في النهاية قرَّر أن يخرج للبحث بنفسه، انتظر حتى اليوم الذي عرف فيه أنها ستنادي أحدهم، وتسلل من المنزل، وأخذَ يدور في الشوارع، انطلق قُربَ الترعة التي وجدوا فيها شخصًا غريقًا سابقًا، وسار بجوارها، كان مذعورًا للغاية، لا يعرف ماذا سيفعل، كيف سيخلص الشخص من النداهة، هذا إذا لم يمت رُعبًا قبله.

رأى رجلًا واقفا أمام الماء، يحدق إليه في شرود، كان بصرُه مُعلّقًا بنقطة وسط الماء، ناداه، ولكنه لم يُجِب، ولم يغير من وقفته، انطلق نحوه شيءٍ ما يخبره أن هذا هو المنشود، تعثر وسقط أرضًا عندما دوَّى النداء:

– سلاااام..... سلاااام.

نَهَضَ مُسرعًا نحو الرجل الذي نظر نحوه بوجه خـالٍ مـن أي مشاعر، ثم قَفَزَ في الماء، لم يُضِع طارق الوقتَ وقفز خلفه دون تفكير، يعرف أنه لو فكّر فلن يفعلها، ضرب الماء البارد بيديه بحثًا عن الرجل

دون فائدة، لقد اختفي الرجل، كأن بوابة الجحيم فُتحت، وأخذته، صَعَدَ للسطح ليلتقطَ أنفاسه، وغاصَ ثانيةً بحثًا عنه.

كرَّر العملية عدة مرات حتى رأى جسد الرجل مستقرًّا بالقرب منه، وعرف طارق أنه قد خسر، لقد ماتَ الرجل، سَحَبَ جسده، وسبح نحو الشاطئ، وهناك رأى مجموعة من الرجال ينظرون إليه بغضبٍ شديد، وصاح أحدهم:

– أنتَ قتلت سلام.

– أنتَ أغرقت سلام في الترعة.

***

– ماذا؟!

نهضت نور من مقعدها، وهي تمتم بالكلمة السابقة، ثم أكملت:

– ظنوا أنك مَن قتلت سلام! كيف؟! ماذا فعلت؟

عاودت الجلوس ثانية، وقال طارق:

– كانت ليلة ليلاء، نجح والدي وبعض أقاربنا في تخليصي منهم بأعجوبة، كان كبير العائلة مُصرًّا على قتلي ثأرًا لأخيه.

– وماذا فعلت؟

– أخبرهم، كما أخبرني والدي أنني كنتُ أتجوَّل في الخارج عندما رأيته يسقط في المياه فحاولت إنقاذه، ولم أذكر أي شيءٍ عن موضوع

النداهة، ثم أرسلني والدي عند أقاربنا خارج المدينة حتى هدأت الأمور.

– كيف هدأت؟

– أظنُّ أن عائلة سلام كانوا يعرفون جيدًا أنني بريء، ولكنهم لا يصدقون أن يذهب شقيق كبيرهم هكذا، أنها إهانة كبرى لهم، لذلك بحثوا عمَّن يصبون غضبهم عليه، وكنتُ أنا أول شخص مُتاحٍ، ظلت الأمور متوترة بيننا على الرغم من تدخل الشرطة، ولم تهدأ إلا بعد فترة عندما أخذت النداهة كبيرهم فرج، عُدتُ بعدها للقرية، ولم يعترضني أحد.

– لا بد أنك طردت موضوع المنقذين هذا من رأسك بعد ما حدث.

– تبدين كوالدي، لقد جلسَ معي جلسات مطولة عدة أيام، ليتأكد أنني لن أُكرِّرَها ثانية، وأصبح يُراقبني طوال الوقت، ويتأكد من مواعيد ذهابي، وحضوري، ولكنني كنتُ أعرف أنه سينسى مع الوقت، أما أنا فلم أنسَ، قُربي من سلام في تلك الليلة منحني الأمل، جعلني أفكر أنني لو لحقتُه قبل لحظاتٍ ربما منعتُه من القفز في المياه، وأنقذتُ حياته.

– وهل أنقذتَ أحدًا؟

– مرت السنوات، وسمعت النداء عدة مرات، ولكنني لم أتمكن من الوصول إلى أحد كما وصلتُ إلى سلام، حتى أنني جمعتُ فريقًا

ليساعدني في البحث، ولكننا لم نستطع فعل شيءٍ، فنحن لا نملك أي معلومةٍ عن الشخص المُنادى عليه سوى اسمه الأول فحسب، وفي النهاية توقفت، توقفت عندما نادت هشام.

– هشام مَن؟

– هشام لِصٌّ من أبناء القرية، كان سجينًا في لحظة ندائه، عثروا عليه ميتًا في الصباح، وقال الطبيب الشرعي إنه قد مات غرقًا، على الرغم من عدم وجود أي مياه بالقرب منها، لحظتها تأكدتُ أن كلام والدي صحيح، إن سماع الاسم يُعدُّ شهادة وفاة للشخص، ولا يوجد ما يمكننا فعله.

– وهل توقفتَ بالفعل؟

– نعم، عشتُ حياتي كما أخبرني والدي، اهتممتُ بعملي، وتزوجتُ، وعشت حياة سعيدة، أسمعُ النداء في بعض الليالي، ولكنني لا أهتمُّ به، أتعاملُ معه مثل المُصاب بنوبات مرضية لا علاج لها، فقط ينتظر انتهاء النوبة، استقامت حياتي فترةً طويلة، حتى أنني ظننتُ أنها ستدوم، ولكنني طبعًا كنتُ واهمًا.

– ماذا حدث؟

***

سار طارق نحو المنزل، يحمل أكياسًا بيديه، ويصفر لحنًا مُنغَّمًا من شفتيه، يفكر في زوجته الجميلة التي تنتظره في المنزل ليتناولا الغداء معًا، يشتاق إليها كأنه لم يتركها في الصباح فحسب، لو كان الأمر بيده لبقيَ بقُربها طوال الوقت، اقترب من المنزل عندما سمع ضوضاء شديدة في الشارع، رأى منصور أحد بلطجية المنطقة يتشاجر مع أحد جيرانه، ويحاول سرقة نقوده، وقَفَ حائرًا لحظاتٍ لا يعرف ما يفعل، إنه يكره الدخول في شجار مع البلطجي، وفي الوقت نفسه لا يمكنه الذهاب كأنه لم يرَ شيئًا.

وضع أكياسه بجوار الحائط، وأسرع نحوهما، سبَّه منصور، وطلب منه الابتعاد، ولكنه لم يبتعد، ودفع منصور بعيدًا عن جاره، أخرج منصور مطواة من جيبه، وفتحها قائلًا:

- سترى.

حاول طارق التصدي له، ولكنه جرحه في ذراعه، فسقط أرضًا، وألقى له الجار النقود التي يُريدها، وهو يصرخ طالبًا الرحمة، التقطَ منصور النقود، وبصق عليهما، ثم ابتعد، وهو يسبُّهما، نهض طارق من مكانه، ودفع الملتفين حوله الذين يسألونه عن حاله، أين كنتم منذ لحظات؟!

صعد إلى منزله، ودخل غرفته، أغلقها، ولم يستجبْ لنداء زوجته المتكرر حتى يئست فتركته، شعر بدموعه تغرق ثيابه، لم يكن يتألم

بسبب الجرح، كان يتألم بسبب الضعف الذي يشعر بـــه، الـــضعف الذي يجعل بلطجيًّا مثل منصور يضربه، ويسبه أمام الجميـــع دون أن يتمكن من فعل أي شيءٍ، لماذا لن يسبه هو الآخر، لماذا لم ينـــهضْ، ويضربه، لماذا؟ لماذا؟

لا يعرف متى غَرِقَ في النوم، رأي نفسه يسير وسط الحقول بجوار ترعة صغيرة، سار بضع خطوات ثم توقف، والتفتَ نحو الماء، كـــان على وجهه نظرة أرعبته هو شخصيًّا، نظر للماء لحظـــاتٍ، ثم بـــدأ ينادي:

- منصووووووور..... منصووووووور.

نداء طويل ممدود مثل الذي أرعبه سنوات يخرج مـــن حنجرتـــه الآن، يصمت لحظات ثم يعيد النداء، نداء قويًّا، أمر، يعرف جيدًا أن منصور سيطيعه رغمًا عنه، ظَلّ يُنادي حتى سمع الـــصرخة، صـــرخة يعرفها جيدًا، تعني انتهاء حياة.

وفي اليوم التالي عرف أن منصور البلطجي قد أخذتـــه النداهـــة أمس.

***

– ماذا؟! كيف فعلت هذا؟! لقد ظننت أنك قد انتهيت من موضوع النداهة.

نطقت نور بالعبارة فقال طارق:

– كنتُ أظنُّ هذا أيضًا، ولكنني كنتُ واهمًا كما أخبرتُك.

– إذًا فالقدرة لم تكن سماع النداهة فقط، بل أن تصبح أنت النداهة.

– لا، لم أصبح النداهة، ولكن يمكنني جعلها تنادي مَن أريدُ.

– يبدو أن الأمور أصبحت أفضل.

– لا، لم تصبح، لقد أصبحت أسوأ، أسوأ مما تخيلت.

– كيف! إنك تملك سلاحًا لم يتخيله بشريٌّ قبلك، يمكنك ارتكاب الجريمة الكاملة بمنتهي السهولة.

– ولكنني لستُ مجرمًا، أو على الأقل لم أكن كذلك، ولم أُرِدْ هذه القدرة قط.

قالها طارق، وتراجَعَ للخلف في مقعده، وأغمض عينيه دقيقة غلفهما الصمت خلالها حتى قطعته نور بقولها:

– ماذا فعلتَ بعد ذلك؟

- بالطبع رفضتُ تصديق ما حدث، وأقنعتُ نفسي أنها مجرد مصادفة لا دخلَ لي بها، وظللتُ أُردِّدُ تلك الكلمات يوميًّا، أنا لا دخل لي بوفاة منصور، وكالعادة استقامت حياتي فترةً قبل الكارثة التالية.

- قتلتَ شخصًا آخر؟

- لا، أسوأ، بدأت تظهر لي.

- مَن؟ النداهة؟

***

- هناك شخص في الغرفة.

تقلّب طارق في فراشه وسط العرق الغزير الذي أغرق جسده على الرغم من برودة الجو، يشعر بأنفاسه مُحتبَسَة في صدره من شدة الخوف، هناك شخصٌ معه في الغرفة، لا يمكنه رؤيته، ولكنه يشعر به، يعرف أنه يقف هناك في ركن الغرفة المظلم يُراقِبُه في نومه، ويهمس له بكلمات لا يسمعها، يتكرر الأمر كل ليلة منذ فترة، أكثر من مرة نهض، وفحص المنزل بالكامل، ولكنه لم يجد شيئًا، وبمجرد عودته للغرفة يشعر بوجوده معه، سافر إلى مكان آخر، ولكن هذا الزائر الغامض تبعه، يغمض عينيه فيشعر بأنفاسه الباردة على وجهه، تجعله يستيقظ مذعورًا.

يلمحه أحيانًا بطرف عينه عندما يمرُّ أمام مرآة، ولكنه يختفي سريعًا، حاول كل شيء، ولكنه لم يستطع إيقاف الأمر، ولكنه كان يعرف الإجابة في أعماقه، هذا الزائر ليس هو، إنها هي، هي التي لم يسمع صوتها منذ فترة طويلة، بالتحديد منذ نادى منصور، لا يعرف ما الذي تغيَّر، ولكنها قد خرجتْ، وجاءتْ إليه، همسُ له بما لا يفهمه، حتى جاءت تلك الليلة التي سمعَ فيها كلماتها بوضوح:

– أطعمني، أنا جائعة.

***

– أنت بالفعل أخذت القدرة إلى مستوى جديد لم يصل إليه أحد قبلك، ماذا فعلتَ بعد ذلك؟

سألت نور، فقال طارق:

– ظللتُ على إنكاري للأمر فترةً، واحتملت زياراتها الليلة المتكررة، وصراخها في أذني الذي بدأت سماعه في أثناء النهار أيضًا، كانت أصعب فترة عشتُها في حياتي كلها، حتى أنني فكرت في قتل نفسي لأرتاح من هذا العذاب، ولكن خلاصي جاءني في شكل آخر، لم أكن أتوقعه.

– ما هو؟

- مديري في العمل، رأفت، كان شخصًا بغيضًا مؤذيًا يكرهه الجميع، دعاني إلى مكتبه في ذلك اليوم، وظل يُؤنِّبني ويلومني على خطأ تافه، كنتُ متوترًا بسبب ما يحدث فانفجرتُ فيه، اشتعل الموقف بيننا، وكاد يصل للتشابك بالأيدي لولا تدخُّل بقية الزملاء، عدتُ لمنزلي أتميَّز من شدة الغضب، أشعرُ بصدري يغلي كالمِرجل، دخلت غرفتي، وغرقتُ في النوم، ويمكنُكِ تخمين ما حدثَ بعدها.

- وماذا حدث بعدها؟

- كانت وفاة رأفت نقطة تحول في حياتي، لحظتها تأكدت أنني بالفعل يمكنني جعلها تنادي مَن أريدُ، وعرفت أن الموضوع ليس اختياريًّا، إن النداهة تتغذى على أرواح من تقتلهم، ولحظة بدأت أنا النداء لم تعد هي تنادي، وعليَّ أن أُوفِّر لها غذاءها، وإلا أحالت حياتي جحيمًا، لا أعرفُ كيف حدث هذا، أظنُّ أنه بسبب تلك الرابطة اللعينة التي تجمعنا.

- هل حاولتَ كسر الرابطة؟

- لقد جربتُ كل شيءٍ دون فائدة، جربتُ كل أنواع التعاويذ، والطقوس من كل الحضارات، والأديان، ولم أصل لشيءٍ، ظلت تلاحقني، تطلبُ مني المزيد، أنا مُصِرٌّ على الرفض، طلبت منها أن تعود، إلى ما كانت تفعله، فأنا لستُ قاتلًا، ولن أفعل أيَّ شيءٍ، في

تلك الليلة صرختْ صرخةً مرعبةً أيقظت الحي كله، وأخبرتني أنني سأندم.

***

- أتمنى أن ينتهي هذا، أتمنى أن تعود الحياة كما كانت.

همسَ طارق بالعبارة لنفسه، وهو يجلس وحيدًا في غرفته، لم يخرج منذ أيام، وتدهورت علاقته بكل من حوله، حتى زوجته تركت المنزل، وذهبت عند أهلها لأنها تظنُّ أنه قد جُنَّ، هو لم يجن، هو مذعور للغاية مما ستفعله به النداهة، يشرب الكثير من القهوة، ويتناول عددًا كبيرًا من المنشطات ليظلَّ مُستيقظًا، لقد وعدته أنه سيندم، وهو يصدقها، يصدق أنها ستفعل به بما لم يتخيَّله في أسوأ كوابيسه.

لم يعرف متى انهارت مقاومته، وسقط نائمًا على الأرض، أو ربما فَقَدَ الوعي من شدة التعب، والقلق، رأى نفسه يسير وسط حقول يعرفها جيدًا، يعرف أنه يسير نحو الترعة القريبة، لم يكن يسير بإرادته، كان هناك شيءٌ يدفعه دفعًا نحوها، جاهَدَ ليصرخ، ولكن الصوت احتبس داخله، وصلَ إلى الترعة، ووقَفَ يتطلع إلى الماء، وهناك رآها، كانت تسير على سطح الماء دون أن تلمسه، لا يذكر شكلها، ولكنه يذكر أنها كانت تبتسم، وقفتْ تتطلَّعُ إليه لحظاتٍ، ثم حركت شفتيها

دون صوت، الصوت خرج من فمه هو، كان ينادي رغمًا عنه، كان ينادي زوجته.

***

– لم أخسر زوجتي فحسب في تلك الليلة، بل خسرت زوجتي، وابني، نعم كانت زوجتي حاملًا عندما أخذتها النداهة، لا أعرف كيف فعلتْها، ولكنها تحكَّمت فيّ، وجعلتني أناديها، لقد جعلتني أندمُ كما وعدتني.

توقف طارق عن الكلام، ومسح دموعًا هربت من عينيه، قالت نور:

– لا بد أنه كان شعورًا رهيبًا، لا يمكنني أن أبدأ في تخيُّل ما شعرتَ به لحظتها.

– لقد انتهت حياتي في تلك الليلة، قررتُ أن أفعل ما تأخر فعله كثيرًا، قررتُ أن أقتلَ نفسي، وبالفعل قمتُ بالمحاولة، ولكنني استيقظتُ في المستشفى، وعلمتُ أن جيراني أنقذوني، أخبروني أنهم قد سمعوا صراخ امرأة تطلب منهم مساعدتي.

– إذًا فقد أنقذتك.

– علمتُ لحظتها أنها لم تنتهِ مني، وهذا جيد لأنني أيضًا لم أنتهِ منها.

– ماذا ستفعل؟

- لقد سألتني في البداية لماذا وافقت على مقابلتك الآن، الحقيقة أنني فعلتُها من أجلي لا من أجلك، أحتاجُ أن يعرف الناس قصتي، أحتاجُ أن أرويها الآن؛ لأنني لم يعد لديَّ وقت، لقد وصلتُ إلى نهاية رحلتي، إنني أعيش لحظاتي الأخيرة.

- ماذا فعلت؟

- لقد ناديت نفسي، أعرفُ أن الأمر يبدو غريبًا، ولكنني فعلتُها، لقد ناديتُ نفسي، وأعرف أنها قادمة مِن أجلي، سنحصل على لقائنا أخيرًا.

ابتسمت نور قائلة:

- أخيرًا.

***

- أرجوك لا تفسدي الأمر.

همست نور بالعبارة لنفسها، وعدَّلت من وضع أوراقها على المكتب أمامها، ونظرت إلى الساعة أمامها، ما زال أمامها نصف ساعة حتى موعد مقابلتها مع طارق عبد الفتاح، زفرت بقوة مُحاوِلةً طرد توترها، إنها محترفة، وقد فعلتها أكثر من مرة، سيكون لقاؤها ناجحًا كالعادة، ولكنها لم تستطع كبح فضولها:

- ترى، عمَّ سيُحدِّثها طارق؟

إبراهيم السعيد

بديعة



حاكموا أنفسكم أولًا..

فكلكم مُجرِمون

1

الإسكندرية عام 1921

أكبر جريمة قتل في القرن العشرين، قضية ريا وسكينة

جلست طفلة، قصيرة الشعر غليظة الملامح ترتدي جلبابًا مُمزقًا لا يكادُ يسترُ جسدها الهزيل، على أريكة مالت إلى اللون الأسود بفعل ما علق بها من قذارةٍ بجوار ذلك الجُندي المسكين الواقف حارسًا على باب مُعلق عليه يافطة بيضاوية مكتوب عليها (وكيل النائب العام). كان الجندي الذي يرتدي الملابس الميري السوداء يرمقها بنظرة غريبة تجمع ما بين قسوة عمله الخالي من المشاعر، وطيبته كأبٍ لأطفال يعيشون في بلدته الأصلية في محافظة البحيرة أو في (البلد) كما يقول أهل الريف، والذين يراهم كُل عدة أشهر تقريبًا.

مبنى النيابة يعجُّ بمئات البشر، منهم من يسير مهمومًا ومنهم من يسيرُ مرفوعَ الرأس، ومنهم أيضًا من يسير مُكبلًا بالأصفاد وبجواره الجندي المُكلف بحراسته، لا يختلف حاله كثيرًا عن حال مسجونه، مُرهقٌ هو الآخر من كثرة الأوامر وقلة الطعام وكثرة الانتقال ما بين القسم والنيابة والمحكمة، هُم في ساقية مُستمرة، فكُلما رحل مُتهم بقضيته، حلّ مكانه مُتهمٌ آخر. كان المكتب الأكثر ازدحامًا وشغبًا هو مكتب (سُليمان بك عزت) وكيل النيابة، الذي انتُدب من القاهرة، بعدما راوغ المتهمون وكيلَ النيابة السابق، وأصابوه باليأس، وجرى تكليف (سليمان بك) نظرًا لخبرته وحنكته في استجواب المتهمين.

تجلس بديعة كالخرقة البالية منذ الثامنة صباحًا وحتى الرابعة مساءً دون طعام في القضية المُتهم فيها كُلُّ أُسرها تقريبًا. نظر لها الصول (علي) قائلًا

- إنتِ أكلتي حاجة يا بت.

نظرت له في انكسار وهزّت رأسها بالنفي، أطرق برأسه ثوانٍ ثم أخرج من حقيبته السوداء المُتسخة التي يحتفظ بها تحت الأريكة الخشبية الأكثر اتساخًا، نصف رغيف محشوًّا بالجُبن وقدّمه إليها وهو ينظر يمينًا ويسارًا:

- طيب خُدي، كلي ده بسرعة.

تناولته الطفلة في شغفٍ. هي في أمسِّ الحاجة إلى أي كائن يحنو عليها، في ذلك العالم المُتوحش، فيبدو أن القضية كبيرة، وأنها ستعيش مُدة طويلة دون أسرتها، كُل من يُقابلها من الأهالي أو الجنود يضربونها في بطنها، ويقولون لها: إن مصير أهلك الشنق؛ فهم وحوش وقتلة، كانوا يسحبون (النساوين) من السوق، والشوارع الجانبية ويقومون بخنقهن ودفنهن، في حجرات النوم نفسها، بل كانوا يعيثون فسادًا ويمارسون الرذيلة فوق جثثهن.

تعلم بديعة أن أُمها (ريا بنت همام) سيدة قاسية القلب، بل تشك أحيانًا بكونها بلا قلب أساسًا، لكنها مُتأكدة أن البشر حولها، هُم أشد قسوة من ريا وسكينة، فهم الذين دفعوا أُمها وخالتها بجشعهم، وقسوة قلبهم إلى المُضي في هذا الطريق. بعد أن مات الصغير ابن ريا من الجوع والمرض، كانت تشدُّ حزامًا قاسيًا على بطن (بديعة) حتى لا يقرصها الجوع. بديعة ترى أن الجوع وحشٌ مُخيف، هو أكثر شراسة من ريا وسكينة، فعندما يزورك، يخرج العقلُ من رأسك ويُحوِّلك إلى وحش كاسر ليس له رغبة سوى إسكات تلك الخناجر التي تمزق بطنه تمزيقًا.

التهمت الساندويتش الصغير بنهمٍ، فلقد كانت تلك هي أول لقمة تدخل جوفها الصغير منذ يومين، بعد القبض على أسرتها، نظرت إلى زجاجة الماء الباردة الرابضة تحت قدم الصول علي. كانت تتحرق

شوقًا إلى شربة ماء إلا أنها لم تطلب منه خوفًا من أن يضربها، فلقد ضربها الكثير من الجنود والأهالي حتى تورم وجهها وجسدها، وذنبها الوحيد أنها ابنة ريا وحسب الله. لا حظ الصول (علي) نظرات بديعة الشاردة المركزة على زجاجة المياه، فانحنى بجسده السمين وقدَّمها إليها، لتتناولها منه غير مُصدقة. كان يبدو قاسيًا بشاربه الكث المبروم لأسفل وجسده الضخم، لكن تصرفاته كانت تنُمُّ عن قلبٍ كبير. اعتدلَ الصول (علي) فجأة عندما فُتح باب وكيل النيابة وخرج منه المُتهمون، كان كُل زوجٍ منهم مُكبلًا بصفد. إلا أنها أشد قسوة من أمِّها ريا وخالتها سكينة.

ريا وشقيقتها سكينة، حسب الله وعبد العال، وباقي المُتهمين تباعًا. نظرت إلى والديها بلهفة، لكنهم لم يُعيروها اهتمامًا. أعطوها ظهورهم وساروا في الدهليز الطويل ما بين مكاتب النيابة. نظرت إلى الصول علي، وكأنها تستأذنه، أجابها بنظرة ذات مغزى، فهرولت خلفهم تناديهم:

– أُمي.. أبويا.

لم يتوقفا في البداية، لكنها جذبت ريا من ملابسها، نهرها الشاويش المُكلف بحراستها وركلها فسقطت على الأرض.

– إمشي بعيد يا بت.

نهضت بسرعة وهي تستعطفه والدموع في عينيها، وهي تضرب بيديها على صدرها:

- معلش والنبي يا شاويش، أسلّم عليهم ربنا يخلّي ولادك.

نظرت ريا للشاويش (خلف) نظرة جنونية بعدما أسقط (بديعة) أرضًا، بينما كان حسب الله في حالة تبلُّد بسبب قطعة الأفيون التي بلعها وسربها له (محمد السمني) وقد أخفاها في ملابسه الداخلية. جذبته ريا من أحد كُمَّيه قائلة:

- لو كنت حرة دلوقتي، لكنت دفنتك إنت ومراتك وعيالك.

تجمد الشاويش (خلف) من نظرتها الساحقة. هي تعني ما تقول، فهو يقف أمام أخطر مُجرمة في القرن العشرين. لذلك خفَّف قبضته قليلًا وترك الطفلة تقترب.

- أمي، وحشتيني.

لم ترد ريا بل كانت أشبه بقطار بُخاري مُسرعٍ لا وقتَ عنده للمشاعر. حدَّجتها ريا بنظر عجيبة تحمل الكثير من الكُره والشِفقة في آن واحد وهي تقول:

- إنشفي يا بت، هي موتة ولا أكتر، لو فضلتي قطة مغمضة كدة، هتخلّي الكلاب اللي زي ده يدوسوكي بالجزمة، خليكي زي الحية جلدك ناعم وسمك ناقع وبعدين أني ممكن نتشنق فلو مش

عاوزاني نموت، تقولي لوكيل النيابة لما يسألك أمي غلبانة وما عملتش حاجة وخالتي سكينة هي اللي كانت تساعد الرجالة في قتل النساوين، وأمي ما تعرفش حاجة.

كانت بديعة ترتجف بينما الأمُّ تُلقي تعليماتها الأخيرة قبل أن يسحبها الشاويش (خلف) مرة أُخرى إلى المحبس. وقبل أن تنتهي سمعا الصول (علي) ينادي بصوته الجهوري:

– الطفلة بديعة حسب الله، تعالي علشان تقابلي البيه وكيل النيابة. تمتمت الأم بوصاياها الأخيرة في أذن بديعة التي استدارتَ وهي لا تعلم ماذا سيحدثُ.

***

2

وقفت تنظر إلى الساعة الكبيرة المُعلقة على الحائط، وإلى بندولها الكبير الذي يتأرجح يمينًا ويسارًا مصحوبًا بدقات رتيبة مُزعجة، أصابتها بتوتر خفيف. تحتها كان يجلس سليمان بك، بجسده المُمتلىء وبذلته الأنيقة وشاربه الكث.

أخيرًا رفع عينيه عن الأوراق ونظر إليها مليًّا، بدت له كعصفور صغير وقع في فخ، ابتسم لها في حنوٍ صادق يمتزج بحرفية قائلًا:

– تعالي يا بديعة، إقعدي ماتخافيش.

اقتربت في حذرٍ وجلست على الكرسي الذي أمامه، بينما قام هو مُسرعًا، وأحضر (صينية) الطعام المُغطاة من فوق المنضدة المجاورة لمكتبه، عرفت بديعة مصدر الرائحة الزكية التي كانت تُداهم أنفها وتُدغدغ معدتها مُنذ أن دخلت الغُرفة. سحب سليمان بك المنديل الأبيض الذي يُغطيها، لتظهر من تحته دجاجة مشوية كاملة، ذَهَبَ

معها عقل بديعة، فالصغيرة لم تتناول طعامًا جيدًا مُنذ مُدة طويلة قد تزيد عن العامين. فلقد كانت البلد تمرُّ بمجاعة رهيبة، اضطرَّ الفقراء بسببها أن يلتهموا كُل شيءٍ وأي شيءٍ يقع في أيديهم حتى الحيوانات الضالة والنافقة لم تسلم من أيديهم، لم تُصدق نفسها عندما قدم لها وكيل النيابة الدجاجة قائلًا:

- كُلي يا بديعة، الفرخة دي كُليها كُلها.

وعلى الرغم من جوعها، ورغبتها الشديدة في التهام الدجاجة بالطبع، فإنها تردّدت قليلًا. وتذكّرت كلمات أُمها:

- دول حكومة، ماتاخديش حاجة منهم، وأي جد يسألك سؤال، قولي ما نعرفش.

لمح سُليمان بك الخوف في عينيها فقال لها:

- مالك يا بديعة، مابتاكليش ليه؟

ردتْ عليه في براءة:

- خايفة من أُمي وأبويا ليدبحوني.

- ليه؟

- علشان شفتهم من خرم الباب وهما بيموتوا نظلي أبو الليل.

تنهّد وكيل النيابة الذكي، ورجع بكرسيه للوراء، وهو يشعر بنشوة الانتصار، فلقد كان هذا هو أول اعتراف يحصل عليه. بعدما راوغه جميع المُتهمين مدةً طويلة.

لقد نجحت خطته الجديدة، بتوجيه مجهوده ناحية بديعة المسكينة، التي تُمثّلُ الحلقة الأضعف بين المُتهمين عتيدي الإجرام.

وضع قطعة أخرى من الدجاج في فمها في حنانٍ أبوي قائلًا:

– أنا عاوزِك تحكي كُل حاجة وإنتِ بتاكلي.

استرسلت بديعة، بينما جلس هو يُدوّن بنفسه كُل كَلمة، بدقة شديدة:

– أمي كان معاها بنت اسمها زينب، كانت أُكبر مني بشوية، وبعدين أُمي قالت لي إلعبي في الحارة، ولما رجعت لقيت زينب نايمة على السرير جنب أُمي، نطيت على السرير زي كل يوم فخبطت زينب، كانت عينيها مفتوحة ووشها أزرق، ومش بتتحرك ولما سألتها:

– مين دي يا أمّا؟

قالت لي :

– دي بنت واحدة صاحبتي، وهاتبيّت عندنا الليلة.

حسّيت إن فيه حاجة غريبة خصوصًا أنها مش بتتحرك، لكن أُمي قالت لي:

– عادى، هي تعبانة شوية، نامي إنتِ على الكنبة، وهي هاتمشي على الصبح.

فضلت طول الليل أبُص عليها وهي مش بتتحرك أبدًا.

صمتت بديعة وكأن شيئًا أثار اشمئزازها، ولكن سليمان بك قال لها.

– وبعدين يا بديعة؟

– وبعدين صحيت الصبح لقيت، أبويا وعرابي وأمي وسكينة، قاعدين على الكنبة التانية، بيشربوا ويضحكوا، وزينب مش موجودة على السرير.

– وما سألتيش أمك راحت فين؟

– سألتها وقالت لي دي سافرت عند قرايبها خلاص.

والمرة التانية لما بعتتني أنادي على الخيّاطة (نظلي)، وطلّعتني بره البيت، وكانوا معاها جوه، حبيت أشوف بيعملوا إيه فبصّيت من فتحة الباب، وأول مرة شفت أمي وهي بتكتم نفس نظلي بالمنديل، وخالتي سكينة والرجالة مكتفينها. أنا اتفزعت ومسكت الباب، وهما حسوا بالحركة ودخلوني علشان أشوف نظلي وهي نايمة على الأرض ومش بتتحرك وجنبها ملايتها اللف، وكانت خالتي سكينة (بتحل) الدهب من وداناها وإيديها.

ارتجفت بديعة وصمتت قليلًا، ناولها كوبًا من الماء قائلًا:

- وبعدين عملوا معاكي إيه؟

- جت أُمي، وحطّت المنديل أمام وجهي، وقالت لي:

- عارفه، لو فتحتي خشمك بكلمة، هانقطعوكي وندفنوكي زيها، إحنا بنعملوا كده علشان نظلي دي ست بطالة، وبنخلصوا الدنيا من شرها.

ردَّ عليها سليمان بك، وهو يخرج لفافة بلاستيكية، بها دُمية من القماش، بها بقع دموية مُتسخة وضعها أمام بديعة قائلًا:

- وأخدت العروسة اللي كُنتِ بتلعبي بيها، ودفنتها مع نظلي، وقالت لك لو اتكلمتي هاندفنك زي مادفنت العروسة.

نظرت بديعة للدمية*، عدّة مرات وزاغ بصرها وتركت الطعام، ثم صرخت صرخة طويلة هيستيرية.

***

* تم العثور على دمية قماشية بالفعل بجوار جثة نظلي أبو الليل.

3

الملجأ العباسي..

إقرأ الخبر يا جدع - الحُكم بالإعدام على ريا وسكينة.

كان صوت (عويس) بائع الجرائد يُجلجل بشارع الملجأ، حيث تجمع حوله عددٌ كبير من الأفنديات وأبناء البلد الذين يرتدون الطرابيش يتخطفون منه الجرائد حتى نفدت.الكل يريد أن يعرف ماذا حدث. فالجريمة قد هزَّت رُبوع مصر، فلقد كانت غريبةً وشاذة من نوعها، حيث سلك فيها الجُناة مسلكًا وحشيًّا، فلقد استمروا عامًا كاملًا يدفنون ضحاياهم حيث يسكنون، بل كانوا يعبثون ويمرحون ويرتكبون المُحرمات فوق تلك الجثث المدفونة تحت الأرض، كما أن الحكم بإعدام ريا وسكينة هو الحكم الأول من نوعه في التاريخ المصري،فلقد كان القانون المصري قبل تلك الجريمة البشعة يمنع إعدام النساء، لكنه عُدِّل بسبب ريا وسكينة اللتين استحقتا الشنق ألف

مرة. وبداخل الملجأ كان الوضع أكثر بشاعة؛ فلقد جلست فتاة نحيلة جدًّا ترتدي جلبابًا فقيرًا من الكستور المُقلم فوق سرير معدني حقير في حجرة رطبة أرضيتها من البلاط القذر، ونوافذها بلا زجاج يمنع شتاء الإسكندرية القارس من التسلل إلى عظامها الواهنة، كانت ترتجف بفعل كُل شيء: البرد، والخوف، وقسوة البشر.

فبالأمس قد حُكم على والديها وخالتها بالإعدام، كما أن اعترافاتها، كانت هي السبب الرئيسي في الحُكم عليهم، حيث لم يتمكن المتهمون من تكذيبها، بديعة لا تنسى آخر كلمة قالتها أُمها، وهي تصرخ في غضبٍ خانق وكأنه فحيح أفعى:

– أنا مش حذّرتك، إشربي بقى يا بنت الكلب، يتّمتي نفسك بدري يا عين أُمك، هاتعيشي زي الكلبة الجربانة وسط الوحوش دي، لو رحموكي يبقى مش هايسألوا فيكي، ولو حطّوكي في دماغهم، يبقى هاينهشوا لحمك!

هل تحققت نبوءة أُمها؟ بالفعل هي تشعر أنها في هذا الملجأ القذر، تُعامل كالكلب الأجرب، فلقد وضعوها في عنبر العزل الخاص بالحالات الخطرة.

شعرت بالباب يُفتح، وبصينية الطعام المعدنية الخفيفة تُصلصل، وقد وُضعت عليها بعض النفايات، يُطلق عليها مجازًا (لقب طعام)، تحمله تلك العاملة السمينة غليظة القلب والجسد والتي تُدعى

(نبوية).. فهي تلتهم نصف الطعام قبل أن تأتي به إليها، وإن كان به شيء له قيمة، لا يصل بالطبع.

ابتسمت نبوية بأسنانها الصفراء من فرط تدخين (المعسل) مع صديقها سُليمان البواب الذي تزوره في غرفته كثيرًا.. ترمي لها صينية الطعام على الأرض قائلة:

– خُدي يا كلبة، يا بنت المُجرمين، الي زيّك خُسارة فيه الأكل، لكن كله بثوابه.

ظلت بديعة مُنكمشة في مكانها، والدموع تطفر من عينيها، وهي تئنُّ أنينًا قويًّا.

فاستطردت (نبوية):

– بتعيّطى ليه؟ علشان هايعدموهم، غاروا في ستين داهية وسابوكي هنا علشان نتبلي بيكي، كانوا عدموكي إنتِ كمان وريّحونا منك.

ظلّت بديعة تبكي خائفةً، لكن نبوية سحبتْها بقسوة، وهي تركلُها في بطنِها وتضربها على وجهِها، وأسقطتها أرضًا بجوار صينية الطعام وهي تضعه في فمها عنوةً:

– لازم تاكلي يا روح امك، ولا عاوزة تجيبيلنا تُهمة.

كانت بديعة تتلقى الضربات في بطنها من قدم الفيل (نبوية)، وهي تصرخ بجنون،وشعرها لا يزال مُسترسلًا خلف ظهرها.. فسحبتها نبوية منه قائلةً:

- بكرة هانقُصّلك شعرك الحلو ده..

شعرت بألمٍ رهيبٍ يعتصر روحها، وجسدها،ظلت تصرخ وتبكي، فتركتها نبوية ورحلت، سمعت صوت ريا، وهي تهمس:

- خلّيكي زي الحيّة جلدها ناعم، وسمها ناقع.

استلقت على الأرض، وجسدها ينتفضُ بشدةٍ، وكأن تيارًا كهربيًّا يسري فيه، مع زيادة الارتجاج زادت سخونة جسدها، وشعرت أن روحها تكاد تخرج من حلقِها، لكنها لم تعُدْ خائفةً.

***

4

تجمَّع الصِّبيةُ في الملجأ العباسي ليشاهدوا ابنة القاتلة، التي كانت تسير بقوة بجوار (نبوية)، التي اندهشت كثيرًا من مُشاغبات (بديعة) وصلابتها، وكأنها تبدَّلت، فهي ليست الطفلة التي كانت مُستسلمة تمامًا بالأمس.

سارت معها في حديقة المبنى، وهي تنظر في أعين الجميع بلا خوف، حيث أخذتها نبوية إلى سليمان البواب، الذي يحلق شعر المُذنبات، مُعتمدًا على خبرة قديمة من عمله في البداية صبي حلاق.

كانت الفتاة (أشجان) هي أكثر الفتيات كُرهًا لبديعة، فأشجان هي فتاة شوارع مُتمرسة، مارست كُل الجرائم والموبقات، ولا تعرف لها أصلًا، فلقد عثر أحدُ الطَّيبين عليها في مدخل بيت قديم. ومن يومها وهي تعيش في الملجأ وتهرب منه إلى الشارع وتعود، ونظرًا

لذلك فهي فتاة لا تعرف كلمة (رحمة)، وتُنصِّب نفسها (حكمدارًا) للملجأ، ويجب أن يُقدِّم كلُّ فرد جديد فروضَ الطاعة والولاء لها، لكن بديعة قاومتها منذ أول يوم، وتشاجرت معها، فهي بالنسبة لها طفلة خرقاء تُبدي زعامة ليست حقيقية، هي لم ترَ إجرامًا، ولم تنم يومًا بين الجثث، ولم ترَ أمَّها وهي تقتلع قطعة من لحم امرأة حتى تحصل على قرط أو خاتم. تراها بديعة فتاة تافهة وحقيرة، تبادلتا نظراتِ كُرهٍ، وبديعة تسير في قوة بينما الأخرى تجري بمحاذاتها في الحديقة.

– إلحقوا يا ولاد هايحلقوا شعر بنت السفاحة.

اجتمعوا حولها يهلّلون، ويتغامزون حتى وصلت نبوية إلى غرفة قديمة تبدو كالكوخ في أطراف الملجأ، تحفُّها أشجارُ الصفصاف والسرو حيث كان (سُليمان البواب) جالسًا فوق الدكة بجسده الضخم وطوله الفارع وشاربه الكث، كان يراقب بديعة وهي تسير بخفة كفراشة صغيرة، بينما نبوية تنظر له في دلال أنثى فيل في موسم التزاوجٍ، لكن سليمان لم يُعِرْها اهتمامًا، بل كان ينظر إلى بديعة التي لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها في شذوذ وتلذذ، ابتسم لنبوية ابتسامة صفراء، فقالت له:

– خُد إحلق للكلبة دي شعرها.

وفي حركة عنيفة مَدَّ يده إلى شعرها بيدَ أن يدها سبقته، وهي تنظر له في شراسةٍ:

– نزّل إيدك النجسة دي.

جُنَّ جُنونه وزادت رغبته، وهو يسبها:

– بتشتميني يا بنت الفاجرة والله لأوريكي، أنا هاحلقلك شعرك على الزيرو زي الأولاد.

استعجلته نبوية، وهي تتلفت حولها قلقًا:

– خلّص يا سليمان بنت الشياطين دي.

دخل سليمان حجرته المتهالكة، وعاد معه حقيبة جلدية أسطوانية حمراء اللون بها مجموعة كبيرة من أمواس الحلاقة والشفرات، أجلسها على الدكة ووقف خلفها، واستمر في حلاقة شعرها، لم تُبدِ مقاومة، بل ابتسمت وشعرها يُقصُّ، لم تعلق، كانت نبوية تتحدث إلى أشجان والفتيات بينما هو يحاول أن يكلم بديعة:

– أيوه كده شاطرة، لو عاوزة أي حاجة تعاليلي هنا وهاجيبلك حاجات حلوة.

نظرت له مبتسمة، ثم أعادت استدارة ظهرها وجعلته يُكمل.

قطع حلاقته صوت قوي ناعم لسيدة دقيقة الجسد ملونة العينين، ترتدي ملابس الراهبات، وتقف بقوة كالجنود وهي تناديه:

– سليمان، تعالى هنا.

– أوامرك يا أخت (ماجدولين).

– بتحلق شعر البنت دي ليه؟

– أنا بحلق لها شعرها بناء على أوامر من الست نبوية.

نظرتْ إلى نبوية في غضبٍ، بينما بدت الأخرى غير مهتمة.

– خلاص كفاية كدة، ماتحلقوش للآخر.

بدا سليمان غاضبًا؛ لأنه كان يريد الانتقام، لكنه صمتَ.

عاد ليجد بديعة وقد جلست في وداعة. فقال لها:

– حظك إن الأخت ماجدولين ظهرت، وإلا ماكنتش رحمتك.

تحسَّس يده وهو يتلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن شفرة الحلاقة. قائلًا:

– الموس كان هنا، راح فين؟

***

5

ضربت الأخت ماجدولين بيدها على المكتب وهي تُعنِّف (نبوية)، وبجوارها (سليمان) البواب.

– إزّاي تعملوا كده في البنت وأنا موجودة؟

تصنّعت نبوية الوداعة، وهي تُكلم الأخت في ذِلّةٍ:

– هدّي نفسك يا أُخت ماجدولين إحنا ما كناش بنعاقبها، بالعكس قص الشعر كان لمصلحتها، علشان كان فيه حشرات.

نظرت الأخت ماجدولين لهما شزرًا قائلة:

– على العموم، أوعوا تفتكروا إني مش عارفة حاجة، كل اللي بتعملوه عندي.

امتقع وجههما من الخوف، ظل (سُليمان) صامتًا بينما ردّت نبوية بنفس نبرة الخنوع:

– والله أبدًا يا أخت ماجدولين إحنا غلابة، والبنات بيشنّعوا علينا علشان بيكرهوا النظام.

كانت الأخت ماجدولين غاضبة، وتعلم تاريخهما الشائن في التحرش بالفتيات، وسرقة المؤن المُقدمة لهن، لكنهما كانا في قمة الذكاء والحرص، حيث أفلتا من عشرات الشكاوى، والتحقيقات حول وضعهما المشبوه.

لم تتمكن من عمل شيء سوى تركهما يرحلان ككل مرة، فقالت لهما بأدب رغم غضبها:

– خلاص يا نبوية، امشي بس رجّعي البنت تنام مع البنات.

– لكن يا أخت، دي بنت خطيرة.

لكن الأخت ماجدولين ردّت عليها:

– ما سبب خطورتها؟

– أمها، وأهلها مجرمين غير عاديين دول (عصابة ريا وسكينة).

– وهي ذنبها إيه،؟ لو عملت حاجة ممكن نعاقبها.

عشرة أيام قضتها بديعة مع الفتيات، لم تُحبها الفتيات، ولم تُحبهنّ لكنها اقتربت كثيرًا من (حُسنية العبيطة)، تلك البكماء الخرساء التي رأتْها أطيب منهن جميعًا؛ فقد كانت تقاسمها اللُّقمة وكل شيء، وكذلك سندس التي تعرف الملجأ كله، وتعرف خباياه، حكت لها عن فساد سليمان الذي يتحرش بكل فتاة تأتي إلى هنا، كانت تسأل ببراءة:

– طيب وليه سايبينه هنا؟

– للأسف مفيش دليل عليه، كل مرة كان بينكر، ويكذّب البنت اللي بتقول كده، وآخرهم كانت (تفيدة الفلاحة)، دي كانت غلبانة ومع ذلك ما رحمهاش بمساعدة نبوية، وبعدين أهلها من البلد جُم وخدوها.

همست لها سندس قائلةً:

– إنتِ اللي عليكي الدور فخلّي بالك منه.

قامت الفتاة أشجان تدفع بديعة قائلةً:

– قومي يا بت نضفي العنبر.

غضبت بديعة، ودفعتها:

– لأ مش هاقوم.

– هاتقومي غصبن عنك، أنا حكمدار الملجأ وبنبهك.

اشتبكا بالأيدي والأظفار. كانت أشجان شرسة وأكبر من بديعة فأوسعتها ضربًا، بالقدمين حتى تركتها تتأوَّه والدماء تنزف من فمها على أرضية العنبر.

انطلقت صافرة النظام من إحدى الحارسات، واقتيدتْ أشجان وبديعة إلى الأخت ماجدولين بينما هبطَ الليل، فأمروا الجميع بالخلود إلى النوم.

***

6

جريدة الأهرام يوم 22 ديسمبر عام 1921

تصدَّر عنوان إعدام ريا وسكينة الصفحة الأولى بالجريدة. وكُتب أنه في ساعة مُبكرة من صباح اليوم، رُفعت الرايةُ السوداء على سجن الحضرة بالإسكندرية، إيذانًا بإعدام أول امرأة في تاريخ مصر وهي (ريا بنت همام) التي بدت خائفة وهي تسير في ملابس الإعدام الحمراء، وعندما سألها مُحافظ الإسكندرية:

– هل تريدين شيئًا؟

أجابته دون تفكير:

– عاوزه أشوف بنتي (بديعة).

لكن الرجل أجابها بغلظة:

– البنت زارتك من يومين فقط، ولا داعي لذلك.

سقطت دمعة من عينيها قائلة :

– لكي رب يا بديعة، أستودعك الله.

ثُم نطقت بالشهادتين وأُعدمتْ، ثُم لحقت بها شقيقتُها (سكينة بنت همام) بساعات، وكانت أكثر شراسة من شقيقتها، حتى أنها قالت للجنة الإعدام التي تلت عليها مُجمل جرائمها، وعدد النسوة التي قتلتهن.

– أيوه أنا قتلتهم، واستغفلت قسم اللبان سنة كاملة.

ثم نظرت لعشماوي بقوة قائلة:

– خَلّص ياعم أني مايهمنيش الموت، أني ست جدعة!

***

في صباح اليوم نفسه بالملجأ العباسي،كانت بديعة تغسل ثيابها المُتسخة في وعاء معدني من الألومنيوم مُنحنية أمام الحوض الأسود الطويل الذي كان يُستخدم قديمًا مشربًا لخيول أفندينا قبل تحويل القصر إلى ملجأ.

دخلت (نبوية) على وجهها ابتسامة تشفٍّ، وكأن تلك المسكينة قد قتلت أباها، وخلفها أشجان تمسك بيديها ورقة مُطوية من جريدة الأهرام، حيث تتصدرها صورة ريا وسكينة وخبر إعدامهما.

شعرت بحركتهن خلف ظهرها لكنها تجاهلتهنَّ تمامًا، واستمرت في الغسيل، إلا أن نبوية اقتربت منهاو وهي تُخاطب (أشجان):

– هو الجرنان اللي معاكي ده فيه إيه؟

– هو أني مش بنعرف نستقرأ، بس فيه صورة حلوة قوي للسفّاحة، وحبل المشنقة حوالين رقبتها.

ارتعدَ جسدُ بديعة، وهي تستدير، وتخطف ورقة الجريدة من أشجان، كانت بصعوبةٍ تجمع بعض الحروف، لكنها رأت صورة أمها واضحة بملابس الإعدام الحمراء، كانت تبكي، لكن ذلك لم يُثر أي مشاعر داخل هاتين الحيتين فاستمرتا في نَكْء الجُرح، فأكملت أشجان:

–ا لواد عويس قالي إنهم أعدموها النهاردة الصبح هي، والمحروقة (سكينة).

ردّت (نبوية) بسرعة:

– أهم غاروا في ستين داهية.

اشتعل غضب (بديعة)، وأمسكت بالوعاء الألومنيوم وانهالت به على رأس أشجان فأسقطتها أرضًا، كان جسدها الصغير ينتفض من الغضب مما أمدها بقوة هائلة، تغلبت بها على ضآلة جسدها أمام (نبوية الضخمة)، فقفزت في الهواء وانقضّت عليها، وعضّت أُذنها،

لتسقط نبوية أرضًا وهي تتلوّى من الألم كفيلٍ أفريقي لدغته حيةٌ وتصرخ:

– ودني يا بنت الكلب، سيبي ودني.

تدخّلت الفتيات، وانقضوا على جسد بديعة بالعصي حتى تُفلت أُذن نبوية، وفي النهاية نجح سُليمان البواب بأُعجوبة في تخليصها.

صرخت الفتيات ومعهن الأخت ماجدولين وهن يرين بديعة وقد ظهر في فمها قطعة من أذن نبوية، والدماء تُغطي جسدها، ثم بصقتها في غضب على وجه (نبوية) التي فقدت الوعي من شدة الألم.

لذا أمرت الأخت ماجدولين فتياها بلهجة مُرتعشة من الفزع:

– شيلوها وارموها في العنبر الانفرادي.

***

7

الساعة الواحدة، بعد مُنتصف الليل – عشرة أيام على إعدام ريا، وسكينة.

خلد الجميع إلى النوم، بعد يوم طويل من المُشاجرات. كان الظلام قد لفَّ القصر الكبير. لم يبقَ إلا ضوءٌ خافت ينبعث من الكوخ الصغير في آخر الحديقة، إنه كوخ سُليمان الغفير، حارس الملجأ الذي كان جالسًا، يُدخن الجوزة ويشرب الشاي الثقيل. كان من حينٍ إلى آخر ينظر في اتجاه القصر، لعله يراها قادمة، لكنها تأخرت على غير عادتها. يقتله الملل في المساء، حيث يجلس هُنا للحراسة، ولا يبقى له سوى (الجوزة) والشاي الثقيل وصوت صرصور الحقل المُزعج، وأحيانًا نبوية التي فرضت نفسها عليه، لكنه لم يجد غضاضة في ذلك، فليس لرجل فقير مثله حق الاختيار، فأحيانًا تكون حاجة الرجل

الأربعيني إلى امرأة تؤنس وحدته، حاجة مُلحة، حتى وإن كانت امرأة (نُص لبة) من عينة نبوية كما يقول هو عليها.

سمع حفيفًا قادمًا من بين أشجار الليمون، لم ينتبه للوهلة الأولى، خُيّل إليه أنها فتاة تسير في هدوء على الممر القريب من القصر، بدا جسدُها رشيقًا، وضوء القمر ينعكس على خصرها النحيل، حاول أن يتأكد أنها هي إلا أن الضوء الخافت ورأسه المُعبأ بدُخان الحشيش، قد حالا دون ذلك.

كانت ترتدي جلبابًا خفيفًا وشعرها القصير الفاتن يتماوج مع الهواء الخفيف، حدّث نفسه بأن تلك هي فرصته الرائعة في الحصول على سهرة جيدة، بعيدًا عن ذلك الفيل الذي سوف يأتي بعد قليل.

اقترب أكثر عندما لمحها تقف بظهرها بين أشجار الليمون القريبة.

– جيتي زي ما قلتلك، أنا مبسوط جدًّا.

لكنها استدارت سريعًا، وغرست شيئًا حادًّا بين ساقيه، جُنَّ جُنونه، وهو يشعر بشلال الدماء يتدفّقُ من أسفل جسده، صرخَ صرخةً مُدوية وشعر أن قواه تخور تدريجيًّا.

***

8

سيارة البوليس تقف بداخل الملجأ العباسي، حيث انتشر رجال البحث الجنائي وهم مُندهشون من وجود جثة ممزقة في ذلك المكان المُسالم.

جلس محمد بك المانيسترلي رئيس مباحث الغرب، وهو يتفحص جثة سليمان التي مُزِّقت في مكان حساس من جسده. نظر إلى رجاله في هدوء قائلًا.

– في رجالة تانية في الملجأ.

أجابوه بالنفي، تبادر إلى ذهنه أن الجاني ربما يكون امرأة فعلت ذلك بدافع الانتقام، فالجُثة ممزقة بطريقة انتقامية.

جلس (محمد بك السمادوني) في المكتب الذي خصصته له الأخت ماجدولين، كي يتمكن من التحقيق مع الجميع، رسم مجموعة من الدوائر على كراسة بيضاء، وهو يُطالع ملفات جميع من بالدار.

سمع عدة طرقات على الباب فرفع عينه عن الأوراق مُناديًا:

- إدخل.

دخلت فتاة تبدو ملامحها غجرية، ورأسها مربوط.

وقفت صامتة أمامه بينما هو ينظر لها من رأسها إلى أخمصي قدميها مما جعلها تتعرق أكثر، باغتها فورًا:

- أشجان محمد السيد الشهيرة ب (شجن)،

ازدردت لُعابها وهي تسمع الاسم الذي ظنَّت أنه بعيد عن (الحكومة):

- أيوه يا بيه.

- كُنتي فين الساعة الواحدة صباحًا؟

- كُنت نايمة في سريري.

- ومين يشهد على كده؟

- (سميرة بنت علي) و (مريم بنت جرجس).

تطلّع إلى الضمادة التي تُغطي نصف رأسها وسألها:

- إيه اللي عوّرك بالشكل ده؟

- من حوالي إسبوع إتعاركت مع (بديعة) بنت ريا السفاحة.

جعله الاسم ينتبه.

- آه، هي بديعة هنا؟

- أيوه يا بيه.

- طيب ليه عوّرتك؟

- من يوم ما عرفت بخبر شنق أُمها، وهي طاحت فينا زي المجنونة، أنا والتُمرجية (نبوية).

ابتسم محمد بك السمادوني ابتسامة ماكرة تنمُّ عن خبرة واسعة قائلًا:

- آه طيب ما لبنات أنا شوفتهم في الملجأ، كويسين وزى الفُل، ليه عوّرتك إنتِ ونبوية بالتحديد؟!

تلعثمت أشجان، ولم ترد.

فباغتها بسؤال آخر حطَّم أعصابها تمامًا:

- وإيه حكاية شجن دي بقى! إنتِ (كرخانجية) يا بت؟، أنا شُفتك قبل كده، إنتِ كُنتي بتشتغلي (مقطورة) عند (حُسنة العايقة) في دمنهور؟!

هجمت (أشجان) على يده تُقبلها قائلةً:

- أبوس إيدك يا بك ما تفضحنيش، أنا تُبت، وعايشة هنا كافية خيري شري.

- ولاّ هربانة من حُسنة لتقتلك، بعد ما سرقتيها، وهربتي مع صاحبها، وحلفت لتقتلكم.

شعرت أشجان أن محمد بك هذا يعرف الكثير، وسوف يتسبّب لها في مُشكلات عديدة.

- والله يا بيه، أنا ما عملتش حاجة، ولو شفت عليّا حاجه إبقى احبسني.

تنهد في فراغ صبر قائلًا:

- ماشي يا أشجان، كلُه هايظهر.

خرجت أشجان، وأسنانها تصطكُّ رُعبًا، ونظرت نظرةً مُريبة (لنبوية) التي كان الدور عليها.

- حضرتك طلبتني يا بك؟!

نَظَرَ إليها، وقد هاله جسدها السمين، وغِلظة ملامحها، بالإضافة إلى الضمادة التي غطت أذنها.

أجابها بلهجة آمرة بعد سؤاله التقليدي عن الاسم، والعنوان:

- ليه بديعة عوّرتك في ودنك؟

فهمت نبوية أن أشجان قد أخبرته بالحكاية فقالت:

– اليوم ده بلّغناها إن عشماوي شنق المُجرمة (ريا)، وهي سمعت عن الخبر يا بيه، وبعيد عنك، طاحت فينا كلنا، ونطت عليّ زي الوطواط، ولزقت في ودني وما خرجتش إلا بالدم.

نظر لها في ريبة.

– كُنتي فين ساعة الحادث؟

– كُنت نايمة يابيه.

– حد شافك؟

– لأ كنت في المطرح بتاعي، ونايمة من التعب، الدكتور كاتبلي على راحة، ظهرت عدة خُدوش قوية في رقبتها، فسألها:

– ومنين الخدوش اللي في رقبتك دي؟

– دي من البت بديعة الله يحرقها، لما عوّرتني.

ظَلّ محمد السمادوني يكتب وراءها كثيرًاو وبعدها قال:

– إمضي يا نبوية هنا.

– ده إيه سعادة البيه؟

– دي أقوالك.

غادرت نبوية، ومحمد بك يُطالع كشف الأسماء مرة أخرى، وهو يكتب في الدوائر الموجودة على الصفحة البيضاء ثلاثة أسماء. (أشجان)، (نبوية)، و(بديعة)، بدا كشابٍّ مُراهق وهو يرسم بدقة ملامح أشجان ونبوية، حيث ظهرتا كما هما في الواقع، وكشفت رسوماته عن موهبة فذة للضابط الشاب، وقف عند بديعة ورسم علامة استفهام كبيرة، خرج من الغرفة مناديًا الجندي المُرابض على الباب:

– يا محروس، يا محروس.

– أوامرك يا سعادة البيك.

– روح نادى لي الأخت ماجدولين ضرورى جدًّا.

هرولَ (محروس) إلى حجرة الأخت ماجدولين حيث وقفت عاملة على باب حجرتها.

– هو فين الأُخت ماجدولين؟ البيه الضابط عاوزها.

ردت عليه في أدبٍ جمٍّ:

– هي بتصلى دلوقتي. فلو سمحت لما تخلص صلاة أنا ها بلّغها.

عاد الجندي بالرسالة، وانتظر الضابط مُدة قاربت الساعة، وهو يُطالع مرة أخرى،كل أدلة المعمل الجنائى وأحرازه، كما راجع كل أقوال الفتيات والعاملات.

تابع اسم (بديعة بنت حسب الله مرعي) في الكشف بعينيه أقوال جميع من بالملجأ، إلى أن سمع طرقًا على الباب.

أذِنَ لها بالدخول فدخلتْ وهي أكثر هدوءًا.

– حضرتك طلبتني.

– أيوه.

وضع مبسم سيجارته في كوب القهوة، نتيجة لعدم وجود مطفأة. ثم قال في هدوء:

– كشف البنات اللي أعطيتيه لي، فيه 42 بنت وأنا حققت مع 40 بس، فين بقية البنات؟

– في بنتين حالتهم المرضية لا تسمح بالاستجواب.

صرخ في وجهها بعنف:

– أنا لازم أعرف، إنتِ بكدة مش متعاونة معايا.

ردتْ في وجلٍ:

– أنا يا فندم ما بفهمشْ في الحاجات دي، وكل اللي حصل إن البنات كانت تعبانة، فيهم (بديعة بنت ريا)، و(حسنية بنت زكريا) ودي مريضة نفسيًّا.

رد عليها محمد بك بحدة:

- يعني عوّرت ناس عندك، وبنت أخطر سفاحة في مصر، وحصلت جريمة قتل بعد وجودها بشهرين في الملجأ، وواحدة مريضة نفسيًّا، وشايفة الموضوع بسيط، دول أخطر بنتين عندك يا هانم.

وقفت ماجدولين صامتة، بينما قال هو:

- أنا شايفك بريئة، ومش فاهمة حاجة علشان كده مش هاتّهمك بشيء، بس بعد كدة لو فيه أي تفاصيل، بلّغيني بيها.

- حاضر.

سألها آمرًا:

- فين البنتين؟

- إتفضل معايا.

سار عبر طرقات الملجأ الواسعة، ليهبط إلى حديقة جميلة بها الكثير من الأشجار المثمرة ليعبرها إلى مبنى قرميدي أحمر اللون، بدا كأحد منازل الريف الإنجليزي. كان يمسح بعينيه المكان، وإن كان مُعجبًا بجماله وأناقته، دلفَ إلى غُرفة واسعةٍ بها سرير معدني حقير وبجواره خوانٌ عليه بعض الأدوية، حيث كانت بديعة راقدة بلا حراك والعرق يتصبَّب من جسدها، بينما جلست (حسنية العبيطة) تلعب على الأرض بملابس متسخة وشعر أشعث، ولعابها يسيل على ذقنها مما

جعل محمد بك يشمئزٌ من ذلك المنظر غير المريح وهو يقول لماجدولين:

– سايبينها ليه كدة؟

– بننضفها كل ساعة بس هي مش بتتحكم في نفسها.

غمغم:

– طيب وما راحتش اسبيتاليا نفسية ليه؟

– مفيش مكان ليها هناك، هي مش خطرو ومش مجنونة هي هادية ومابتتكلمش.

كاد محمد بك أن يغادر، إلا أن شيئًا لامعًا تحت سرير بديعة لفت انتباهه، فانحنى لالتقاطه، وهو ينظر للأخت ماجدولين مبتسمًا في شراسة:

– واضح إن القضية دي هتتحل بسرعة.

***

9

منزل ريا – حارة علي بك الكبير ..

تقف بديعة في مدخل المبنى العتيق، تُحاول أن تصعد الدرج الخشبي، رائحة كريهة تُزكم أنفها. صوت جلبة وصراخ يأتيان من أعلى، بعدها خرجت أمُّها من الباب مُتوترةً، نظرت إليها نظرة من أعلى خلعت قلبها، لم تتبادل معها الكلمات كعادها، وإنما صعدت فوق سور الدرج الخشبي، بينما وضع رجلٌ ضخم حبلًا قويًّا حول رقبتها، وهي تبتسم لها، ثم دفعها من أعلى للتدلي في بئر السُّلم.

أحدث صوت تحطم عظام رقبتها قعقعة مُقززة، جعلت بديعة تجلس على ركبتيها وتفرغ ما في جوفها، ثم تلتها سكينة وهي تضحك لها ضحكة مُخيفة أظهرت سنتها الذهبية التي حصلت عليها من جُمجمة (زنوبة الفرارجية). ثم سقطت هي الأخرى في بئر السُّلم.

لكن الهول كان في انتظار بديعة، حيث فُتح الباب الكبير على مصراعيه وخرج منه قطٌّ أبيض ضخم يهبط ناحيتها من فوق السُّلم الخشبي وينظر إليها فاتحًا فمه في وحشية، حاولت الهرب إلا أنها بدت مسجونة فيما يُشبه القفص الزجاجي، وتبعه النسوة الست اللائي تم دفنهن بهذا المنزل، وهنَّ يهبطن من فوق السلم الخشبي مُحدثاتٍ

طقطقة مزعجة، حيث كنَّ يسرن ببطء وأفواههن مُكممة بشيءٍ ما يُشبه غطاء الرأس التي كانت تضعه أُمها، وأنينهن يمزق أذنها، تمكّنت من التعرف إليهنَّ رغم إضاءة الكلوب الخافتة، نظلي أبو الليل – زنوبة الفرارجية – نبوية بنت علي – قهوجية كوم بكير وفاطمة العورة شيخة المخدمين وزينب بنت فضل الله.

كُن يصخرن في وجهها صُراخًا جنونيًّا ويكسرن، اللوح الزجاجي محاولين بأيديهن الدامية الوصول إلى رقبتها وخنقها، وكأنهن يردن الانتقام منها.

صرخت بديعة صرخة مُدوية واستيقظت لتجد الأخت ماجدولين وبجوارها طبيب الملجأ، لكنها اندهشت عندما رأت ذلك الجندي يقف قريبًا منها، ويدها اليمنى مُكبلة بقيد أميري في السرير الإيديال المعدني. كانت بديعة تهذي قائلةً:

– أمي.. أمي.

قال الطبيب للأخت ماجدولين:

– لو استمرت الحرارة على كدة لازم تتنقل المستشفى، وإلا هاتموت.

لكن صوتًا باغته من الخلف :

– لا هي هاتيجي معانا، واحنا هانعالجها بمعرفتنا.

***

10

– إتكلمي يا بنت الكلاب، ليه قتلتي الراجل؟

كانت تصرخ في هسيتيريا، وهي مُعلّقة من قدميها في الهواء بينما رأسها لا يصل إلى الأرض، وعجل بشري يصفع قدميها الصغيرتين، بعصى خشبية مُفلطحة.

– والله أنا ما عملت كدة.

– إحنا لقينا الموس اللي سرقتيه من شنطة العدة بتاعة سليمان، ولقينا عليه بصماتك، ودم سليمان.

– أنا كنت مسورقة، ومعرفش حاجة عن القتل.

صرخ محمد السمادوني في غضب:

– لأ إنتِ قتلتيه بالشكل ده علشان، حاول يغتصبك صح،

صمتت في خجل:

- أيوه هو حاول يعمل كده، لكن ما قتلتوش.

- قوليلي من غيرك في الملجأ ممكن يعمل كده إنتِ لسه جاية من كام شهر، وبعدين إنتِ متربية وسط مجرمين.

بكت بديعة، وساقاها الصغيرتان ترتعشان:

- أبدًا والله، أنا غلبانة قوي.

لم يكن محمد السمادوني، يحتاج لأكثر من ذلك، فالجريمة قد صارت واضحة المعالم، ظل يكتب، ويستكمل أوراقه، ثم نظر لها واستدعى الشاويش قائلًا، وهو يسلمه الأوراق.

- بُكره بديعة تتحوّل على النيابة.

ذهبت إلى الزنزانة، وهي ترتعد، وجسدها يكاد يتمزق من الجوع، والإرهاق، الليلة ليلة رمضان، وهي تجلس على قطعة من الخيش الجاف في زنزانة منفردة، مراعاة لصِغر سنها، لكنها لم تتعامل معاملة كريمة، لم تفرح برمضان كالأطفال، كانت سلواها تأتي من ذلك الصوت العذب الذي يتلو القرآن في المسجد القريب من محبسها، تُريد أن تصوم وتتوضأ وتصلي، يومها قالت للأخت ماجدولين:

- أريد أن أصلي مثلك.

فضحكت بطيبة قائلة:

– ما ينفعش يا بديعة، إنتِ مُسلمة، وللأسف ما حدش من البقر دول بيصلي علشان يعلمك، عمومًا لم يجي أمين أفندى، مُدرس العربي هاخليه يعلّمك.

سألتها برقة:

– هو أنا ينفع ربنا يقبل مني حاجة وأنا عيلتي كلها قَتلة.

نظرت يومها من شباك مكتبها، والدموع تترقرق على وجنتيها وهي تحتضن بديعة.

– ربنا أرحم من أي حد.

بكت ليلتها، وهي تسمع الشيخ يقول:

– إذا ضاق بك الحال.. فقل يا رب.

فنظرت إلى السماء وقالت من قلبها:

– يا رب.

سمعت باب الزنزانة يفتح لتجده أمامها يبتسم بجسده السمين وطيبته الواضحة في قسمات وجهه، وهيئته الريفية المحببة، كان يرتدي ملابسه الرسمية، وهو يُخرج من حقيبته طعامًا، وملابس ثقيلة، والدموع تترقرق في عينيه.

- إزيّك يا بديعة.

تذكرته.. إنه (الصول علي، الشخص الوحيد الذي أكرمها.

اقتربت منه، واحتضنه باكية، شعرت في حضنه بشيء لم تشعر به مع أبيها (حسب الله)، شعرت بالأبوة والدفء، كان يشعرُ بضعفها ويعرف أنها مجرد طفلة بائسة.

نظرت له في حزنٍ:

- أنا ما عملتش حاجة يا عم (علي).

- عارف يا بنتي، أنا قريت المحضر، للأسف هما في الملجأ إتهموكي ظلم، لكن ربنا هايظهر الحق.

- أني خايفة نتشنق زي أُمي.

- لا يا بنتي ما تخافيش، إن شاء الله تخرجي، وتيجي تعيشي معايا في (أبو حمص) مع زهرة بنتي، وأم زهرة.

شعرت بأنها تحلم فقالت في رجاء:

- يا ريت.

شعر بارتياح في القرار الذي اتخذه، فأخرج بعض الطعام قائلًا:

- خُدي، أم زهرة باعتالك حلويات من رمضان وأكل، كلي كويس.

أخرجَ كيسًا آخر، وأعطاها ملابس قائلًا:

- دي حاجات من عند زهرة استري نفسك يا بنتي.

جاءته طرقات على الباب، فنهض مفزوعًا:

- أنا لازم أقوم يا بنتي وربنا يفرجها بكرة.

***

11

صور ريا وسكينة، تفاصيل في حياة السفاحة، رجال حول ريا وسكينة.

أكثر من ثلاثة أشهر متتابعة، والعالم كله يعيش تلك القصة التي حولوها إلى أسطورة شعبية من الرعب والظلم. حاولت الصحافة أن تزورها كثيرًا إلا أن الشرطة منعتهم.

عادت الحياة إلى طبيعتها في الملجأ العباسي بعد التخلص من بديعة التي رأين أنها شَرٌّ مُستطير.

انطلقت صافرة الاستيقاظ في الملجأ، حيث وقفت نبوية تنهر البنات:

- كله يصحى يا بنات عندنا شغل كتير النهاردة.

استيقظ الجميع، إلا أنها لاحظت أن أشجان ليست في سريرها فتساءلت:

- هو فين أشجان؟

نظرن إلى سرير أشجان فلم يجدنها.

قطبت نبوية حاجبيها قائلة:

- هاتكون راحت فين يعني؟

قالت إحداهن لها:

- يمكن راحت الحمام.

اقتربن من الحمامات التي تواجه العنبر، كانت كل الأبواب مفتوحة عدا واحدًا، في البداية، خفن أن يفتحن الباب، فتحته نبوية على مهل، لتنطلق موجه من الصراخ العارم، غطت المنطقة بأسرها، حيث كانت أشجان تتدلى من حديد الشباك المُرتفع، وقد التفَّ حبل سميك حول رقبتها.

جلست الأخت ماجدولين باكية على ركبتيها، وهي تصلي، بينما انكمش الآخرون في فزع.

في التوقيت نفسه، شعر محمد بك بحرارة في جسده وبأنه مريض حيث كان يسعل بشدة، قرر أن يرتاح في ذلك اليوم إلا أن إشارة

إلى مديرية الأمن بانتحار فتاة داخل الملجأ العباسي قد قلبت يومه رأسًا على عقب.

تلقّى محمد بك الورقة من الجندي، وهو يسعل بشدة، وبالطبع تبددت فكرة حصوله على راحة. كان عليه أن يحمل أوراقه ويعود مرة أخرى إلى لملجأ.

وقف يعاين الجثة التي بدت (مشنوقة)و بحبلٍ ومعه وكيل النيابة الذي أمر بتحويل الجثة إلى الطب الشرعي لمعرفة كيفية الوفاة، كان موقف محمد بك السمادوني حرجًا للغاية كان يتمنى أن يكون الحادث انتحارًا حتى لا يقع في حرج باتهامه بديعة ظلمًا، لكنه كان يشعر بحسه الأمني أن هناك خطأ، وأن الجاني لا يزال حُرًّا طليقًا.

حتى اقترب منه الجندي في المساء، وهو يعطيه تقرير الطب الشرعي، بالفعل لقد خُنقت أشجان وجرى تعليقها.

قرر أن يبحث مرة أخرى في جنبات الملجأ، سار أمام عنبر البناتو وهو يسعل بشدة، بحث عن منديله القماش فلم يجده فاضطر لاستخدام ورقة فارغة في جيبه يحتفظ بها لتدوين أي شيء، بحث عن صندوق قمامة قريب. وجده هناك أمام عنبر الغسيل. فتح الصندوق وألقى الورقة، ومشى عدة خطوات، إلا أنه توقّف ثم عاد فجأة وأفرغ محتويات الصندوق كلها على الأرض.

***

12

انتشرت قوة من الأمن بقيادة شابٍّ صغير تفتش كل شبر في الملجأ بحثًا عن شيء، ما بينما جلس (محمد بك) على المكتب، وأمامه أوراقه وشيء موضوع داخل كيس بلاستيكي صغير، بينما وقف كل العاملين بالملجأ أمامه بمن فيهم الأخت ماجدولين في فزع. لكنه كان هادئًا تمامًا وهو يقول:

- آسف يا أخت ماجدولين إني قطعت صلاتك تاني.

غمغمت في رعب:

- أبدًا يا فندم. الصبر من شيم الصالحين.

- لكنني لا أعتقد أن القتل أو التستر على قاتل هو من شيم الصالحين.

امتقع وجهها وبكت قائلة:

– لا، أنا لم أقتل أحدًا.

لم تكمل جملتها حتى دخل قائد القوة،وهو يؤدي التحية العسكرية وخلفه أربعة من الجنود يحملن فتاة هزيلة في حالة إعياء.

– لقينا البنت (حسنية) يا محمد بك.

ابتسم محمد بك وهو يخرج ملابسها القديمة من الكيس ودميتها وهو يأمرهم بأخذها، واقتياد الجميع إلى المديرية.

بعد ثلاثة أيام جلس محمد بك، ومعه وكيل النيابة أمام الفتاة (حسنية العبيطة)، التي كانت تنظر لهما في رعب.

– إتكلمى يا حسنية ماتخافيش. أنا عارف انك بتتكلمي، علشان كده حاولوا يقتلوكي.

– لا أنا خايفة أتكلم تموّتني.

ابتسم محمد بك لوكيل النيابة الذي راهنه أنها تستطيع الكلام، وليست بكماء.

– لا ماتخافيش مين اللي قتل؟!

–بديعة بنت ريا مظلومة، بديعة دي (غلبانة قوي)، وطول عمرها شايفة الذُل.

– طيب ليه كنتي عاملة خرسا، وعبيطة؟

– علشان حرقت مرات أبويا، وهربت، وخفت يموتوني.

– مين اللى قتل سليمان وأشجان؟! ماجدولين ولا نبوية؟

– ماجدولين طيبة، وغلبانة ومش قد نبوية المجرمة، هددوها بقتل أمها المسكينة علشان كانت خايفة، نبوية هي اللي قتلتهم.

تراجَعَ محمد بك في كرسيه مبتسمًا، وهو يتنفس في ارتياح، استطردت حسنية:

– (سليمان)، و(نبوية الهجمة) و(أشجان) كانوا أوسخ من بعض، كانوا مدوّرينها (كراخانة)، ونبوية كانت عاوزة سليمان يتجوزها، لكنها اتجننت لما شافتهم مع بعض، وبعدين سمعت (نبوية) بتهدده بالقتل.

– طيب وانتي سمعتيهم إزاي، وهي بتهدّده؟

– علشان همّا كانوا فاكريني هبلة، وما بسمعش، فكانوا بيقولوا كل حاجة قدامي، واستغلّت (نبوية الهجمة) وجود (بديعة بنت ريا)و ورمت موس الحلاقة اللي سرقته من عدة سليمانو واللي قتلته بيه، تحت مرتبة بديعة علشان تلبّسها فيها، وهي اللي خنقت أشجان، وعلّقتها علشان هدّدهّا أشجان بعد (عركة بينهم) إنها هتقول كل حاجة.

– عاوزه تقولي حاجة تانية يا حسنية؟

– الأخت ماجدولين مسكينة، ونبوية كانت قوية عليها. هي ما قتلتش حد.

13

– إنت إتجننت يا صول علي؟! إزاي تؤوي المُجرمة دي في بيتك؟ دي بنت مجرمين والعرق دساس.

هكذا استقبل قائد الصول (علي) طلبه بالاحتفاظ ببديعة، وتربيتها.

– دي بنت غلبانة، ومسكينة يا سعادة البك، وماهاش حد.

أكمل الضابط الكبير بلهجة حازمة:

– إنت بقى قلبك رهيف يا (علي)، وده ما ينفعش في شغلنا، انسى الموضوع ده علشان سمعتك كرجل شرطة وإلا هاطلب تسريحك من الخدمة وإنت معاشك قليل، فكر ورد علي.

كان الصول علي يفكر بالفعل.

فقال لنفسه:

– بكرة هاروح أزور بديعة وأستشير (أم زهرة) وربنا كريم، ومابينساش حد.

عادت إلى الملجأ العباسي بعد تغير كل العاملات، ونقل الأخت ماجدولين إلى دير في الصحراء، والحكم على نبوية بالإعدام، لقد كانت تتهكم على أمها، وصارت هي أول من سيزور عشماوي بعد ريا وسكينة، لكن الحُمى قد عادت مرة أخرى، نامت في سريرها البارد كانت ترتعد بالرغم من الحمى، لكن لا أحد يهتم، شعرت برغبة شديدة في النوم، فألقت جسدها الواهن على السرير المعدني الذي يتوسط الغرفة الفارغة تقريبًا إلا من دولاب معدني قصيرو وخوان فوقه كوب من الماء، وصورة قديمة وضعتها بديعة مع أمها ريا، خمس نسوة وقفن حول سريرها، وهن ينظرن إليها، خفت ضوء المصباح الزيتي المعلق في سقف الغرفة.

– أعطيني حتة سمكة يا خالتي، جعانة.

نظرت لها سكينة بقسوة:

– سيبينا في حالنا هو إحنا لاقين نفطر.

لكن ريا نظرت لها بحنو قائلً:

– سيبك منهم دول ميتين على القرش، ولما تعوزي حاجة قوليلنا واحنا نجيبوهالك، وكانت بتشتري لي بقرش برتقال.

- أبي هاخدك يا بديعة ونسافروا بعيد ونعيشوا كويس، بس هي سافرت لوحدها وسابتني.

وجدت أم زهرة زوجة الشيخ علي تقول لها:

- خُدي الفطيرة دي يا بديعة، أنا مستنياكي تعيشي معانا في البلد، عمك علي ده راجل طيب، وهايعاملك زي زهرة.

- كان نفسي في مدورة ألبسها على رأسي زي كل البنات، ماحدش رضي يجيبها لي، لكن خالتي سكينة عطتني واحدة من بتوع الحريم اللي قتلوها، لكن أبي مارضيتش، وفضلت بالمقطعة القديمة اللي على رأسي.

ابتسمت لها ماجدولين الطيبة، وهي تقول:

- ربنا أرحم من الكل يا بديعة.

- كنت بحب (أم أحمد النص) صاحبة أمي، وكنت بقعد في دكان البطيخ بتاعها، فكانت لما ييجي زبون تقوله، إدي للبنت الغلبانة دي قرش، وكانت تشتري لي بيه صحن طبيخ أروح أكله أنا وأمي.

تتذكر كلمات ريا..

- علشان تعيشي يا بديعة في الدنيا خليكي زي الحية (جلدها ناعم وسمها ناقع)، لكن أنا غلبانة وبنخاف من كل حاجة، أنا شربت

الخوف من زير البيت اللي كنتوا بتقتلوا فيه النسوان، ماعرفتش أكون حية، وماحدش رحمني، ماحدش رحمني.

اشتدت الحُمى على وجهها، وعلى جسدها، شعرت بالنيران تقترب، تصهر جسدها وروحها وتحرق شعرها، دخان أسود كثيف يجثم فوق صدرها، أرادت أن تصرخ فلم تتمكن. لقد طغى الدُّخان الأسود على كل شيء.

وقف الصول علي أمام الملجأ المُحترقو ودموعه تغلبه، قائلًا

– الله يرحمك يا بنتي ارتحتي من الظلم.

***

في اليوم التالي جريدة الأهرام* :

حريق كبير بملجأ بالإسكندرية، أودى بحياة عشرات الفتيات.

إيهاب عصمت

المرجع: كتاب رجال ريا وسكينة للكاتب الكبير صلاح عيسى

بائع الذُّرة

1

في هذه الليلة الباردة من ليالي الشتاء، جلستُ وحيدًا، في ذلك المكان الذي اعتدتُ الوجود فيه من سنوات وسنوات، متجنبًا التعامل مع المارّين في الحديقة في مثل هذه الساعة، لقد بتُّ أخشى التعامل مع أيٍّ من كان، إلا كلما اقتضت الضرورة.. الضرورة القصوى.

تبدوا لي وكأنها ليلة أخرى رتيبة من ليالي الشتاء، خاصة مع الجو القارس، فمنذ أصبحت هذه الحديقة مسكني وموطني قبل سنوات، وأنا أميز الليالي الصاخبة من تلك التي لا تنتهي لرتابتها، ليالي الصيف بالنسبة لي هي الأفضل بالتأكيد، الكثير من الناس يملؤون الحديقة، كبار السن والشباب والأطفال، الكثير من العشاق ممن يتخيرون أطراف الحديقة لاستراق بعض لمسات الهوى خلسةً، هذه الفئة الأخيرة كانت مصدرًا كبيرًا للتسلية بالنسبة لمن هم مثلي ممن اتخذوا

الحديقة مسكِنًا وبابًا للرزق.. في غالب الوقت لم يسلم من حركاتي الصِّبيانية إلا كبار السن، لسنوات ظللتُ أُرهِقُ الجميع بأفعالي، وأتصيَّدُ بمهارة مَن أجد فيهم رزقي، حتى ضجَّ أهل المنطقة بما أفعل، وحاولوا مرارًا مطاردتي، بيد أنهم فشلوا المرة تلو المرة في إجلائي عن المكان، كل ما يجب عليّ فعله هو أن أكفَّ عن الظهور فترةً حتى تهدأ الأمور، بعدها أعود لمكاني وعملي.

الحديقة شبهُ الخاوية تثقل نفسي، أحتاجُ لما أتقوَّت به، في مثل هذه الليالي وبحكم خبرتي الطويلة جدًّا بالمكان، فدائمًا ما يمر أحدهم بي من سوء طالعه وحسن حظي، ربما شخص مُتعجِّل أو مجموعة من الأصدقاء يُقرِّرون اقتحام الحديقة اختصارًا للوقت بدلًا من الدوران حولها، وأنا أنتظر أحد هؤلاء ليلقيه القدر في طريقي فأنال منه ما أقتاتُ عليه.

قد تفيد جولة سريعة في المكان علّي أجدُ ما أبحثُ عنه، أو بالأحرى من أبحث عنه، أحتاجُ لشخصٍ واحد فقط، من أجل بعض التسلية في ليلة باردة، والأهم للحصول على الزاد، تحركتُ ببطءٍ وبدأت أدور حول الحديقة، في الحقيقة لم تكن برودة الأجواء أو حرارتها لتؤثر فيَّ، كلاهما سواء عندي، بيد أنني أجدُ في نفسي هوى لليالي الصيفية المفعمة بالصخب والضجيج.. ألم أقل لكم إن جولة كهذه قد تفيدني، ها هما شابَّان يدخلان إلى الحديقة مسرعين، حسنًا.. فليبدأ المرح.

شابان في النصف الأول من العقد الثاني من العمر، أحدهما رياضي القوام متوسط الطول، يرتدي سُترة جلدية سوداء ويعتمر غطاء للرأس من الصوف يُخفي رأسه وأذنيه، الآخر بدين نسبيًّا، ويقارب زميله في الطول تقريبًا، يرتدي كنزة صوفية زرقاء اللون وتظهر ياقة قميص ناصعة البياض حول رقبته، ها هما يقتربان من موقعي، لن أُظهِر نفسي لهما الآن، من المناسب أن أتبعهما بحذر وأسترقُ السمع لما يقولان، وبعدها يبدأ الحفل.

كان الممتلئ يخبر صديقه الرشيق بما يختلج به صدره بسبب عبورهما الحديقة في هذا التوقيت من الليل، بعد ما أُشيع عن وجود سفاح يقتل الشباب والأطفال والنساء ولا يميز بينهم، يخبره أيضًا بنهي والده له أن يذهب إلى الحديقة ليلًا، فالحذر واجب، أما الشاب الرياضي فكان يسخر من كلام صديقه ويصرُّ على أن كل ما يُقال خرافات، فكيف لسفاحٍ يرتكب الجريمة تلو الأخرى في المكان نفسه، ودون أن توقع به الشرطة طوال سنوات؟ تجلت حيرة الممتلئ وهو يكاد لا يفهم صديقه، فها هو صديقه يقر بوقوع الجرائم لكنه لا يعتنق مبدأ السفاح، فطلب إليه أن يوضح مقصده، أجابه الشاب الرشيق بأنه يجد في الأمر غموضًا يودُّ تقفي أثره، ولهذا أصرَّ أن يدخل الحديقة في هذه الليلة لقلة روادها بسبب البرودة.

صاح الممتليء بملء فيه:

– أيها المجنون! لقد دبَّرت الأمر إذن وأنا تبعتُك كغِرٍّ ساذج أحمق.. ألا تفهم لِمَ يهجر الناس هذا المكان بعد منتصف الليل؟

ضحك الرشيق، وقال:

– بل أخبرني أنت متى وقعت آخر جريمة هنا؟

فكر البدين لحظاتٍ ثم أجاب:

– منذ ما يقرب من ثلاث سنوات.. لكن...

قاطعه الرياضي قائلًا:

– هل رأيت؟! لقد استقرت الأمور إذًا في هذا المكان، ولربما رحل ذلك السفاح الغامض بغير رجعة.

لقد كان الشاب على حق، فطوال السنوات الثلاث المنصرمة لم تقع جريمة قتل واحدة في الحديقة، وقد وجد الكثير من الناس في ذلك علامة تبثُّ فيهم بعض الطمأنينة، فبدأت الحديقة تستقبلُ الزوار وإن لم يكن بالكثافة المفترضة لمكانٍ كهذا، سمعتُ الممتلئ يسأل صديقه:

– إن كنت تظن أن الأمر استقر هنا، فما الداعي لمغامرتك هذه الآن؟

أجاب الآخر باسمًا:

– لا أدري.. لكني أشعر أنني سأجد شيئًا ما اليوم.

وجدها فرصة مناسبة لأخرج لهما، فتركتُ حذري وأسرعت لأدور حولهما حتى أصبحتُ في مرمى بصرهما، فلما وقعت أعينهما عليّ تجمّدا في مكانهما، عدم شعورهما بي منذ البداية ثم ظهوري المباغت متشحًا بالأسود كان كافيًا ليجفلا، هذا ما وضح في العيون الجاحظة والفُكُوك المُتدلية، كم أحبُّ أن أفاجئ الناس بهذا الشكل.

تحت ضوء القمر الضعيف الذي يتسلل من بين الغيوم سِرتُ، اقتربتُ منهما في بطء مدروس، أكاد أسمعُ دقات قلبيهما، الشاب الرشيق أكثر رباطة للجأش عن رفيقه الذي بدأت أطرافه في الارتعاد.. في مفاجأة لم أتوقعها قط بادرني الشاب الرشيق قائلًا:

- كيف حالك يا هذا؟ هل المكان مناسب لقضاء هذه الأمسية؟

يا لجرأته! يذكّرني بنفسي هذا الشاب، كل من أمارس معهم ألعابي يرتجفون بمجرد ظهوري بغتة أمامهم، والقوي من يقف معتدلًا ولا يجفل، لكن المفاجأة دائمًا تأخذهم، أما هذا الشاب فهو أقوى منهم جميعًا.. ابتسمت له، يبدو أنني سأستمتع الليلة، أجبته:

- مرحبا بكما أيها الشابّان.. بالطبع يمكنكما قضاء ما شئتم من الوقت هنا، فالحدائق إنما وجدت للترويح عن الناس، لكن ألا تجدان أن الوقت والطقس لا يصلحان لأي نوع من الأمسيات؟

كان الخوف الذي يشعرني بسطوتي جليًّا في عيني الشاب الممتلئ الذي يحدق إليّ ببلاهة، أما رفيقه فأجاب بثقة:

– الأجواء باردة حقًّا.. لكن هذا لم يمنعك من الخروج لقضاء أمسيتك.

هززت كتفيَّ وقلت:

– هذا واجبي.. وعملي.

ثم أشرتُ بيدي صوب أحد أركان الحديقة وقلتُ لهما:

– أنا أعمل هنا.. أنا حارس الحديقة.

التفت الشابان إلى حيثما أشرت بيدي، كان هناك في ركن الحديقة غرفة مغلقة، هي غرفة حارس الحديقة، عندما عادا إليَّ بنظرهما كان الهدوء قد شملهما، وكان الممتلئ قد اكتسب بعض الطمأنينة، فخاطبني للمرة الأولى:

– أعانك الله.

ابتسمت له ثم سألتهما:

– هل تنويان قضاء بعض الوقت هنا حقًّا؟

قال الرشيق:

– لو لم يكن لديك مانع؟

تجاهلت سخريته الواضحة وقلت:

– المكان مفتوح أمامكما، لكني فكرتُ لو نحتسي بعض الشاي الساخن معًا.. الوحدة تُؤرِّقُني.

- بالفعل نحتاج لبعض الشاي.

قالها الرشيق فالتفتَ له رفيقه وحدَّجه بنظرة نارية معترضًا على قبوله دعوتي لهما، فأشرت لهما بيدي وقلت:

- اتبعاني.. كنتُ على وشك إعداد كوبٍ لي.

تحركتُ، تبعاني على بُعد خطوة واحدة فقط خلفي، أشعر بما يفعله الممتلئ، هو يعاتب رفيقه لقبول الدعوة، انحرفت في ممر ضيق تحفُّه الأشجار العالية من الجانبين، تقدمتُ عدة خطوات، فبدت بعض النيران التي أشعلتها من بعض الحطب وأحطتها بالأحجار الصغيرة، لم تكن النار متأججة، دنوتُ منها وجلست أمامها مُباشرةً، تبعني الشَّابَّان، كان قِدر الشاي بعيدًا عن النار، فرفعتُه فوق النار، قلتُ لهما:

- سنحظى ببعض الدفء هنا حتى وإن كانت النار هادئة كهذه.

جلسا وقد بدآ يشعران بالراحة والاطمئنان في وجودي، هذا مناسب جدًّا الآن، الغريب أنهما لم يسألاني عن سبب عدم احتمائنا بغرفة الحراسة.. سألني الشاب الرياضي وهو ينظر لي نظرة خاصة:

- ما رأيك فيما يقال عن سفاح الحديقة؟

ضحكتُ ثم قلتُ:

– هذا الكلام لا يمتُّ للعقل بصلة.. صحيح أن هناك الكثير من حوادث القتل التي وقعت ها هنا، لكن كل جريمة كان لها تفسير منطقي، حتى وإن لم يُلقَ القبض على القتلة مرتكبي تلك الجرائم.

لمعت عينا الشاب وقال:

– إذًا أنت مثلي ترى أنهم عدة قتلة وليس قاتلًا واحدًا؟

أومأت برأسي وقلت:

– لو كان رجلًا واحد لسقط في قبضة الشرطة لسبب بسيط.. أن عمره الآن سيصل إلى السبعين على أقل تقدير، فهذه الجرائم المثبتة ترجع بدايتها إلى ما يزيد عن خمسين عامًا كاملة.

دخل الممتلئ في الحديث وقال:

– قد يكون السفاح قد لقيَ حتفه، فلم تقع أي جريمة منذ ثلاث سنوات.

مددت راحتيّ أمامهما وقلتُ:

– من يدري؟!

ثم قلتُ لهما بلهجة خاصة:

– لكني أعرف قصة حقيقية وقعت هنا.. قصة لم يرصدها أيٌّ شخص.. ولا حتى رجال الشرطة أنفسهم.

سألني الرّشيق:

- أي قصة؟

أجبته:

- قصة بائع الذُرة.

***

2

ظهرت الحيرة وتجلت على ملامح الشابَّين، كنتُ أستمتعُ بما أفعل، سألني الممتلئ وقد بدأ يكتسب بعض الجرأة:

– أي بائع ذُرة؟ لم أسمع قصة كهذه طوال حياتي!

قلت مبتسمًا:

– ربما لأنها حدثت قبل سنوات طويلة.. عشرين سنة كاملة بالتحديد.

فردتُ ذراعي على طولها مشيرًا لشيء ما جهة الشرق خلف الأشجار، فحاول الشابَّان رؤية هدفي، حجبتْ عنهما الأشجارُ ما وراءها، فنظرا لي بتساؤل وعدم فهم، خفضتُ ذراعي وقلتُ:

– خلف هذه الأشجار الممتدة توجد بناية قديمة، لعلكما تعرفانها.

أومآ برأسيهما ثم قال الرشيق:

– تقصد بناية الشقة المهجورة؟

ابتسمتُ قبل أن أقول:

– بالضبط.. سأروي لكما ما حدث هناك.

قلتُها وبدأت أحكي لهم حكاية بائع الذُّرة.

ثلاثة أصدقاء كانوا: عصام، محمد وياسر، أنهوا لتوِّهم عامهم الجامعي الأول، ثلاثتهم ارتادوا كلية التجارة، أصدقاء منذ المرحلة الإعدادية، نشأت صداقتهم قوية وامتدت سنواتٍ، اعتادوا قضاء ليل إجازتهم الصيفية في أحد المقاهي للعب الورق، منافسات لعبة الجوكر تأكل لياليهم أكلًا، لم تكن لعبة الاستميشن قد نالت شهرتها وقتها، في ليلة من لياليهم المعتادة أصابهم الضَّجرُ من لعب الورق، ولم يجدوا متعة في إكمال الليلة في المقهى نفسه، فقرروا الخروج للمشي، فكان مقصدهم هو حديقتنا هذه.

وصل ثلاثتهم إلى الحديقة تقريبًا مع انتصاف الليل، لا تزال الحديقة عامرة بروادها،الصخب يملأ أرجاءها، جلسوا فوق الحشائش الخضراء يتبادلون الأحاديث، كان الحديث الذي يشغلهم هو حديث الكرة، كرة القدم، وكيف فَقَدَ فريق الزمالك بطولة الدوري لصالح الأهلي، فريق الزمالك لُقِّبَ وقتها بفريق الأحلام لما يضمُّه من نجوم

لمعت في مجال الكرة المصرية، ثلاثتهم من مشجعي النادي الأحمر، يملؤهم الفخر لتحقيق البطولة، والفوز أيضًا على فريق الأحلام الأبيض بهدفين دون ردٍّ في موقعة كان بطلاها حسام حسن والغاني أحمد فيلكس تحديدًا، شغلهم حديثهم وقتًا طويلًا، خاصة مع النسمات اللطيفة التي هبَّت عليهم، انتبهوا أن الحديقة كادت تخلو من زوارها، قاموا من مكانهم وقرروا أخذ جولة أخيرة في الحديقة قبل المغادرة.

قادهم أقدامهم إلى ممرٍّ مكسوٍّ بالترابيع الأسمنية، تحفُّه الأشجار الكثيفة من جانبيه، فيبدوا وكأنه نفق وسط الأشجار، دلفوا إلى الممر، ثم انتفضوا فزعًا، فلقد ظهر أمامهم فجأة رجلٌ أشيب يرتدي جلبابًا بُني اللون، غامقًا لدرجة تجعله يبدو كالأسود، أصاب الصلع أكثر من نصف رأسه، شيب المتبقي من شعر رأسه لا ينفي وضوح القوة الجسدية عليه، كان الرجل يجلس مُسندًا ظهره إلى واحدة من الأشجار، وأمامه بعض الحطب المشتعل والفحم، في قصعة معدنية، مرفوعة فوق بعض الأحجار وبجوارها ترقد الذُرة، تسمَّر الثلاثة لحظات، قبل أن يتمتم ياسر في خفوت: "سُحقًا! إنه مجرد بائع ذرة"

رغم خفوت صوته، فإن الرجل التفت نحوهم في بُطء مخيف، وحدَّجهم بنظرة قاسية بحاجبين كثَّين مُنعقدين، نظرته وحدها كافية لتلقي الرُّعب في قلوبهم، فتيبست أطرافهم لحظات أخرى، قبل أن ينتزعهم ياسر من جمودهم وفزعهم بقوله:

- ما بكم يا رجال؟! تحركوا لنبتاع بعض الذُّرة المشوية.

نَقَلَ محمد وعصام بصريهما بين ياسر وبائع الذُّرة، محمد يكاد يُقسِمُ في نفسه أن الرجل ظهر من العدم، لم يكن له وجود قط، عصام بدوره يشكُّ في الأمر، لا يمكن أن يكون هذا البائع موجودًا دون أن يَرَوه لحظة دخولهم الممر، ياسر نفسه كان يحمل هذا الشكَّ في نفسه، لكن عقله يأبى الرضوخ للفكرة المخيفة، ربما لم تقع أعينهم عليه في البداية لتواريه خلف الشجرة.

بقلق مشوب بالحذر تحرَّك ثلاثتهم مقتربين من البائع حتى توقفوا أمامه مباشرة، طوال تحركهم لم يرفع البائع عينيه عنهم، وظَلَّ يرمقهم بنظرته الجامدة المخيفة، تكاد جفونه لا تظهر، خرج صوت عصام مرتبكًا وهو يقول:

- حضِّر لنا ثلاثة من الذُّرة الجيدة أيها الشيخ.

نظر البائع مباشرة في عيني عصام، فشعر الأخير أن الرجل يسبر أغواره، يكشف أسراره، هو يعرف أنه يخشاه ويهاب نظراته الجامدة، بل هو أيضًا يتلذذ بهذا، هُيِّئ له أن الرجل يُخبره عبر عقله بأن يلوذ حالًا بالفرار، وفي الوقت نفسه يشعر وكأن عيني الرجل ترسلان له أثقالًا تُكبِّله في الأرض.

خرج صوت الرجل عجيبًا، به بحة غير مألوفة، رغم ذلك كان الصوت خشنًا، عميقًا وكأنه يأتي من جُبٍّ سحيق.. قال البائع:

- ارحلوا.. لا توجد ذُرة هنا.

تمنّى عصام ومحمد لو ينصاعان للرجل ويرحلان، لكن أطرافهما تيبست، ثمة شيء ما يكبلهما، أما ياسر، فلم يتأثر كثيرًا بالرجل، ولا بصوته أو نظراته المخيفة، فقال ياسر بتحدٍّ وسخرية وهو يشير إلى الذُّرة بجوار ساق البائع:

- وما تسمي تلك التي بجوارك؟! أهيَ ثمار الموز؟!

التفتّ له الرجل بغتةً، ونظر صوب ياسر، زادت حدة نظرته كثيرًا، وظَلَّ يُحدِّق إليه لثوانٍ بدت طويلة، قبل أن تلين ملامحه فجأة، وتزول عنه أمارات التخويف، ويقول بالصوت الغريب نفسه:

- تلك الذُّرة كلها مبيعة لأصحاب هذه الشقة هناك.

قالها وأشار بذراعه إلى جهة الشرق، فالتفت ثلاثتهم لتقع أعينهم على بناية قديمة خلف الحديقة من الجهة الشرقية، كانت البناية ذات شأنٍ وصيت في المدينة، يُطلق عليها الناس عمارة الشقة المهجورة، كان مجرد رؤيتهم للبناية كفيلًا بزيادة جرعة الرُّعب في نفس عصام ومحمد إلى الضعف، لكن ياسر لم يستسغ الأمر، فسأل البائع بتردد:

- أي شقةٍ تقصد؟

ابتسم الرجل وهو مُطبِق الشفتين، خُيِّل لهم أن ابتسامته اتسعت بشكل لا يمكن حدوثه، فقد تجاوزت ابتسامته أكثر من نصف وجهه، ثم قال ببساطة:

- الشقة التي في الطابق الأول.

اتسعت عيون محمد وعصام، فشقة الطابق الأول هي عينها الشقة المهجورة،لكن فجأة انفجر ياسر ضاحكًا، فالتفت الكل نحوه باندهاش حتى البائع ذاته أصابته الدهشة، استمر ياسر في الضحك، ثم قال من بين قهقهاته:

- ويحك يا هذا! أتعبثُ بنا؟ ربما تريدُ رفع سعر الذُّرة.. هيا.. هيا أعطنا ما طلبناه.. هيا.

تجمدت ملامح الرجل، ونظر بعينين ثابتتين في عيني ياسر، فتوقف الأخير عن الضحك وارتبك، فتبادل نظرة مع محمد وعصام قبل أن يقول البائع ببطء:

- هذه الذُّرة مبيعة لأصحاب الشقة.

قال ياسر حانقًا:

- أيُّ شقةٍ يا رجل؟! كلنا نعرف أن تلك الشقة مهجورة منذ سنوات.

كانت الشقة غير مأهولة طوال سنوات، لا أحد يعرف منذ متى تحديدًا أصبحت مهجورة، لكنها كذلك، لم يجرؤ على سكنها إلا قليل من طلاب الجامعة المغتربين ممن لم يسمعوا بأمرها، مَن خَرَجَ منها لم تَطُل إقامته سوى يومٍ وليلة واحدة فقط، ورفض أن يقول شيئًا مما حدث له أو رآه بها، فقط تركَها ويرفض الحديث عنها، أما البقية فدخلوها ولم يُسمع عنهم أو منهم خبرٌ بعدها، لكن ذلك البائع يُصِرُّ أن قاطني الشقة ابتاعوا الذُرة منه، هل من الممكن أن يكون هناك سكانٌ جُدد بها؟ لم يُطِل ياسر التفكير في هذا السؤال، بل وجَّهه للبائع، فقال الرجل وهو يلوح بكفِّه:

- لا شأن لي بأمرهم، لقد ابتاع أحدهم كل ما لديَّ من الذُرة.. نقدني ثمنها كاملًا، ثم قال إنه سيذهب إلى الشقة ويعود ريثما أسوي الذُرة على الفحم.

بلا ترتيب مُسبَق رفع ثلاثتهم أعينهم صوب الشقة، فاتسعت تلك العيون تمامًا لمَا تراه، فقد وجدوا الشقة مُضاءة، لم تكن كذلك قبل دقائق قليلة، بل إنها لم تكن كذلك مُطلقًا منذ وعوا الدنيا، يبدو أن البائع صادق فيما يقوله، وأن للشقة الآن سكانًا جُددًا، أو هم في الحقيقة ضحايا جدد.

جذب محمد ياسر من ذراعه وهو ينتزع قدميه انتزاعًا من موضعهما، وقال:

– هيا بنا.. لا فائدة تُرجى من بقائنا هنا.

تحرَّك ياسر مع محمد وعصام، كان الارتباك واضحًا على ثلاثتهم بشكل لا يمكن أن تغفله عين، ساروا بضع خطوات وعيونهم متعلقة بالشقة التي أضاءت، حانت من ياسر التفاتةٌ أخيرة صَوْبَ بائع الذُّرة، فاتسعت عيناه، هذه المرة أصابه خوف حقيقي، فلقد كان موضع الرجل خاويًا، وقد اختفى بائع الذُّرة تمامًا.. وكأنه لم يكن.

***

3

لم يخبر ياسر أصدقاءه بأمر اختفاء بائع الذُرة وراء ظهورهم في لحظة واحدة، لكن عقله تحفَّز بشدة، وبدأ يعمل في سرعة في محاولة منه لفهم أي شيء مما حدث، الغريب أن طريق عودتهم كان يُحتِّم عليهم الخروج من الباب الشرقي للحديقة، ليس هذا فحسب، بل أيضًا عليهم المرور من أمام تلك البناية حيث الشقة الغامضة المُريبة.

بلا ترتيبٍ أو إعداد، توقَّف ثلاثتهم لَمَّا وصلوا أمام البناية، ورفعوا عيونهم إلى طابقها الأول، لا تزال الشقة مضاءة، ثمة قوة ما تجذبهم نحو المكان، نحو الشقة تحديدًا، قوة لا يعرف أحدُهم ما مصدرها ولا ما سببها، لعله سِحرٌ ما، فجأة قال ياسر أغربَ شيء سمعوه:

– سأصعدُ إلى الشقة.

هَتَفَ محمد:

– ماذا؟!

بينما صاح عصام:

- مجنون.

لكن ياسر بدا مُصرًّا على الصعود وقد عقد ساعديه أمام صدره وقال:

- سأصعد.. وفورًا، لا بد أن أرى الساكن الجديد هذا.

محمد:

- وما شأننا؟

عصام:

- فلتذهب الشقة ومن بها إلى الجحيم.. ما الذي سيفيدك من الصعود؟

ياسر:

- اسمعا.. قلتُ إنني سأصعدُ لأرى ساكن الشقة، سأسأله عن سبب استئجاره لها تحديدًا، وهل عانى شيئًا ما فيها أم لا؟ لم أطلب من أحدكما مرافقتي.. من أراد أن ينتظرني فلينتظر.. ومَن أراد الرحيل فليفعل الآن؟

تبادل محمد وعصام نظرة طويلة، كلاهما يعرف ياسر حق المعرفة، عنيد، لا يتراجع عن شيء قرَّره، هما صديقاه المقربان، لم يتركاه يواجه أي مشكلة وحده من قبل، لكن هذه المرة ما يفعله ضرب من الجنون، حاول عصام أن يثنيه عن قراره حين قال:

– وهل من المنطقي أن تدقَّ باب أُناسٍ لا تعرفهم في ساعة متأخرة كهذه؟

كاد ياسر يخبرهما بأمر اختفاء بائع الذُّرة ليؤكد لهما أن ثمة غموضًا ما عليه سبر أغواره، لكنه تراجع، فلو فعل لازداد خوفهما، فقال:

– قلتُ لكما قبلًا.. لا أطلب منكما مرافقتي، مَن أراد أن ينتظر فأهلًا به.. أظنُّ أنه من الأفضل أن ترحلا وتتركاني.

تبادل عصام ومحمد نظرة يائسة طويلة، قبل أن يقول عصام:

– لا أعرف متى سينتهي عنادُك هذا يا ياسر.. سأرافقُك.

أطرق محمد قليلًا قبل أن يقول:

– فلنصعد الآن.. وإلا فسأنطلق عائدًا إلى بيتي.

تحرَّك الثلاثة، صعدوا للطابق الأول من البناية الصغيرة المُكوَّنة من ثلاثة طوابق، الشقة الواحدة تحتلُّ الطابق كله، توقفوا أمام الشقة، وكانت أولى المفاجآت أن وجدوا بابها مواربًا، يخرج منه ضوءُ صالتها، السكون يُخيِّمُ عليهم وقد تسلَّل القلقُ إلى ياسر، أما محمد وعصام فتكاد تسمعُ صوتَ خفقان قلبيهما.

تقدَّم ياسر بحذر ودفع البابَ برفقٍ، انفتح البابُ، كانت الصالة خالية من أي أثاث، أشار بكفِّه إلى صديقيه بما معناه أن يتبعاه. دلف إلى الشقة وهما من خلفه، وقفوا متجاورين في الصالة الخاوية، ثم قال ياسر بصوتٍ مضطرب:

– هل من أحد هنا؟

جاوبه صمتٌ مُطبِق، كانت الصالة تفتح على بابين لحجرتين مغلقتين، ثمة رواق صغير، واضح أنه يقود إلى المطبخ ودورة المياه، تبادَلَ ثلاثتُهم نظرة قلقٍ، ثم قال محمد وقد تصبَّب عرقًا:

– هيا بنا لنرحل من هنا.

قالها فانغلق باب الشقة بقوةٍ خلفهم، فانتفضَ ثلاثتُهم واستداروا جهة الباب، واندفع عصام وحاول فتحَ الباب، فلم يستجب له، انهار محمد وبدا النحيب في صوته وهو يقول لياسر بعدما أمسك بكتفيه:

– هل رأيتَ؟ قلتُ لك لنرحلْ من هنا.. كيف سنخرج من هذه الشقة الملعونة؟

لم يجد ياسر ما يقوله له أو لعصام الذي يُجاهدُ لفتح الباب بلا طائل، ثم فجأةً انفتح أحد البابين المُطلَّين على الصالة، انفتح بقوة وعنفٍ، حتى أنه أحدثَ دويًّا كبيرًا وكأن رِتاجه قد انتُزِعَ من مكانه، تجمَّدت الدماء في عروق ثلاثتهم، وتلاحقت أنفاسُهم بصوت مسموع وواضح، ثم سمعوا وقع أقدام تقترب، وقع أقدام ثقيلًا يدلُّ على أن أحدهم سيخرج من هذا الباب الذي كاد يُنتَزع من مكانه قبل لحظات، تعلقت العيون بالباب المفتوح، واقترب صوت الأقدام رويدًا رويدًا، وفجأة.. خرجَ عليهم رجلٌ يعرفونه..

بائع الذُّرة.

***

4

سقط محمد مغشيًّا عليه ما إن خرج لهم بائع الذُّرة من الحجرة الجانبية، لم تتحمل أعصابه رؤية ذلك الوجه الذي من المفترض أنه تركه خلفه في الحديقة قبل دقائق قليلة.

خرج بائع الذُّرة هذه المرة مرتديًا حُلةً كاملة سوداء كالليل، فوق قميص أسود حالك، يزين زرَّ ياقة القميص ماسةٌ حمراء تتوهَّج بشكل عجيب، على وجهه ابتسامة واسعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، تكاد شفتاه تصلان إلى أذنيه.

نَقَلَ عصام وياسر نظريهما بين الرجل وبين محمد الساقط أرضًا، هذه المرة شعر ياسر بالخوف حقًّا، بدأ الرعب يجد لقلبه سبيلًا، أما عصام فيكاد قلبه يتوقَّفُ مُنهكًا من فرط الجهد الذي يبذله لضخِّ الدماء في عروقه، جاهَدَ ياسر للسيطرة على أعصابه، وبائع الذُّرة يقتربُ منهما، دنا منهما فلم تتعدَّ المسافة بينهما المترين، وَقَفَ في

مواجهتهما، وهو يرمقُهما بنظرةٍ مصحوبة بابتسامةٍ ساخرة مقيتة، بصعوبةٍ خرج صوت ياسر متسائلًا:

– مَن أنتَ يا هذا؟

دوَّت ضحكة بائع الذُّرة مُجلجلةً في أرجاء المكان، خُيِّلَ لهما أن صوته يخرج من كل مكان، كان كلما ضحك أصبحت هيئته أكثر بشاعة برأسه الأصلع وحاجبيه الكثين، دامت ضحكاته دهرًا قبل أن يتوقف بغتة ويُكيلِ لهما نظرةً ألقت في قلوبهم الرعب ويقول بصوت تردَّد صداه:

– بل قل ما أنا.

قالها ثم انفجر ضاحكًا من جديد.

حاول عصام أن يُشيح بوجهه بعيدًا، لفَّ رأسه ناظرًا إلى حيثما سقط محمد فاتَّسعت عيناه هلعًا حتى كادتا تُغادِران محجريهما، صرخ:

– يا إلهي!

وتراجَعَ مذعورًا وهو يمسك بذراع ياسر الذي التفت بدوره فاغرًا فاهُ لهول ما رأى، لقد اختفى محمد، بتعبير أدق تحوَّل إلى ثمرة ذرة كاملة.

ربما كان غريبًا أن يشعر ياسر بالغضب في موقف كهذا، بيد أن هذا ما حدث، التفتَ إلى بائع الذُّرة وقال بغضب هادر:

- أيُّ ساحرٍ أنت؟! عليك أنت تُعيده قبل أن أجعلك تندم على عبثِك معنا.

قطب بائع الذُّرة حاجبيه الكثين، ومال للأمام قليلًا وقال:

- هل تأمرني أيها الإنسان الغبي؟ عقلك المحدود لم يستوعب ما يراه، تظنُّني ساحرًا؟! يا لك من أحمق! السحرة يبذلون الأرواح والأنفس قرابين لبني جنسي لنعاونهم، فيتبعوننا وإلا نفتكُ بهم، هل فهمتَ الآن ما أنا؟

أنهى عبارته، ثم لوَّح بذراعه، فطارت ثمرة الذُّرة من فوق الأرض ودخلت إلى الحجرة التي خرجَ منها بائع الذُّرة، ثم التفتَ إلى عصام وياسر ولوَّح بذراعه ناحية عصام، فطار عصام والتصقَ ظهرُه بسقف الحجرة، وجهه للأسفل، وقد خرجت من السقف أغصانٌ ذات أشواك كبَّلت يديه، وقدماه متباعدتان، فبدا وكأنه حرف إكس اللاتيني معلق في السقف، بدأت الأغصان تزحف على جسد عصام كساق نبات ست الحسن، فأدمته.

وقفَ ياسر مذهولًا يكاد لا يصدق ما تراه عيناه، وقد التهبت حواسُّه وكادت تحترق، دنا منه بائع الذُّرة حتى أصبح على بُعد خطوة واحدة منه، ونظر في عينيه مباشرة ثم زأر، ومع زئيره انطفأت الأنوار، وانتشر دخان قرمزي اللون في المكان كله، دخان كأنه مضيء في ذاته، فتمكَّن ياسر من الرؤية، تبدَّلت ملامح بائع الذُّرة، تبدَّلت

كثيرًا، فقد استطال رأسُه وأذناه، واختفت شفتاه تقريبًا، فبدت أسنانه المُدبَّبة الحادة صفراء مخيفة ومُنفِّرة أيضًا، عيناه تحولتا للأحمر القاني مع حدقتين حمراوين كالدم مشقوقتين رأسيًّا بخط أسود، وفاحت من أنفاسه رائحة مُقزِّزة عندما قال:

– صديقك محمد كان أضعف من أن أتعامل معه، لقد سقط من تلقاء نفسه وسهَّل عملي.. عصام يحاول المقاومة لكنني تسللتُ إلى عقله وانتهي أمره.. أما أنت فتقاوم بشدة، وأنا أحب هذا النوع من البشر، فما معنى أن تنتصر على عدو لا يقاومك؟

للمرة الأولى منذ دلف إلى الشقة بدأ عقل ياسر يعمل بمنطق وانضباط، لقد وصل لمفتاح التفوق على هذا الكائن الشيطاني أمامه، عليه ألا يسمح له بالتسلُّل إلى عقله، كان ثمة صوت في داخله يقول له إنه مهما يحاول فمصيره كمصير محمد، سيصبح ثمرة ذُرة يقتات عليها ذلك المخلوق الكريه، وقبل ذلك سيرى بعينيه عصام يتحول هو الآخر، فما الداعي للمقاومة؟ ربما الاستسلام كان أقل إيلامًا من محاولة المغالبة، بيد أنه كشف لعبة بائع الذُّرة، يوسوس له لتزلّ قدمه ويُذعن عقله، كلا، لن يصبح كصديقه، سينقذ نفسه، بل سينقذ عصام معه.

فجأة زَمْجَرَ بائعُ الذُّرة بغضب، فتردَّد صدى صوته وكأنه داخل كهف كبير، وبسرعة ازداد طوله نصف متر كامل، واختفت الحُلة السوداء وظهر جسد نحيل يكسوه جلدٌ أزرق اللون تغطيه بقع حمراء، تكاد عظام صدره تتميز، بطنه ضامر بشكل عجيب، أصابعه طويلة تنتهي بأظفار قذرة، كذلك قدماه، ساقاه غير مستقيمتين، فيبدو وكأنه يقف مُنحنيًا رغم طوله الفارع، ظهر له ما يُشبه العظام الناتئة خارج جسده على طول عموده الفقري وهو يدور ببطءٍ حول ياسر، دار دورة كاملة قبل أن يتوقف في موضعه السابق ويقولُ بغضبٍ حقيقي:

- أتفكر في الانتصار عليَّ أيها الفاني؟ لعمرك لأستمتع بكل لحظة ألمٍ ستعيشُها على يدي.

ارتبكَ ياسر، هذا الشيطان لديه القدرة على قراءة أفكاره، لكن هذا لا يهم، لن يسمح له بالسيطرة على عقله، وسيجد وسيلة ما، هو على ثقة.

هَزَّ الكائن المخيف رأسه علامة النفي وقال:

- أنت لم تفهم أنه لا فرار، حاولْ قَدْرَ استطاعتك، هيا.. أرني قُدراتك.

أيقن ياسر أن الشيطان يقرأ أفكاره بالفعل، فقرر أن ينطق بما يفكر، فلا معنى للتفكير سرًّا، فقال: "لن أدع فرص للنجاة إلا وأتصيَّدها، لن تنتصر عليَّ أبدًا أيها اللَّعين، سأخرجُ سالمًا أنا وعصام".

بغضب، صفعَ الكائن الشيطاني ياسر على وجهه، فطارَ ياسر وقَطَعَ فراغ الحجرة قبل أن يرتطم جسدُه بالجدار في عنف اهتزَّ له كيانه كله، ثم سقط أرضًا، تأوَّه من فرط الألم وهو يشعر كأنَّ جسده انسحقَ، رفع رأسه لينظر إلى السقف لمَّا سمع صرخة عصام الرهيبة، ما يراه هذه المرة أمرٌ بشعٌ، لقد بدأت الأغصان المُلتفة حول جسد عصام في الضغط أكثر على جسده، وبدأ جسده ينهار متمزقًا والأشواك الحادة تخترقه، وبدأ لحمه ودمه يتساقطان أرضًا، وهو لا ينفكُّ يصرخ بألمٍ ورعبٍ، وذلك الشيطان يطلق ضحكاته ساخرةً مَقيتةً.

شُلَّ لسانُ ياسر وهو يشاهد صديقه يتمزقُ إربًا ويلفظ أنفاسه، سقط ما تبقى من جسد عصام بدويٍّ مكتوم، ثم تحوَّل في لحظة واحدة إلى ثمرة ذُرة، طارت ودخلت الحجرة نفسها، شعر ياسر أن نهايته أوشكت، جاهَدَ ليقف بصعوبة، تحمَّل ألَمَه وانتصبَ واقفًا، وما إن استقام حتى هوى عليه الشيطاني بصفعة جديدة، طار لها جسده ثم سقط، هذه المرة نهشت أظفار الشيطاني وجه ياسر، وسالت دماؤه حارةً على وجهه ورقبته، هذه المرة كان الوقوف أمرًا شاقًّا للغاية، استند ياسر إلى الحائط ليدفع جسده دفعًا، بصعوبة فردَ قامته، وهو ينظر إلى الشيطاني بغضب، ابتسم الشيطاني في سخرية وتحرَّك باتجاه ياسر، لكن ياسر أتى على فعل آخر ما يتوقعه الشيطاني، قد اندفع بجسده كله نحو الشيطاني الذي ارتبكَ للمفاجأة، فسقطا أرضًا معًا، وقد تشبَّث ياسر بجسد الشيطاني، ثم غرسَ أسنانه في جانب رقبته بعنفٍ لم يتوقعه الشيطاني قط.

5

أنهيت حكايتي فصَمَتُّ، نظر إلى الشابين متسائلين فلم أُعقِّب، فسألني الشاب الممتلئ قليلًا كيف انتهى الصراع؟ ابتسمتُ وقلت له: إن عليه أن يتخيل هو النهاية التي تُريح عقله، فكل الاحتمالات ممكنة الحدوث، نظرتُ إلى القِدْر فوق النار وقلتُ:

– الغريب أن الماء لم يغلِ بعد.

قلتُها وأنا أزيح غطاء القِدر، كان القدر خاويًا أجوف، ابتسم الشاب رياضي القوام وقال:

– لا عليك أيها الحارس.. ربما كان القدر خاليًا من المياه في الأصل، لقد استمتعنا بمجالستك وعلينا أن ننصرف الآن.

قالها وهو يقوم مِن جلسته جاذبًا رفيقه من ذراعه، فقام الممتلئ وهو يقول:

– دعنا نلتقطْ لنا صورة (سيلفي) للذكرى.

وقفتُ بدوري فأحاطا بي عن يميني ويساري، وأخرجَ الممتلئ قليلًا هاتفه المحمول من جيب سرواله، ثم شغَّل الكاميرا الأمامية وفرد ذراعه على طولها وابتسم هو ورفيقه الرياضي، لكن فجأة اتسعت عيونهما رعبًا، ونقلا بصريهما بيني وبين ما تنقله لهما شاشة الهاتف، فقد كانت الصورة التي تلتقطها الكاميرا تُظهِر الشابين يقفان متقاربين وبينهما فراغ، فراغ بحجم جسدي.

ارتعد الممتلئ قليلًا وقال:

- يا للشيطان.

وقد سقط هاتفه من يده وهو يتراجَعُ مذعورًا، مع تراجُعه غير المحسوب تعثّر في حجرٍ فسقط أرضًا، التفتُّ ناحية الرياضي الرشيق، كان ثابتًا وقد أصابه خوفٌ ورُعبٌ بلا حدود، تأكدتُ أنه لن يُحاولَ الفرار مني، ثم التفتُّ ناحية الممتلئ قليلًا الساقط أرضًا وأشرتُ له بيدي إشارةً خاصة، فتحول في أقل من ثانية إلى...

ثمرة ذُرة.

خالد عمّار

الدّائرة

بخُطًى واسعة سريعة ودقات قلب مضطربة، وأخرى منتظمة صادرة من دقات حذائها على أسفلت الشارع المبتل بمياه الأمطار الغزيرة عبرت الشارع المُظلم الهادئ الفارغ من المارة في هذه الليلة الباردة الممطرة وهي تتلفّتُ وتنظر خلفها برُعبٍ.

منذ دقائق دقّت الساعة الثانية عشرة صباحًا، فهي لم تعتَد الخروج في وقت متأخر خصوصًا في هذا الشتاء القارص والجو الأشبه برصاصة ثلجية تخترق العظام، الذي كان الطبيعي فيه الاحتماء بغطاء سريرها وقراءة كتاب على صوت أغنيةٍ لعبد الوهاب أو مشاهدة فيلم وهي تتحسس فراء قطتها التي ترقد عادة بجوارها وتُدفئ كفّيها بكوبٍ يحتوي أي مشروب ساخن.

كانت تعدو الشارع عاقدةً ذراعيها حول صدرها، مُحاولةً مَنْعَ قلبها من الفرار رعبًا وهلعًا، ترتدي غطاء رأس صوفيًّا يُخفي شعرها الأسود وأذنيها، وتلفُّ جسدها بالطو من الجوخ، وتستدير كل برهةٍ بفزع لتُراقِبَ الطريق خلفها وعيناها تبرزان رُعبًا.

انتفضت على نباح كلب مذعور وكأنه جِنٌّ يقترب منها أوقع قلبها وجعلها تصرخ فتعثرت وهي تعود للخلف، هربًا، وسقطت أرضًا.. وما أن اقترب منها حتى خَرَّ صريعًا في لحظة واحدة...

إن طلقة رصاص كانت ستأخذُ وقتًا أطول لتُفضي روحه..

نظرتْ إليه جيدًا لا تستوعب ما حدث..

نعم ميت..

لقد مات..

ثم عادت لتعدو وهي تتلفّتُ حولها برُعبٍ..

وعلى بُعد خطوات اصطدمت وهي تنظر خلفها بسيدة مُبعثَرة الشَّعر ترتدي ثيابًا رثّة مُلطخة بالطين.. تجري بالاتجاه العكسي.

إنها هي.. الكيان نفسه...

هي من تركتها بالمنزل للتو وخرجت هربًا منها..

أو تشبهها..

الاثنتان بدون وجه.. والهيئة الرَّثة نفسها...

شهقت هي، وقامت الأخرى عديمة الوجهِ مَفزوعةً، وجرت في الاتجاه العكسي تُكملُ طريقها وتركتها ملقاة أرضًا، عيناها تكادان تخرجان هلعًا...

***

1

في تلك الليلة تحديدًا جاءتها مكالمةً غريبة.

مجرد رنين من الهاتف يصدُر بلا رقم متصل.

بلا أي رقم، ولكن الهاتف يدقُّ بلا توقُّف.

ضغطت زرَّ الاستقبال وهي تفكر أن هاتفها قد تَلَفَ..

وأتاها خلفه صوت خطيبها (رامي) جادًّا.. حادًّا.. حاسمًا..

– (داليا) احضري حالًا عند سور الحديقة العامة القريبة من بيتك.. انزلي فورًا سأنتظرك.. إنها قادمة إليك..

أسرعي أرجوك.

– ولكن يا (رامي) الساعة الآن..

قاطعها بحدة وصرامة

– صدقيني لا يوجد لكن..

– الأمر لا يحتمل النقاش.. إنها في الطريق إليك.. انزلي فورًا من البيت أنتِ في خطر شديد.. إن هاجمك غريبٌ الآن اهربي منـــه ولا تُواجهيه، هل سمعت؟ أنا في انتظارك..إياكِ والمواجهـــة.. إيـــاك أن تواجهي تلك التي ستحاول اقتحام المنزل عليك الآن.. مهما تفعلـــي اهربي.. انزلي حالًا، أرجوكِ.

أنهى المكالمة، ودبَّ الرعب بقلب (داليا) وسرت رجفة بجـــسدها فهي التي تخاف من ظِلّها..

ما الذي يحدث؟

مَن يقتحم عليها البيت؟

وما هذا الرقم المجهول الذي حدَّثها منه رامي؟

وأيُّ خطر تواجهه؟

إن والدتها تبيت لدى أختها المتزوجة حيث كانت تزورها منـــذ هبَّت تلك العاصفة الباردة المُحمَّلة بالأمطـــار، فأصـــرت الأخـــت وزوجها أن تبيت الأم معهما خوفًا عليها من الخروج في هذا الطقس، فاتصلت بها والدتها لتخبرها أنها ستحضر في الصباح وتعطيها بعـــض نصائح الأمهات الأسطورية المحفوظة منذ بداية الخليقة مثال:

– لديك صينية بطاطس بالفراخ بالثلاجة.. لا تنامي دون عشاء..

إياكِ أن توقدي البوتجاز وتنسيه.. أغلقي باب المنزل بالمفتاح..

أغلقي بالمزلاج أيضًا.. أغلقي النوافذ جميعًا.. أغلقي باب المنزل الخارجي لا تُدخلي غرباء أبدًا.. إياكِ أن تنسي الإضاءة مفتوحة وتنامي...إلخ

تلك النصائح التي تحفظها الأمهات جميعًا عن ظهر قلب حتى وإن كان أبناؤهم في الستين من عمرهم..

كانت (داليا) في تلك الليلة تحديدًا تشعر بقلق بالرغم أنها ليست أول ليلة تقضيها بمفردها، فقامت وفعلت كل ما طلبته الأمُّ، وهرولت بقطتها إلى تلك الأريكة بغرفة المعيشة حاملة غطاء صوفيًّا لتشاهد التلفاز وتحتمي من تلك الليلة الباردة حتي جاءتها مكالمة (رامي) الغريبة..

الرعب كان يدقُّ أوصالها، ترتجف وتشعر بدوار من تلك المكالمة، فصوت رامي لم ينُمَّ قط عن أي مزاح..

أيُّ غريبٍ يُهاجمها في ذلك الوقت؟

الساعة الثانية عشرة إلا دقائق..

هل تنزل من بيتها بهذا الوقت وفي هذا الطقس؟

إن البيت مُغلق جيدًا، فمن ذا الذي يستطيع اقتحامه!

البيت مُكوَّن من طابق واحد قديم، عبارة عن سور قصير يحمـــل باب منزل حديديًّا ضخمًا يليه ساحة صغيرة مبلطة ببلاط قديم تم محو لونهِ الأصلي، يصطفُّ فيه بعض قصاري الورد والريحان، ثم مـــدخل صغير بداخله باب المنزل..

يكسو المنزل من الخارج ظُلمةٌ تُرعِبُ أيَّ لصٍّ يمتلك قلبًا آدميًّا.

وقفت في ردهة المنزل وشعرت أنها تسمع خربشات على النوافذ من الخارج تصدر في الوقت نفسه..

أخذت تلتفت إلي أبواب الحجرات حولهـــا وشـــعرت أن آلاف العيون ترمقها من داخل الغرف المظلمة..

إن الوهم والخوف بدوا يلعبان دورهما بإتقان الآن إذًا.

أخذت قرارها وهرولت ترتدي ملابسها سريعًا، مجرد ثوب قطيفي وبالطو وغطاء رأس، وقد أقسمت إن كان الوغد (رامي) لا يحمل ما يستحقُّ، وقابَلها بابتسامته اللزجة ليخبرها أنها مزحة ما ليعبر لها عن حبِّه تحت المطر وتدفئهم لوعةُ العشق...لانتهى ما بينـــهما في تلـــك الليلة.

وإلى الأبد..

سمعتْ قطتَها من الخارج تموءُ بشكل عجيبٍ وبذُعرٍ.. تداخل صوتُها مع صوت الرنين المعدني يعلن أن الساعة الثانية عشرة صباحًا..

شعُرَتْ برُعبٍ فأغلقت الباب على نفسها بقوة من الداخل لحين الانتهاء من ارتداء ملابسها..

انتهت سريعًا وسحبت مفاتيحها وهرولت إلى باب المنزل فتحته لتخرج...ووقفت لحظة وتذكَّرت شيئًا.

لقد نسيت هاتفها..

ستعودُ لتجلبه..

لقد كان في يدها بغرفة المعيشة عندما كانت تُشاهِدُ التلفاز وحدَّثها (رامي) من ذاك الرقم الخفي..

اقتربت من باب الغرفة..

هناك مَنْ يقف بظهره بمنتصف الغرفة في الظلام يكسرُ شيئًا ما بالأرض بقدمه بغضبٍ، وتسمعُ صوتَ تحطُّم وتهشُّم شديدين..

نعم هناك غريب... يكسرُ شيئًا ما في منزلها بقدميه..

مدَّت يدها المرتعشة لكبس النور..

(رامي) قال لا تُواجهي أيَّ غريب يقتحم المنزل واهربي..

ولكنها أرادت أن تراه..

إنه الفضول الذي عادة ما يقتُل صاحبه.

أضاءت الغرفة...

فاستدار الغريب بفزعٍ وهو يُخفي وجهه برُعبٍ من شدة الإضاءة.

كانت سيدة..

سيدة مُبعثرة الشعر حافية القدمين، مُمزَّقة الثوب الملوث بالطين فلا يظهر له لون أو وصف..

لا ليس هذا المريع بالأمر فقط..

إن الغريبة استدارت لها وكانت بلا وجهٍ..

نعم لم يكن هناك وجه، مجرد فراغ من الظلام السرمدي كالبئر العميقة التي لا قاع لها، يحيطه هالة من الشعر المبعثر الملوث ببقايا طين جافٍّ، وبرغم كل شيء شعرت أنها تراها الآن..

شعرت أنها تنظر إليها وتلتقي أعينهما..

وفي تلك اللحظة تحديدًا تتسع عيناها..

كل ذلك تعرفه برغم إنها بلا وجهٍ..

صرخت وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح من الخارج بسرعة وهي تدقُّ الباب من الداخل بعنفٍ دون أن تُصدر صوتًا..

وهرولت إلى باب المترل الذي كان لا يزال مفتوحًا وخرجت تعدو في الشارع، وهي تتلفت خلفها قاصدة الحديقة العامة القريبة..

حيث (رامي).

***

2

هرولت (داليا) لا تدري كيف وصلت، وقد صار الهواء يدخل صدرها بصعوبة وألم وبرودة حارقة.

شعرت أنها فقدت القدرة على الكلام وانكتم صوتها.

الشوارع فارغة من المارة وكأنها مدينة الموتى..

نُباح الكلاب حولها قوي، ولكن به رعشة من قسوة برودة الجو..

ما قابلته في طريقها أوقعَ قلبها، إنه الهَوْلُ مُجسَّدًا..

الكلب الذي قرَّر مُهاجمتها ثم سقط ميتًا قبل لمسها بسنتيمترات ثم مقابلتها لسيدة أخرى دون وجه رثة الملابس كالتي بالمنزل تمامًا.. كانت تجري باتجاه المنزل..لا خارجة منه خلفها..لولا ذلك لظنَّت أنها السيدة نفسها..

ها هو الرصيف المؤدي للحديقة يظهر على استحياء..

وها هو شخص يقف وظهره لها..

إنه (رامي) ولكنه يلتفت ناظرًا للاتجاه الآخر..

توقفت على بُعد خطوةٍ منه، وقالت بصوت مكتوم من الرعب:

- (رامي) ماذا حدث؟ اشرح لي أرجوكَ.. لا أفهمُ شيئًا.

لم يستدِرْ لها، ولم ينطقْ، كأنه تمثال مُثبَّت من حجر لا من لحمٍ ودم.

صمتت لحظة ثم قالت بصوت أكثر ارتفاعًا وتوترًا:

- (رامي) ماذا بك؟! ومن هذه السيدة؟

أتاها صوتٌ رخيمٌ يتردد من فراغ هو صوت يُشبه صوت (رامي) ولكنه يتحدث من بئرٍ عميقة وما زال يعطيها ظهره..

- تأخرتِ يا (داليا)، فات الأوان.. إننا الآن منهم.

قالت مستنكرة مستفسرةً:

- منهم؟! مَن هم؟

استدار بسرعة دون أن يُجيب لتجده هو الآخر بلا وجهٍ..

ظلام..

مجرد ظلام سحيق..

كأن وجهه صار نافذة على عالم لم يَرَ النور قط..

على الجحيم ذاته...

صرخت واستدارت لتعدو مبتعدة عنه، وما هي إلا خطوات حتى وجدته يسد طريقها واقفًا بلا حراك، كأنه لم يتحرك قط، فالتفتت بفزع خلفها لتتأكد أنها تركته لتوِّها خلفها، ولكن لا أثر خلفها له، إنه يأتي من العدم..

فمَدَّ يده لها بهدوء..

فعادت خطوات للخلف وهي تنتفض وتبكي فقال لها:

– لن تهربي.. حاولت قبلك مرارًا الهرب ولم أفلح..

لم يعد بإمكاننا الهروب منهم..

إنهم حولنا الآن..

إنهم بكل مكان..

يجب أن نبقى معهم...

التفتت حولها لتجد آخرين يحيطونهم في دائرة واسعة..

كأنهم ظهروا من عدمٍ..

يتحركون بحركة محسوبة لا تخلو سنتيمترًا واحدًا بهدف إغلاق الدائرة.

مسافات متساوية بينهم.. حركة تقدمية تضيق الدائرة بانتظام وهي و(رامي) بالمنتصف..

إن صور المشهد بشكل رأسي سيخيل لك أنها دائرة تصغر لتنغلق بشكل أوتوماتيكي ولكنها دائرة منهم.. عديمي الأوجه..

صرخت ولكن لا صوت لها...

لا صوت يصدر منها..

صرخت أكثر وأكثر وهم يقتربون أكثر..

ينظرون إليها وهم بلا وجوه...

لا تعرف كيف ولكنها تعي جيدًا أن عيونهم مثبتة عليها..

إنهم بلا أعين ولكن هذا يحدث..

ومن خلفهم رأت كيان المرأة الرَّثة يأتي عدوًا ويقترب منهم بسرعة.

كانوا هم أقرب إليها بمراحل..

مدوا أياديهم المرتعشة وأمسكوها جميعًا..

وكأن صاعقة كهربية سرت بجسدها فخارت قواها.. وسقطت..

3

مكان مظلم..

لا أثر لأي كائن حي...

رائحة عفنة، تكتمُ أنفها..

زحفت تنبش في الظلام بجنون.

أين هي؟ مَن هؤلاء معدومو الأوجه؟

صرخت مرة أخرى بلا صوت..

علمتْ أنها فقدت صوتَها بشكلٍ ما..

لا تستطيع الصُّراخ..ولا الكلام... فقط التفكير..

كيف أخرسوها؟ كيف سرقوا صوتها؟

شعرت بهواء يزحف إليها مع صوت نبش وأقدام تأتي من أعلى..

توارت..

بصيص من ضوء كشاف يُسلّط في المكان الذي توجد فيها من أعلى من غطاء تم رفعه من السقف ليكشف سلم جانبي..

إنه جُب أو مغارة..

إنهم أناس طبيعيون يحملون أوجهًا، ويحملون شيئًا طويلًا ملفوفًا بقماش أبيض، يهبطون وهم يحملونه بحذرٍ كأنه سينفجر بهم..

أيُّ مُهربين هم إذًا؟

تسربت هي بخفة النسيم دون أن يلمحوها وهم مشغولون بحملهم، وخرجت من الظلام...إلى ظلام الليل..

شوارع مظلمة، ولكن أرضها ليست أسفلتية، ومياه أمطار نظيفة كما كانت منذ قليل بل طينًا لينًا تغرز فيها قدماها..

من الواضح أن الأرض كانت عبارة عن تراب ناعم تحوّل بفعل الأمطار إلى هذه البرك التي سقطت بها أكثر من عشر مرات حتى كسا ثوبها الطين ويديها وربما شعرها عندما انزلقت في تلك المرة على ظهرها وهي تجري بكل رُعب العالم..

إنه البيت...

إنها الحرية...

خرجت حيث رأت ضوء كشافات العربات المُسرِعة...

إنه شارع صلاح سالم إذن تعرفه جيدًا..

ظلت تجري وتجري مخترقة الشوارع..

إنه الليل، ولكنه ليل آخر..

طين وأمطار، ولكن حركة الناس حولها والسيارات تؤكد أن الوقت لم يصبح بعد منتصف الليل حتى الآن..

كم لبثت بهذا المكان؟

لا تدري؟

هل كانت تحلم أو تهزي بكل هؤلاء الذين قابلتهم معدومي الأوجه إذن؟

لا يهم...

المهم أنها نجت منهم..

***

4

كانت تجري في طريق بيتها.. فاقدة النطق...

اقتربت كثيرًا..

وتأخَّر الوقت..

كم مَرَّ من الوقت وهي تجري؟ لا تعلم..

ولكن مَرَّ على الأقل 3 ساعات وانتصف الليل..

ها هي تلك الحديقة اللعينة، وها هو الرصـــيف الــذي ينتـــهي لمترلها...

قلبها ينتفض عندما تتذكر ماحدث لها هنا..

ما حدثَ لها هو الهول ولا تفهم له تفسيرًا!

في أثناء عدوها كانت فتاة أخرى تجري على الرصيف نفسه بالاتجاه المعاكس في الظلام متلحفةً بملابس كثيرة، وتلتفتُ للخلف تنظر وراءها كأنها تهرب من أمرٍ ما..

فاصطدمتا نتيجة سرعة كلٍّ منهما، سقطتا متقابلتين.. شهقت الفتاة بصوت..

وشهقت (داليا) ولكن بلا صوت..

إنها هي نفسها... إنها هي (داليا).

قامت وجرت مفزوعة من أمام نفسها وتركت (داليا) الأخرى المهندمة مُلقاةً على الأرض تنظر لها بفزع..

لا تفهم ماذا يدور حقًّا..

لا تدري شيًا..

خطوات ورأته مُكوَّمًا جانبًا..إنه هو..

جثة الكلب..

إنه الكلب الذي هاجمها قبل أن تصطدم بالكيان عديم الوجه مرةً أخرى وهي ذاهبة للقاء (رامي) المشئوم..

جال ببالها خاطر غريب لحظة وطردته فورًا.

مستحيل!

لقد قابلت نفسها لتوّها ومرت على ما مرت به..

إن باب المنزل مفتوح لحُسن حظّها..

دلفت للمنزل ببطء خشية وجود آخرين بلا وجوه..

ثم لمحتها...

إنها امرأة أخرى رثة الملابس بلا وجهٍ..

توقفت...عادت خطوة... نعم بلا وجهٍ..

ولكن الأمر مختلف... بل مرعب..إنها مرآة..وليست امرأة

رفعت يدها برعب..

.. وضعت يدها على فمها...

لا يوجد فم.. اخترقت يدها فراغ مكان فمها..

صرخت وحاولت تتحسُّس وجهها بيدٍ ترتعش.. وهي تُراقِـــبُ المرآة.

لا يوجد..

لا يوجد وجهٌ..

غاصت يدُها أكثر وأكثر كأنها تمدُّها في فراغٍ متناهٍ..

بطول ذراعها وامتدادها من كتفها سقط بلا حاجز مـــن فجـــوة وجهها.

تُرى، إلامَ تحوَّلت؟

ما هذا الكيانُ الذي أصبحت عليه؟

إن الخاطر الذي راودها صحيح.

كانت هي نفسها الكيان الذي اصطدم بها في الشارع، ولم ينطق ببنت كلمة وجرى..

ارتجفت من الفكرة المُرعبة

إنها هي الكيان.. وجال ببالها خاطر آخر.

إن كانت هي نفسها الكيان الذي اصطدم بها في الشارع، فمـــن المؤكد أنها الآن تُواجِهُ معدومي الأوجه عند سور الحديقة..

نعم إنه جُنون مُطبِق، ولكنه منطقي بعد كل ما واجهته..

عادت تعدو خارجة بأقصى سرعتها.

الرصيف..

سور الحديقة..

تراهم يصنعون دائرة تصغُر وتصغُر..

تعرف أنها بمنتصف الدائرة الآن ترتجف..

إنها هي.. ترى نفسها..

بينها وبينهم ثلاثون مترًا فقط..

واختفوا جميعًا..

تبخروا وسرت بجسدها قشعريرة وسقطت هي الأخرى..

مغشيًّا عليها.

***

5

مكان مظلم..

لا أثر لأي كائن حي...

رائحة عفنة تكتم أنفها..

لا ليس مرة أخرى.. إنه الجُب نفسه أو المغارة..

لا ليس مجددًا..

نبش بالخارج والباب العلوي يُفتح.. أناس مختلفون عن السابقين يحملون حملهم الأبيض الكبير..

هذه المرة قررت أن تكون أكثر هدوءًا وحكمة وتـــدقق فيمـــا يدور..

لم تخرج مسرعةً، بل توارت وأرهفت السمع..

كانوا يبكون وهم يترلون السلم..

أحدهم يردد: (لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله) وآخر يردد: (إنا لله وإنا إليه راجعون)..

هل المهربون أصبحوا يذكرون الله في أثناء عملياهم الإجرامية لتحل البركة!

لا..إهم ليسوا مهربين..

إهم يدفنون ميتهم.....

شهقت بلا صوت...

احتمال أها محبوسة بقبر لا مغارة أرعبها...

خرجت تجري ونظرت للباب الذي خرجت منه والذي لم تلتفت إليه من قبل..

مقبرة..

إها تخرج من مدفن وتجري بأرض المقابر المبتلة بمياه الأمطار لتتحول إلى طين..

سقطت وتعثرت.. وتلوّثت..

صلاح سالم... السيارات المسرعة.. الأمطار.. تجري بأسرع ما أُوتيت من سرعة..

لا يوجد سرعة أكبر لديها..

الحديقة... الرصيف خالٍ.. اخترقته ولم تصطدم بنفسها عند تلك النقطة..

التقطت نفسها بارتياح وأكملت عدوها ولم تقابل جثمان الكلب

وصلت للمنزل..

الباب مغلق وليس مفتوحًا..

الأمور تختلف عن المرة السابقة إذًا ولا تتكرر..

لم تقابل نفسها، لا يوجد كلب ميت والباب مغلق..

باقي أن تتأكد أنه لا يوجد (داليا) أخرى بالداخل..

دارت حول نوافذ المنزل بارتباك..كلها مغلقة يملؤهـــا التـــراب والظلام..

فجأة صدر ضوءٌ من أحد النوافذ المغلقة..

هرولت باتجاه الضوء، وحاولت النظر عبر فتحات الشيش الخشبي المغلق..

رأت ما كانت تخشاهُ..

كانت هي تجلس على الأريكة بجانب قطتها والتلفاز مفتوح..يدق الهاتف.. تتناوله....يدور حديث سريع.. ترتبك..

جرت حول المترل تريد الدخول يجب أن تـدخل وتمنـع مـا سيحدث.. فهي تعرفه جيدًا..

نبشت النوافذ بعصبية محاولة فتحها..

حتى استجاب وفَتَحَ أحدُهم وقفزت منه.

ما هذا؟ البيت مليء بالعنكبوت والأتربة!

كانت تراه عبر النافذة حالًا نظيفًا مرتبًا..

رأتها قطتها وسط الظلام تقف وعيناها تنيران في الظلام ككشافين حمراوين...ماءت برُعبٍ..

دقت الساعة الثانية عشرة صباحًا بذاك الرنين المعدني..

لا بد أنها الآن ترتدي الملابس..

جرت قاصدة غرفتها، وقبل أن تصل أُغلِقَ الباب بعنفٍ وسمعت صوت دوران المفتاح من الداخل...

نعم، نعم... فعلت هي ذلك عندما أرعبها مواء القط..تـذكرت الآن...

لا تحمل صوتًا لتصرخ وتقول: (لا تخافي أرجوكِ...افتحي فأنا هو أنتِ بشكل ما)..

جرت لغرفة المعيشة التي كان يسودها التراب وعلامات الهجر..تناولت الهاتف المُلقى على الأريكة لتكتب رسالة نجدة لوالدتها إن كانت لا تستطيع الكلام ولا تملك فمًا..

الهاتف مُغلق، مكسور ملوث بالأتربة...لا يوجد به حتى شريحة للمكالمات؟ شاشته مشروخة بأكثر من شرخ..

ألقتْهُ بعصبيةٍ وداسته بقدميها وهي تبكي بلا دموع ببساطة لأنه لا يوجد لها أعين وظهرها للباب..

استدارت على ضوء يملأ الغرفة فجأة...وتتحوّل لنظيفة في لحظة واحدة ومرتبة بلا آثار لأتربة وعنكبوت، وكأن الضوء الذي صدر نظّفها بلمسةٍ سحرية..

رأت نفسها تقف عند الباب، وتصرخُ بفزع، فاستدارت لنفسها بفزع مقابل لأنها تعلم ما ستفعله الغبية حالًا..

اتسعت عيناها هولًا، وجرت لتمنع ما سيحدث، ولكن (داليا) ذات الوجه كانت أسرع من (داليا) عديمة الوجه، فأغلقت الباب بعنفٍ، وأدارتِ المفتاح من الخارج..

لو كانت تملك صوتًا لصرخت.

– أيتها الغبية اتركيني أخرج.. ستهربين من نفسك إلى الهلاك.. افتحي.

ولكنها لم تمتلك إلا أن تضرب الباب بعنفٍ بكلتا يديها..

مرت دقائق حتى استطاعت أن تقفز من نافذة المنزل، جرت بالشارع تحاول اللحاق بنفسها..

وتدعو الله أن لا تراه..

الكلب الميت ها هو.. رأته..

أكملت عدوها بأسرع ما تملك..

الدائرة أمامها تضيق وتضيق بأجسادهم..

يفصلهم عنها حوالي ثلاثين مترًا..

ضاقت الدائرة أكثر حتى أُغلقت قبل أن تلحقها..

وتبخَّروا..

وخارت قُواها هي الأخرى فجأةً، وسقطت قبل خطوات منهم وهي تفكر كيف سيكون الأمر في المرة القادمة؟

عندما تبدأ من جديد..

بالقبر.

***

6

تقدَّم (مختار) يحمل كوب شاي ساخن في هذا الجو البارد الممطر، وناوله صديقه (عبد الرحيم) حارس العقار المجاور الجديد له الـــذي يجلس على أريكة خشبية داخل كشك خشبي للحراسة.

كان شاردًا بذلك، معلقًا عينيه على المبنى القابع بثقل أمامه، وقال بتوتر ورعب:

– (مختار) أليس هذا المنزل مهجور؟ أقسِم لك سمعتُ من داخله الآن صُراخًا، ورأيت ضوءًا يُفتح ويُغلق، وفتاة تخرج منه تجري.

وضع (مختار) يده على فم (عبد الرحيم) ليمنعه مـــن مواصـــلة الكلام وهو يقول:

– سلام قولًا من رب رحيم.. هيا نرحل مسرعين، إنك جديـــد بالمنطقة، ولا تعلم أمر هذا المنزل المسكون..

رحلا مُسرعين وفي أثناء مشيهم قصَّ (مختار) القِصَّة وهو يناوله سيجارة مُشتعلة:

– منذ عشر سنوات كانت هناك فتاةً جميلة تعيشُ مع والدها بهذا البيت، وفي ليلةٍ مُمطرة كتلك تركتها والدها لسبب ما بمفردها، فأراد خطيبها أن يستغل الفرصة وطلب لقاءها ليلًا بخُدعة ما، وكان يعلم أنها فتاة هشَّة شديدة الرعب والتوتر...

وعندما خرجت للقائه اعتدى عليها عند سور الحديقة المهجورة وتركها بين الحياة والموت مغشيًّا عليها وهرب باكيًا تحت المطر وهجم عليها كلب مسعور وهي بين الحياة والموت لينهشها ويمزق أطرافها وأحشاءها دون مُقاومةٍ منها..

عاد خطيبُها بعد دقائق متوترًا محاولًا إيجاد حلٍّ لضحية غدره، مسح آثار جريمة الاغتصاب، فوجدها مُمزَّقة الأحشاء والجسد، فحملها إلى مقابر السيدة عائشة ودفن أشلاءها بعد أن دفع مبلغًا كبيرًا لحارس المقابر ليعاونه على الأمر..

ظنُّوا أنها خُطفت أو فُقدت وعاد هو ليواجه أمورًا بشعة ويراها بكل مكان تطارده...حتى جعلته سرعان ما اعترف بجريمته، وأُعدِمَ.. وعندما أرشد الشرطة إلى مكان جثتها لم يجدوها، ولكن أكد اعترافَه اعترافُ حارس المقابر، وأن الجثة كانت هناك أمام عينه..

ومن وقت للآخر خصوصًا الليالي الممطرة تـصدر مـن المـترل أصوات صرخات، وترى أضواء تصدر مرتعشة، وأكَّد العديد مـن الجيران رؤيتهم لها تخرج من البيت عدوًا...

وأصبح المترل مهجورًا خصوصًا بعد أن تركته والدهّا أيضًا لأنها رأت ابنتها في ليالٍ عديدة تجوب المترل ليلًا بعد حادث قتلها..

أخيرًا نطق (عبد الرحيم):

– يا ساتر يا رب..

سالي مجدي

لَعنةُ الدَّم

خيَّم الظلام الدَّامس على جميع أرجاء تلك القرية الصغيرة النائية الواقعة في أطراف صعيد مصر، وغرقت منازلها المحدودة في مستنقع من الصمت الرهيب، فبدت للمُراقِب عن كثبٍ وكأنها قبور للموتى؛ لولا تلك الأنفاس الحارة المتصاعدة من أجساد أحياء مكدودين غطُّوا في نومٍ عميق، بعد يوم عمل طويل شاقٍّ في حقولهم التي أفنت الأجداد، ولا تزال تتحدى الأحفاد بالاندثار، وقد بادرت بأن نحتت على وجوههم بصمةً غائرة من العناء والإرهاق لتُبرهِنَ على أنها الأبقى حتى يأتيَ الله بأمره، وفجأة تبدَّد الصمت البليغ مع تصاعُد نغمة رنين هاتف جوال يميز خاصية البريد الوارد، وكان مصدرها إحدى البيوت المتسربلة بالظلام والسكون التَّامَّين، فانتفض ذلك الشاب النائم فزعًا، ثم فركَ عينيه الضيقتين، ومسح على شعره المجعد، وهو يتمتم بكلمات ساخطة على من أبرق له تلك الرسالة، فهبَّ جالسًا على طرف فراشه والدهشة تعصف به، لتُذكِّرَه أنه غفلَ عن

شحن بطارية جواله الفارغة تمامًا منذ مساء أمس، فكيف يتسنَّى أن تأتيه رسالةٌ ما عبر هاتفٍ بلا روح؟!

كَبَحَ جِماح تساؤلاته المنطقية، ومَدَّ يده يختطف هاتفه الخلوي من على سطح الكومود، وضغط بسبابته ضغطتين متتابعتين فوق سطح شاشة الهاتف لتفتح الرسالة، وبعينين مشدوهتين التَهَمَ فحواها، وهو يزدرد لُعابه بصعوبةٍ ليُرطِّب حلقه الجاف، وبصره يحملق فوق حروفها القرمزية التي تقطر دمًا، وعندما لم يجد رقم المرسل بُهِتَ وهلةً، ثم تمالَكَ زِمام نفسه سريعًا، وهو يطلق سُبةً بذيئة من بين شفتيه، اللتين شاركتا ملامح وجهه امتعاضًا قاسيًا، وغمغم بسخرية لاذعة:

- ما هذا الهراء السخيف الذي حَلَّ عليك أيها الهاتف اللعين؟!

ضرب كفًا بكفٍ قبل أن يُطالع الرسالة مرة أخرى باستخفاف، وتمتم بصوت خافت:

- هُبَّ من مرقدك أيها الفاني، وأنصتْ جيدًا لسيدك المتعالي.

- هو قدر محتوم كعتمة الليالي، وسيصيبك باليتَ أم لم تُبالِ.

- هي لعنة كل يوم تتوالى، وستُراق لها الدماء كالنهر الجاري.

- هل بعينيك الخلاص الأني؟ سيأتيك الجواب قبل الكابوس الثاني.

انتفض جسده بُرهة، ودبت في أوصاله قشعريرة باردة كالثلج، ثم لم يلبث أن حاول جاهدًا طرد تلك الهواجس المخيفة التي طرأت بفَلَك عقله، فاستخف بنفسه أن صدق لحظةً هذه الخزعبلات الخرقاء، وهو يطوح الهاتف بطول ذراعه غير مبالٍ بما قرأه، بعدها راح يُمنّي نفسه أن يذهب مرة أخرى في سُبَات يهربُ خلفه من هذا الواقع المريض، وكأن شيئًا لم يكن، ولكن هيهات فعقله الباطني صوَّر له الأفاعيل حالكة السواد، حتى يسلخه من مرقده، ويُبدِّل ليله نهار، فخاض عقله اللاواعي معركة خامية الوطيس مع جسده المُنهَك الراغب بشدة في طلب الراحة، وأوشك الصراع أن يرديه في أغوار الهلاك السحيقة، وهنا أبت نفسه أن تُذعن لعقله، فغمغم بالمعوذتين والسبع آيات المنجيات، لكي يهدأ فكره المضطرم بنار القلق المستعر، وتفارقه تصوراته الخبيثة المستبدة فينام قرير العين، وبالفعل سكن عنه الاضطراب ما بقيَ له من ساعات الليل، بعدها امتدت نحو كتفه يدٌ أخذت تهزُّه برفق ومن خلفها تسلل إلى عقله صوت أنثوي ينادي قائلًا:

– استيقظ يا ولدي، لقد أوشكت الشمس أن تصيب كَبِدَ السماء، وأنت ما زلت مستغرقًا في النوم!

فقح عينيه ليُفيق من سُباته بانتفاضة عنيفة مدعمة بوجه شاحب، فارتَدت أمه للخلف مصعوقة وعيناها تتسعان في هلع من ردٍّ فعله إزاء هزها الخفيفة، وتفجُّر الجزع في أنحاء حجرات قلبها الوَلِع عليه، فأخذت تتمتم بحيرة مشفقة:

– بسم الله عليك يا قرة عيني..ماذا دهاك يا حبيبي؟!

انتبه لخوف أمّه فربت على كتفها ثم التقط كفّيها وبثهما من قُبلاته البارةِ، وقال محاولًا أن يُهدّئ من روعها بابتسامة هادئة:

– خيرًا بإذن الله يا أمي الحبيبة، ما هي إلا أضغاث أحلام فارقتني بلمسة يديك الحانيتين .

بادلت ابتسامته بنظرة أمومة ربانية وهي ترفع يديها بالدعاء وقالت في خشوع:

– حفظك الله من كل مكروه يصيبك يا صالح، فليس لي سند سواك يرعاني وشقيقتيك الصغيرتين بعد الله عز وجل.

ثم مسحت على شعر رأسه بكفّها قبل أن تحثه على مفارقة فراشه قائلةً بلهجة حازمة:

– هيا يا ولدي كفاكَ كسلًا وخمولًا، فالحقل ينادي، ولولا مجهودك الشاقُّ به أمس لبادرت بأن أوقظك مبكرًا.

دارت على عقبيها لتغادر حُجرته وهي تردف قائلة في حسم:

– سأصعد الآن لسطح المنزل لجلب بعض البيض،وبمجرد انتهائك من طقوس الحمام، سأكون قد فرغت من إعداد الطعام بإذن الله.

قالت عبارتها ثم انصرفت، بعدها لم يجد (صالح) بُدًّا أمامه سوى الإذعان لأمر والدته، فانسحب من فراشه برغم الأرق الذي انتابه

وأقلق مضجعه، وخطا بتؤدةٍ لحمام بيته، وشرعَ في خلع ثيابه وهو يتثاءب بحدة، ومَدَّ قبضته ليُدير محبس الدُّشِّ فتحرر على إثر فعلته رذاذ المياه الدافئة وتصاعدت لزخات تناثرت على رأسه وانسابت من جسده العاري فوق أرضية الحمام ومعها اتسعت عينا صالح من الدهشة وهو يرى الأرضية وقد طُليت باللون الأحمر، فنبَش عقلَه منقبًا عن تفسير لما يحدث، لثوانٍ أوْعَزَ له تفكيره أنه من الجائز أن خزان المياه قد تسربت إليه كمية مخيفة من الطمي الأحمر والشوائب، ولكن سرعان ما وأد الفكرة في مهدها، وهو يبتلع بعفوية دفقة من المياه تسلّلت لفمه، لم يستسِغ طعمها، وهنا اكتشف الحقيقة المفزعة، فالماء ممزوج بالدماء، التي أخذت في التساقط كالأمطار لتلوث حائط الحمام وأرضيته، فبهت صالح وهو يحدق ذاهلًا إلى أرجاء كفّيه وجسده، ليغَشاه الرُّعبُ حتى الإلجام مرادفًا لما أَلَمَّ به جراء ما حدث، فتمالَكَ رباط جأشه بصعوبةٍ، وهو يستند إلى حائط الحمام، ثم تلقائيًّا أغلق محبس المياه، وجفَّف جسده بمنشفة من فوق المشجب، وارتدى ملابسه على عجلةٍ من أمره وهو يعدو باتجاه سطح المنزل، ونبضات قلبه تتسارَعُ إلى حَدٍّ قاتل، حتى كاد اضطرابه يلفظ قلبه خارج جسده، وهاجس مخيف يُراوِدُه ويطنُّ بفكره، وكأن بداخله أسرابًا من الذباب، يتمحور حول أقرب مخلوقة في الوجود لقلبه (أمه)، ومع مشارف الدرج طالعه ذلك المشهد الفظيع، الذي يعجز القلم عن وصف مدى بشاعته، ومعه تجمَّد صالح في مكانه مصعوقًا وهو يفغر

فاه من أثر الذهول، حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما خوفًا ورعبًا، وهما تُبصران أمَّه في لقطة خارقة لكل نواميس الكون، متجمدة في الفراغ في وضع معكوس قدماها في السماء، وعُنقها مقطوع الرأس يترُّ دماء الحياة صوب كُوَّة خزان المياه المعدني المستندة إليه رأسها المبتور، وعلى قَسَمات وجهها حُفرت أقسى علامات الذعر والفزع وأعتاها، وتحت وطأة وقسوة ما يرى لم يستطع (صالح) أن يتمالك كيانه بعد أن فاقَ ما حدث كل طاقته على الاحتمال، فانثنت ساقاه ليسقط جاثيًا على ركبتيه، ووجهه يهوي على الدرج كالصخرة فاقدًا الإدراك، بعد أن اخترقت مسامعه قهقهةٌ مُخيفةٌ تردَّد صداها طويلًا لا يدري مصدرها، قَرَعَت أذنيه كدويٍّ ألف صفعةٍ، لتودي به إلى غياهب المجهول، أو حيثُ العدم، وهذا كان أبلغ وصفٍ يمكن أن يتصف به ذلك المكان الذي انتقل إليه بعد أن وجد نفسه في بُقعةٍ مُوحشةٍ من اللاشيء، قفرٌ مُستوحشٌ يَغشاهُ غَسقٌ حالكٌ من كل صوبٍ حتى أنه أبصر يدَه فلم يَرَها، والعجيب أنه لم يرهب المكان على الإطلاق، بل شَعُرَ بأُلفةٍ غريبة تنتابُه فاستأنس الوَحْشِيَّ والوحدة وكأنه قُدَّ منهما فأصبحتا مترادفتين له طيلة حياته، فهو الذي لم يجالس الأقران قط، ولم يعرف للمحبوبة سبيلًا قط؛ لذا فعُزلته أمر اعتيادي أبَى ألا يفارقه، لذا كان واقعه أشد إيلامًا وغربة مما حاق به، ولهذا بتروٍّ وبدون انزعاج ظَلَّ يدور حول نفسه، ليبحث عن مخرج من ذلك العدم السرمدي الأسود، ولكنه لم يجد مفرًّا حوله من كل

الاتجاهات المعروفة، هذا لو أن للعدم اتجاهات أربعة كالتي نعتادها في عالمنا، فهناك لم يتلمس سوى فراغ لا نهائي لا فكاكَ منه، وبغتة نبتَ من قلب الظلام بصيصُ ضوءٍ ما لبث أن أصبح نقطةً مُضيئةً مُبهرة، تعاظَمت حتى أوشكت أن تخطف بصره، لتستقر تلك النقطة على هيئة قبة دائرية عظيمة من ضوء ساطع يَغشى الأبصار، فاضطربت رؤيته بشدةٍ، وبحركة غريزية وضع يده بسرعةٍ على عينيه ليقيهما الضوء المباشر، ومع ثبات الضوء وشعوره بأنه تكيَّف على وضعه الجديد أزاحَ راحتيه عن عينيه ليُبصر ذلك الحدث الخارق للمألوف، وعلى عكس كل قواعد الفيزياء المعروفة، تكوَّن في قلب قوس الضوء حيِّزٌ على هيئة مربع مُتَّشح بالسواد! ورويدًا رويدًا بدت ملامح هذا الحيز تتشكل لتتضح على هيئة حجرة حددت تفاصيلها نارٌ متأججة بلهب مُتَّقد في مِلاط الحجرة الأدكِن فجعله يقطر بازلتًا فاحمًا كحُمم البركان المستعر، وعلى جدرانها تراقصت ظلال سوداء كثيفة لها تكوين شيطاني بشع أشبه بصور السيلويت القاتمة، مع ظهور ذلك الشخص الذي توسَّط وتوسَّد أرض المكان، والذي كان يرتدي زيًّا كاملًا بلون أَحْمَرَ قَانٍ كالدم، في وضعية النائم منتصب اليدين والقدمين، على هيئة نجمة خماسية مرسومة على الأرضية، وبجواره فوق منضدة مستديرة يرقد شمعدان ثُماني ضخم تشتعل فيه ثماني شمعات سوداء، ومن مثيلاتها نفسها اصطفت شموع مضيئة حول الجسد الساكن تحدُّه من كل صوب، لتضيف على الحجرة رهبةً

تقشعر من هولها الأبدان، وعند هذا الحدِّ بدت الحجرة مألوفة لـ(صالح)، بعد أن تيقن من معرفة ذلك الشخص الذي كان تحديدًا والده الراحل، الذي كان في تلك الأثناء يتمتم ويهذي بتعاويذ وطلاسم غير مفهومة، بلغة غير معروفة وجسده ينتفض بقوة، وهنا تحركت فطرته الغريزية تجاه أبيه الذي لم يرَه قط في حياته سوى في الصور الفوتوغرافية، فحاول جاهدًا أن ينتزع قدميه من تيبُّسِهما، ولكنها أبت أن تُذعن لإرادته فعجز أن يتحرك عن مكانه قيد أنملة، بل حتى إنه شعر بأن هناك حاجزًا غير مرئي يحول بينه وبين أن يمد يديه حتى المنتهى، وحبس صوته في حلقه الجاف فلم يستطع أن ينادي والده، وكأن دورة هنا لا يتعدى كونه مراقبًا فقط، فطالع تلك اللحظات العصيبة بعينين مشدوهتين ووالده يرتجف، وينتفض بعنف أشد ألف مرة مما كان، وكأن جسده تحوَّل إلى مرجل يغلي فيه الماء من شدة لَظَّى النار، وفي تلك الأثناء صرخ والده بتعويذة أخذت كل مخزون صدره من أنفاس، انشق على إثرها فراغ الحجرة، وكأن سيفًا ماضيًا قد اخترقها صانعًا قوسًا من النار، أزاح السِّتار عن عالم رهيب مخيف تتصاعد منه هالاتُ الجحيم، وهبٌّ منه لفحات من سموم، ومن داخل القوس انطلقت هالة من نار بشكل حلزوني مخيف مصدرة فحيحًا مرعبًا، ووهجٌ لا تخطئه العين باتجاه (صالح) الذي بوغت بهذا الفعل فشعر بالدماء تكاد تتجمَّد في عروقه، ومع شعوره بالخطر يدنو منه بسرعة البرق، وبغريزة التعلُّق بالحياة أحنى رأسه في اللحظة

الأخيرة، فتجاوزته الهالة بعد أن احتكت بشعره فأضرمت فيه النار، وبجَزعٍ أخذ يُطفئ النيران الناشبة بشعره وقد أخذَ الرُّعب منه مبلغًا، وفي غمرات انشغال (صالح) بإخماد النيران لم ينتبه لتلك الهالة الأخرى التي تهيأت للخروج من القوس مُنذرة بهلاكه، لكن مِن حُسن طالعه أن حجبها بجسده ذلك المخلوق البشع المخيف بعينيه المتقدتين بجمرتين من نار، ورأسه المفلطح الذي يبرز منه قرنان أسودان ملتويان، وذيله الذي تراقص خلفة كأفعوان أرقْط، وفي نفس اللحظة مع تصاعد ارتجافة جسد والد (صالح) تهيأ المخلوق لعبور الفجوة، بأن مَدَّ رأسه ليخترق عالمنا مُتوعِّده بالويل والثُّبور وعظائم الأمور..

- استيقظْ...استيقظْ يا (صالح)، كفاني دموعًا ذرفتها اليوم.

هنا شعر بتلك الهزة العنيفة تؤازرها هذه العبارة الجذعة التي اخترقت أذنيه فسلبته من الكابوس الرهيب الذي كان يجثم على صدره حتى كاد يفتك به، فشهق بقوةٍ وهو ينتفض مع تَنَاهي تنهيدة ارتياح إلى مسامعه، حملت زفير شقيقته الوسطى، فتح عينيه ليجد نفسه فوق فراشه، وهي تجفف عرقه الغزير الذي تصبَّب على قسمات وجهه، فقال لها محاولًا بثّ الطمأنينة إلى فؤادها المُلتاع:

- لا، لا.. لا تجزعي يا (صباح) فبفضلك حَلَّ عن سمائي كابوس مخيف، عاصرت فيه كل صنوف الرعب، وكدتُ أهلكُ في المنتهى، لولا أن فارقته في الوقت المناسب.

بلغت أنفاسه رائحة شِيَاط كريهة، فهبَّ بتلقائية بوضع يده فوق رأسه، فتسمرت راحته في موضعها وقد بدا عليه الانزعاج بعد تأكُّده أن شعره مصدر تلك الرائحة، فصرخ كمن لدغَه عقربٌ سامٌّ:

- يا لَلْهول.. هل ما عاصرته كان واقعًا أم كابوسًا لعينًا؟!

ضرب أخماسًا بأسداس لعله يصل لتفسير منطقي لما حدث، ولكن دون جدوى، ففيروس الحيرة أصاب عقله بالشلل، فلم يعد يدري أهو لا يزال يحيا واقعه أم دارت رَحى الكابوس على واقعه؟ فامتزج بالخيال، شعر أن عقله يكاد يذوب داخل جمجمته، وزاد الطين بلة أن جالت في خاطره صورة أمه، تذكّر مصيرها وما حدث لها بفعل قوى شَرٍّ خارقة، فندَّت من عينيه دمعة سرعان ما انساب على إثرها شلال من دموع حارة حملت كل ما تموج به نفسه من انفعالات الحب الجارف، فاستطرد مغمغمًا وهو يجهش بالبكاء:

- فليتغمدك الله برحمته يا أمي الحبيبة...ما أقسى غيابك! وما أشقاني وأتعسني بعد رحيلك!

هتفت به (صباح) في لوعة:

- لقد كدتُ أُجنُّ يا (صالح) لما حاق بأمّنا من هلاك، ولم أستطع أن أجد تفسيرًا لما حدث بعد أن وجدتك فاقدًا للوعي عند نهاية الدرج بجوار جثتها المفصولة عن رأسها.

التقط (صالح) أنفاسه بصعوبةٍ وهو يقول لها من وسط دموعه:

- هو بالفعل أمر ملعون، ولكن العجيب في كونه اختار عائلتنا دون سواها من البشر؟!

ربتت (صباح) على صدره بحنوٍّ بالغ، ثم ضمَّت يده برفق لتحثه على تبديد أحزانه، واستعادة روحه الصافية، وعزيمته الصلبة التي لا تلين، فارتدتْ قِناعَ التَّماسُك والصلابة أمامه، وهي تقول له بثباتٍ مُصطنع:

- هوِّن عليك يا أخي، فما حدثَ كان قدرًا لم يكن لنا بُدٌّ منه.

من قلب الكمد الذي ملأ كيانه فاستحوذ عليه، وجد بارقة تفاؤل تساءل عنها قائلًا:

- كيف حال (صفية)؟ هل علمت بما حدث لأمها؟

أطرقت برأسها وهي تُجيبه بحروف تقطر مرارةً:

- لم أشأ أن أخبرها بشيء قبل ذهابها للهو مع رفاقها، فهي صغيرة ولا تقدر على تحمُّل تلك الفاجعة، فقد جئتُ بك من فوق الدرج حتى فراشك، وأوصدت باب السطح جيدًا حتى لا يتسنى لها رؤية أمها على هذه الحالة، ثم أخبرتها أنها سافرت لعائلتها في الزقازيق، وستعود بعد حين.

قالت عبارتها الأخيرة، ثم اعتدلت واقفة، واستدارت بوجهها تُجفِّفُ دموع الكسرة والحسرة التي خانتاها بعد أن قاومتها طويلًا أمام شقيقها المنهار، فتهيأت لمغادرة الحجرة وهي تشير له قائلة بحماسة زائفة:

– هيا يا (صالح)، انهض لنواري الثرى جثة أمنا الراحلة.

في تلك الأثناء لكي تحثه (صباح) على الانضمام إليها، ضغطت بعفوية على زر إيقاف مروحة السقف التي كانت تلطف أجواء القيظ الشديد الذي يعيشون فيه، ومن سوء طالعها أنها أقدمت على هذا الفعل، لأنه في تلك اللحظة وعلى خلاف كل القواعد العلمية بدلًا من أن تبطئ المروحة من سرعتها تدريجيًّا حتى تصل لحد التوقف التام، دارت عكس اتجاهها صوب اليمين، لتتحول تحت وطأة فعل شيطاني شرير لشفاطٍ قوي، تسارَعَ دورانُه بشدة حتى أصبح كإعصار مُهلِك، انبثقت منه دوامةٌ رهيبةٌ أخذت في الدوران بسرعة لتبتلع كل الأهداف التي تقع في نطاقها، والعجيب أنها لم تختَر سوى (صباح) تلك الضحية التي وجدت نفسها بفعلٍ خارق للطبيعة تُحلِّق صوب مروحة السقف بسرعة خاطفة لم يستطع (صالح) حتى مع انتباهه ورد فعله السريع أن يحول بينها وبين مصيرها المحتوم الذي حاق بها، لتهمتها المروحة كوحشٍ عملاق شَرِهٍ بسرعة البرق، فقطعتها إربًا في غضون لحة هي للموت قرين، وخلال ثانية واحدة تحوَّل الجسد الذي

كانت تنبض عروقه بالحياة إلى فُتات متناثر من ذرات اللحم المفرى، والدم البشري الذي أخذ في الهطول كالمطر فوق رأس (صالح) الذي اتسعت عيناه من الفزع، فأخذ يصرخ من أعماق جوفه صرخة بلغت عنان السماء، حتى كادت حنجرته تُجتث من عنقه من هول ما يُعاصر، وهنا ظهرت جدران الحجرة وكأن ملاطها قُدَّ من الدم الأحمر القاني الذي سرعان ما تقطر منها، وسالَ على أرضيتها الملساء، وبدا وكأن الدم فقد أهم خواصَّه، وهي اللزوجة حيث انساب متدفقًا من كل اتجاه بالحجرة لينصب متجمعًا من تشتته في نقطة محددة، عندها حدث ذلك التحوُّل المدهش حيث تحور الدم كالحرباء فتأزر وتكاثف حتى تشكّل على هيئة لا تمتُّ إلى مخلوقات كوكب الأرض بصلة، هيئة هي ل-(ليموناي) أقرب تلك الحية الرقطاء التي كانت تحرس أبواب الجنة، والتي سمحت لإبليس بالعبور لآدم لإغوائه، فأنزلها الله إلى الأرض، فأعلنت عصيانها، وانضمَّت إلى حلف إبليس اللعين!

ومع تشكُّل الدماء على صورة (ليموناي) ارتفعت الحية واستَطَالَت بجسدها الأرْقَش حتى ارتقت مُحلِّقة فوق جسد (صالح) المبهوت واستعدت لاقتناصه بفعل مذهل للغاية، عندها انفجرت بدويٍّ مكتوم فتناثر كيانُها ببركان من الدم فوق ناصيته الفاقدة للحركة ولو حتى قيد أنملة، فغمرته الدماء الغزيرة بلا هوادة أو رحمة، عندها أيقن أن اللعنة قد حققت مأربها الثاني قبل الأخير، ببصمة موت شنيعة تطابق سابقتها مع اختلاف الحدث وائتلاف الهدف، وهنا دوَّى

في أذنيه نصُّ الرسالة الهاتفية، وتوقّف بفكره طويلًا عند شطرها الرابع، لترتجف أوصاله بعد أن واتاه الجواب المفزع وعرف فحوى تلك الرسالة الملعونة!

إن السر يكمن في عينيه اللتين أصبحتا بوابة المرور لأهداف اللعنة، ما إن تتجلى على أحد من أسرته، حتى تكون نهايته بأبشع وسيلة فتك ما لها من رادٍّ، هذا ما دار في خلايا عقله الرمادية قبل ثانية واحدة من فَقْده حواسَّ الإدراك، مع طنين رهيب لضحكة لها صدى مرعب مبعثُها قاع الجحيم جلجلت في الأجواء، فهوى بجسده دواليك في هوة عميقة ما لها من قرار، وغاص بكيانه كله في جوف كابوسه البَشِع الذي جاء بحذافيره مرةً أخرى، ليرى بأمِّ عينيه الهول يتجسد بأبشع آيات الرعب المُجسَّم، عندما برزت رأس المسخ البشع داخل فراغ حجرة والده المحتقن وجهه بشدة مترقبًا اللحظة التالية التي سيعبر فيها المسخ المخيف للثغرة، ولكن فجأة طرأ دخيل على المشهد أربَكَ بشدة كل الحسابات الموضوعة وعكس كل النتائج المرجوة بضغطة زرٍّ واحدة، ففي تلك اللحظة دلفت أمه إلى الحجرة وضغطت زِرَّ الإضاءة ثم شهقت بقوة من الفزع لما تراءى لها من مشهد مخيف، وجحظت عيناها من شدة الرعب مع تبدُّد ظلام الحجرة ليحدث على إثر فعلتها التلقائية ما اتسعت له عينا صالح المشدوهتان، عندها تسمَّر المشهد كله قبل أن تنقبض عروق والده ثم تنبسط مع فوران دمائه بداخلها وسرعان ما انبثقت بقوة كالنافورة من شتى أرجاء جسده لتصنع حول جسده بِركة من الدم الحار، فصرخ (صالح) بكل رعب الدنيا صرخة مكتومة لم تفارق حلقه

المتحشرج، مع حدوث تلك الفرقعة المخيفة التي انكمشت الفجوة على إثرها والتي حاول معها المسخ أن يتراجع لينجو برأسه، ولكن لم يكن رد فعله كافيًا للنجاة، ففي جزء من الثانية تلاشت الفجوة تاركة خلفها رأسه الذي بُتِرَ، وكأن مقصلة ماضية هوت عليه لينهمر منه سائل أسود لزج كالحُمم سرعان ما امتزج مع بركة دم والده الصريع، ليمتلئ المشهد كله باللون الأحمر، وهنا حال حلق (صالح) الجاف بينه وبين أن يتفوّه بحرف واحد، ولكن مِن دهشته أنْ جاوبته تلك الصرخات الطفولية المذعورة المتقطعة التي اخترفت أذنيه لتنتشله بحدة من كابوسه الفظيع، صرخات شقيقته الصغرى ذات الأربع سنوات آخر العنقود (صفية)

وكرد فعل لا إرادي فتح عينيه ليرمقها بنظرة خاطفة، وليته ما فعل، هو ذاته عرف فداحة ما بدر منه، فبالرغم من سرعة انطباق جفونه على عينيه، فإن فعله لم يَعُد يُجدي، فهي لمحة ليس لها من رادٌ، على إثرها يحيق الهلاك بمن أصابته سهم النظرة، لذا فقد توترت أعصاب (صالح) وتضاعَفَ انزعاجه على صغيرته إلى حدٍّ مخيف، فامتقع وجهه وماج عقله بمخاوف عدة، وحارَ في مخرج يقيها الخطر المحدق بها، ومع تدفق الأدرينالين في عروقه برقت في عقله فكرة شيطانية مفزعة، وضعها بسرعة موضع التنفيذ لعلها تنجي صغيرته من الهلاك، هكذا خيَّل له عقله وهو يشرع في تنفيذ ما عزمَ عليه، لذا بإرادة فولاذية أخذ يغرس أظفاره في محجر عينيه ليجتثهما من جذورهما، وهو يطلق صرخة رعب هائلة زلزلت كيانه كله، وجسده يتلوى بآلام رهيبة تغزو مفاصله، وتنتشر كالنار في شتى أرجاء جلده،

فتكويه بنار العذاب حتى أطلق تلك الصرخة الرهيبة، التي جندلت البقية الباقية من عزيمته، فتصبَّب عرقًا باردًا بعد أن حاز على عينيه لتقبعا مستقرتين بين يديه، تترُّ منهما دماؤهما وتقطر على فراشه مخلفة بين جفنيه تجويف أسود فارغ، سوى من دماء قاتمة حاول جاهدًا أن يمنع تدفقها، وبرغم المصير البشع الذي جناه بيديه كان القادم أسوأ بمراحل مما كان يظنُّ، لأن في اللحظة التالية لم يعد بإمكانه أن يبصر الهول الذي حاق بشقيقته، التي شحب وجهها مع رؤيتها لتلك الظاهرة الرهيبة التي اتسعت لها عيناها عن آخرهما من فرط الذهول، وارتعدت لها فرائصها الضئيلة مع رؤيتها لأحد جُدْران الحجرة وهي ترتجُّ بقوة زلزال هائل مدمر، فبدا وكأن معاول الهدم تحاول أن تخترق الجدار بقوة من الجهة المُقابلة، عندها ظَهَرَ ذلك الثقب الصغير في منتصف الجدار، الذي سرعان ما تحوَّل إلى كُوَّة محدودة، تلفِظ سوادًا مُطبِقًا، فظهر على عيني (صفية) الرعب في أقسى صوره، وانبثقت من حلقها شهقة فزع هائلة مع بروز ذلك الجعران الفرعوني الأسود من الكوة، وكالسهم الخاطفِ اخترق الفراغ صوب فمها المشدوه فاخترقه وغاص داخل أحشائها الضعيفة، فارتجفَ بطنُها بعنف حتى كاد من شدة اضطرابها أن ينخلع قلبُها الصغير من بين جَوانحِها، وضاقَ صدرُها حين انبعثت من حَلقِها حشرجات مخيفة تكوي القلوب المتحجرة، مع تلوي خصرها من الآلام وانتفاخ ظهر بجلاءٍ في بطنها إثر حقيقة مفزعة، أن الجعران يتكاثر بسرعة، مع تزايُد تموجاتٍ شملت أنحاء جسدها كافة حتى انتفخت بطنها ومن ثم تضاعف الانتفاخ بشدة، وكالمنطاد المثقوب انفجرت بقوة، وبكل

بشاعة تمزق جسدها لفتات تناثر أشلاء على وجه (صالح) لتغمر دماؤها جسدَه حتى ألجمته، لذا لم يستطع أن يتفوّه ببنت شفة، مع تجمُّد الصرخات على أعتاب شفتيه من هول ما حدث، وجسده يصرخ بآلام لا مثيل لها في الكون، ومع الظلام الأبدي الذي اختاره بيديه هاج غبار كثيف، وماج في مخيلته لتنتج عنه دوامة من ألوان الطيف القزحي أخذت في التَّشكُّل بأشكال مخيفة، سرعان ما استقرت على صورة والده الراحل وهو يتسربل بالظلام، فلم يظهر منه سوى وجهه، الذي اضطربت قَسَماتُهُ بشدةٍ وهو يهتف بكلماتٍ تقطرُ أسًى:

– سامحني يا بني، فهذا جَنَتْهُ يدي، ولولا خطيئتي ما حدثت لكما تلك الفواجع، ولا أصابكم الهلاك!

هتفت به مُخَيِّلَةُ (صالح) متسائلة بصوت مرتجف:

– لماذا كل هذا يا أبي؟ ماذا جنيتَ لحالك حتى تُصيبنا تلك اللعنة دون سوانا؟ ولِمَ؟!

قاطعه والده في حزمٍ:

– لم تعد المعرفة تُجدي بشيء يا ولدي، فهي لن تُعيد ما قد مضى.

ثم استطرد في حسم:

–والآن لا بد أن تنجو بحياتك قبل فوات الأوان.

عندها بدأت صورة والده تعاني اضطرابًا عنيفًا داخل ذهنه، حتى باتت في طريقها للتشتت، وكان ذلك واضحًا في نبرةِ صوتِه الضعيفة، وهو يُغمغم بصرامةٍ خذلته فجاءت خافتةً:

– هيا بسرعة، اهبطْ حيث حجرتي اللعينة، وأعد الكرة بتلك التعويذة التي فيها الخلاص.

أخذ يُخبره بطلاسم عجيبة لم يفقه منها شيئًا، ولكنه بغرابة وجدها وقد نُقشت داخل ذاكرته وكأنها خُلقت معه، ثم بعدها تبدَّدت صورة والده من ذهنه، وتركته خلفها كالميت الحي مُنهكَ الخلايا مُجندلَ العزيمة، لذا واتاه الفكر كثرًا للاستسلام لمصيره، ولكنه بغرابة شديدة كمسلوب الإرادة وجد نفسه مكرهًا ينقاد خلف نصائح والده الأخيرة، فهبَّ من مرقده بسرعة وتحسَّس خُطاه، وهو يهبط الدرج حيث حجرة والده العتيقة، ثم فتح بابها الذي لم يُفتح منذ أمد بعيد، فأطلق الباب صريرًا مخيفًا معلنًا اعتراضه على مَن أيقظه من سباته العميق، ولم يكد يخطو خطواته الأولى بداخل الحجرة الكئيبة، حتى فوجئ بلفحة ريح خبيثة كأنها قادمة من أغوار قبر يعجُّ بالجثث المتحللة، فبسمل وحوقل وهو يلهث في عنفٍ بجسدٍ مكدود وبخطًى متئدة تقدَّم حتى منتصف الحجرة، فتحسَّس أرضيتها فبُهت وأنامله تخبره أنها تتلمس نجمة خماسية، حفرت في الأرض مسافة عميقة كأخدود غائر ما له من قرار، تتصاعد منها حرارة تكوي الأجساد،

فانتفض جسده بقوة وهَمَّ بالانسحاب ولكن نصيحة والده ترددت في أعماقه بقوة.

- فاصدع بالتعويذة يا بني فبها الخلاص.

عنها وبعزيمة الرجال تمدَّد بجسده داخل حدود النجمة الخماسية، وطَفِقَ يُردِّد بحروف مضطربة تلك التعويذة الغامضة، التي حفظها عن ظهر قلب، ومع تصاعُد تراتيل التعويذة حدثت ذبذبة قوية في فراغ الحجرة تخلخل على أثرها الهواء متوافقًا مع فرقعة مدوية كشفت عن نفس الفجوة المخيفة التي تتصاعد منها الصواعق النارية، فبدت قطعة من الجحيم ذاته، ومن قلب اللظى برز وجه والده الساحر وسرعان ما اخترقت صورته مُخيلة (صالح) الذي بُهِتَ من فعل والده وهو يضحك بكل شماتة وسُخرية الدنيا مع تحوُّر ملامحه داخل ذهنه لتستقر مُتخذةً هيئة مسخ بَشِعِ الخِلقة، هو ذاته ما بدا بوضوح داخل القوس مسخ ينطق بالشَّرِّ في أحلك رداء لم يكد يتشكل في ذهن صالح حتى غمغم بفم ملؤه الرعب:

- رُحماك يا إلهي! مَن أنت أيها المسخ اللعين؟!

ارتفعت حدة قهقهة المسخ من سذاجة صالح؛ لانطلاء الخدعة الجهنمية عليه، فصارت هيئته مُجسِّمة للشر الخالص حتى أن (ست) إله الشر والعواصف عند المصريين القدماء كان سيغبطه حتمًا لو رآه على تلك الهيئة، وبعينين حمراوين تشتعلان بوهجٍ رهيب كجمرتين من لهب صرخ فيه بحروف مقتضبة تقطر وحشية:

- ألا تدري من أنا بحق أيها التعس الفاني؟!

أصدر المسخ زمجرة مخيفة من شدتها كادت تصمُّ الآذان، وهو يستطرد في مقت بلغ المنتهي:

- أنا مبعوث الجحيم (سيتان)، ومن أجل هلاك ولدي ستتجرع العذاب ألوانًا.

عندها وجد (صالح) جسده يرتفع في الفراغ بقوة خارقة ثم يطير باتجاه الفجوة، فتلقفه (سيتان) وألقاهُ بداخلها بكل عنفٍ وشراسة وهو يقهقه في ظفرٍ بعد أن حصل على غنيمته الأخيرة، بعدها استدار فتطايرت حرملته النارية خلفه كإعصار مُدمِّر، وهنا تلاشت الفجوة تمامًا، فأسدل الظلام أستاره، ثم أطْبَقَ الجحيم فكّيه.

راضي عبده

الشَّرُّ الكامن

1

كانت المسابقة جديدة من نوعها.مسابقة مكياج أقبح الوجوه. تصفَّح الإعلان بالجريدة في غير تصديق فهو عاطل عن العمل منذ فترة ليست بالهينة. لكنه تراجَعَ عن تفاؤله بالتأكيد هناك من هم أكثر منه خبرة بهذا المجال.

عاد يقرأ تفاصيل المسابقة وقد أسعدَه أن الشروط مناسبة له تمامًا. استغلَّ لحظة الحماسة واتخذ القرار بالمشاركة.

وفي صباح اليوم التالي وقف على بوابة العنوان المُدوَّن فاغرًا فمه غير مصدقٍ لما يرى من إبداع هذا المبنى وتصميمه المكون من أربعة طوابق وحديقةٍ تُحيط المكان.

بدأ يتصبَّب عرقًا عندما وجد عظماء فنِّ المكياج يجلسون في قاعة الانتظار، بالإضافة إلى ثلاثة شباب في مثل عمره تقريبًا.

جلس بجانب أحدهم وسأله في توتر بصوتٍ يكاد لا يُسمع.

- هل بدأت المقابلات؟

بادَله الشابُّ الهمس:

- نعم منذ نصف ساعة. اذهب لتسجل اسمك لدى السكرتيرة في الغرفة المجاورة.

ما إن غادر (رياض) مكانه حتى تذكر زميله شيئًا ما والتفت نحوه منبهًا لكن وجد مكانه شاغرًا.

طرق (رياض) باب السكرتيرة ودلف فور سماعه صوتًا ناعمًا يأذن له بالدخول.

فُتِحَ الباب، ووقف مفزوعًا وقد ألجمته الصدمة لتتعالى ضحكة أنثوية ساخرة.

وهي تهتف به مطمئنة.

- إنه مكياج. نوع من الدعاية.

وأنزلت خصلات شعرها المستعار على نصف وجهها المحترق في خجل.

ازداد ارتباكه وحاول السيطرة على أعصابه المتوترة فقد صَدَمَه دقة المكياج.

خرج صوتُه مُتحشرجًا:

– هل يمكنني تسجيلُ اسمي؟

نظرت إلى ساعة الحائط وأجابته بابتسامةٍ أشعرته بالتقزُّز.

– يا لك من محظوظ! ستكون آخر المتقدمين. اجلس لنسجل كامل بياناتك.

استغرق الأمر ما يُقارب النصف ساعة، وتنفّس أخيرًا بارتياح بعد مغادرته مكتب السكرتيرة، وقد تعجَّب من أمر رائحة الدخان التي تزكم أنفه وكأن هناك حريقًا بالفعل.

كان قد توقَّع أن يجد أبشع الوجوه في لجنة المقابلات. ابتسم في سخرية من خياله عندما وجد ثلاثة رجال مختلفي الأعمار، وامرأة يبدو عليها تقدُّم العمر.

بدأت المرأة بالحديث، كان صوتها رجوليًّا بطريقةٍ مُنفِّرة.

– أُدعى (ليان). خبيرة تجميل.

وأشارت إلى رجل قد تجاوز الأربعين.

– هذا دكتور (أمجد) دكتوراه في التصوير السينمائي.

كان طويلًا، ممتلئ الجسم، وذلك الذقن الصغير أضاف منظرًا سخيفًا عليه لأنه لم يتناسب مع خصلات الشيب التي غزت شعره.

- هذا (تيتو).

واستدركت خطأها وهي تُكمل.

- أستاذ (طارق) خبير في الخُدع السينمائية.

وتنهدتْ مُنهيةً كلامها وهي تُشير إلى هذا الكهل الذي كان يُرمقني مُتفحِّصًا من أسفل نظارته.

- بروفسير (مايكل) الخبير الفني للمكياج.

بدأ دكتور (أمجد) حديثه وهو يتصفح بياناتي بتركيز.

- (رياض الباجوري). العمر ٢٦ سنة.

وصمتَ لحظة قبل أن يُكمِلَ:

- أنت خريج فنون تطبيقية، قسم النحت. شيء رائع.

ثم مطّ شفته السفلى في استياء واضح:

- لم يسبق لك العمل في مجال السينما.

زاغت عيناه وقد أيقن ضياع فُرصته. لكن (طارق) أكمل حديث زميله بصوت جهوري لا يتناسب مع هدوء المكان.

- لديك فرصة ممتازة لتجعلنا نرى إبداعاتك. المسابقة عبارة عن تصفيات ستتم بعد أسبوع من الآن، وبعدها سنُصوِّرُ فيلم رُعبٍ بالشخصيات الفائزة و..

قاطعه (مايكل) بصوتٍ حادٍّ مُميز:

- معذرة، ولكن لا داعي لشرح كل التفاصيل. ويكفي أن يعرف أن غدًا جلسة تمهيدية للمسابقة التي لن تمتدُّ أكثر من أسبوع واحد بعكس ما هو مُتعارَف عليه في برامج المسابقات. وبعدها سيتم الإعلان عن الفائز.

أكمل (طارق) حديثه.

- ستحصل على ظرف عليه اسمك من السكرتيرة. فترة العمل بالاستوديو من السابعة صباحًا وحتى الخامسة مساءً.

أشارت (ليان) باتجاه الباب:

- تفضَّل، وسوف تشرح السكرتيرة التفاصيل.

غادر الغرفة وهو لا يُصدِّق نفسه. لكن ما المقصود بالجلسة التمهيدية التي ستُقام غدًا؟ لفت انتباهه أن زميلًا له بالمسابقة يُشير إليه ليسرع باتجاه مكتب السكرتيرة. وهناك جلس سبعة أفراد هو ثامنهم، ووقفت السكرتيرة تقول في جدية.

أولًا- لكل منكم غرفته المدون على بابها اسمه.

ثانيًا- لكل منكم ظرفًا هو موضوع المسابقة التمهيدية غدًا.

ثالثًا– الاستوديو في الطابق الرابع، وعليكم أن تنجحوا في الانتهاء من التصاميم قبل جرس الإغلاق. وبعدها سيتم الانتقال إلى الطابق الأول حيث استوديو التحكيم.

هذا كل شيء. حاوِلوا أن تنالوا قسطًا من الراحة، وأتمنى لكم التوفيق.

هَمَّ الجميع بالمغادرة وقد تعالت الهمهمات. لكن عاد صوت السكرتيرة يطغى على الجميع وهي تصيح مُحذرةً.

أنتم ثمانية متسابقين. غدًا سيعود فقط أربعةٌ ليكملوا المسيرة، وبالنسبه للآخرين، حظًّا أفضل المرة القادمة.

بُهِتَت الوجوه وزاد الارتباك عندما رفعت خصلات شعرها المتهدلة ليظهر مكياج وجهها المحترق، والجلد الذي ضاعت ملامح نضارته بعد تدنيس الحريق له.

تخبَّط بعضنا ببعض، وأخيرًا نجحنا في الخروج من المكتب وقادتنا هي إلى المصعد.

***

2

كانت الشقة مُصممةً على أعلى طراز وانتشر المتنافسون بها استكشافًا للمكان. ووقفتُ أنا بالشرفة أستمتع بمنظر الغروب الخلّاب، وأشعة الشمس تُطفئ يومها على الحديقة الأمامية للمكان. أخرجتُ قداحتي وعلبة سجائري المتهالكة. جمال المنظر لن يكتمل إلا بسحابة من الدخان. فجأةً رنّ جرس إنذار الحريق. ارتبكتُ وقد فقدتُ توازني وأسقطتُ قداحتي وعلبة سجائري أمام مدخل المبنى. وما هي إلا لحظات حتى كانت السكرتيرة تتفحصنا بعين الاتهام وهي تقول بصوت حاسم.

– ممنوع التدخين.

وأشارت إلى ذلك القصير النحيف.

– أستاذ (هشام) ممنوع التدخين.

وأشارت إلى آخر أسمر البشرة، متوسط الطول، وأشيب الشعر.

- أستاذ (جعفر) ممنوع التدخين.

ابتسمتُ بداخلي، فهي لم تذكرني في قائمتها حين وجدها تلتفت نحوي وتغزوني بنظرات محذرة في صمت.

وفي أثناء انتظارها المصعد. أخبرتنا أن العشاء في الطريق إلينا.

كانت مائدة العشاء حافلة وقد عرَّف كل متسابِق باسمه وبلده ونبذة مختصرة عن حياته المهنية. وقد كان (معتز) أكبرَنا سِنًّا يمتلك روحًا فكاهية، بدَّدت كل توترنا.

هَتَفَ (تامر) بصوته الأجش وقد وقف على رأس المائدة بهيئته التي ذكَّرتني بالمصارعين.

- ما رأيكم أن نفتح الظروف وليعلن كل واحد عن محتوى موضوعه.

سرت همهمات خفيفة لكن صوت (جعفر) حسم الأمر.

حسنا. سوف أبدأ أنا.

فتح ظرفه وقال في حيرة.

- وحش المستنقعات.هناك ملحوظة أيضًا.

وأكمل قراءة الورقة.

- يبدأ العمل من وقت فتح الظروف حتى موعد المسابقة التمهيدية غدًا.

فغر البعض فمه في محاولةٍ لاستيعاب الكلمات. والبعض شحب وجهه وآخرون انتفضوا مغادرين المائدة.

صاح (معتز) بالجميع.

اهدؤوا. لا داعي للتوتر والارتباك. افتحوا ظروفكم لتعرفوا محتواها.

بدأ الجميع في فتح الظروف على عجلةٍ من أمرهم، وتوالت الصيحات.

قنديشية. كائن فضائي. السلعوة. المانيتور. النداهة. الزومبي. وحش فرانكشتاين

غادرنا المكان ونحن في حيرة من أمرنا، وقد تجهَّمت الوجوه وكان واضحًا أن بعضهم أعلن فشله حتى قبل أن يُحاول. صعدنا إلى الاستوديو، وما إن أضاء المكان حتى أصابنا الانبهار من التطور والإمكانات عالية الجودة، وقُسِّم المكان ليتسع لنا جميعًا وعلى كل منضدة كُتِبَ اسم أحد المتسابقين.

حاولتُ كبحَ لِجام حماسي، الآن يُمكنني الاستفادة من دراستي لتنفيذ مهمتي في تخيُّل وحش فرانكشتاين والمواد المستخدمة وكيفية استغلالها.

مع ساعات الصباح الأولى بدأ البعض منا يفقدُ تركيزه ووقفتُ أنتظر دوري بالقرب من ماكينة إعداد القهوة.

وكانت النظرة الأولى لبعض الأعمال تُوحي بالفشل الذريع. لكن (معتز) أثبتَ أن خبرته تستحقُّ الاحترام، وكذلك (تامر) الذي أبدعَ في تصميم الزومبي.

لا أدري، ولكني أحتاجُ إلى التنفيس عن توتري وتذكّرتُ سجائري والقداحة. تسللتُ مغادرًا المكان، ووقفتُ بمدخل المبنى أبحثُ عن مفقوداتي على ضوء كشاف هاتفي المحمول.عندما انتفضتُ فزعًا على صوتٍ حاد النبرة يسألني:

– هل تبحث عن هذه؟

أربكني وجه (مايكل) الذي شَقَّ ظلام الليل الحالك لتظهر ملامحه واضحة تحت عمود الإنارة وهو يمدُّ يده نحوي لأتناولَ منها قداحتي. وابتسم ساخرًا وهو يُلقي بشيءٍ ما أرضًا.

– لم يكن بها سوى سيجارة واحدة.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وقلتُ مدافعًا عن نفسي.

– أنا لم أدخن. أنا...

قاطعتني ضحكته الساخرة وقال متهكمًا:

– أعلم. لم أكن أعرف أن (نملة) لها تأثير مرعب لهذه الدرجة!

ازداد ارتباكي وحاولتُ تغيير الموضوع مُستفسرًا.

- مَن صاحب هذا المكياج المُتقَن؟ إن وجهها يكاد يكون حقيقيًّا فعلًا.

زمَّ شفته في ضيقٍ وهو يُجيبني:

- هو فعلًا حقيقي.

اتسعت عيناي ذُعرًا و هتفتُ مُستنكرًا:

- حقيقي.. هل هي..؟

قاطعني للمرة الثانية.

- نعم. ماسٌّ كهربائي وأقنعناها بالعمل معنا كنوع من الدعاية ولتحصل على الأموال اللازمة لعمليات التجميل.

نظر نحوي من تحت عويناته مُحذِّرًا.

- هذا سِرٌّ.

ثم سألني مُستفسرًا:

- ما موضوع مسابقتك؟

أجبته في حماسةٍ:

- وحش فرانكشتاين.

غمغم قائلًا:

- جيد. جيد.

وغادرني عائدًا إلى الداخل وقفتُ لحظةً أحاولُ استيعابَ الأمور. ولكن نظرة خاطفة إلى ساعة يدي التي تجاوزت الرابعة صباحًا كانت كافية لأعودَ إلى الاستوديو حيث هناك المزيد من العمل في انتظاري.

مع دقّات الخامسة رنّ جرس الانتهاء واقتحمت (نهلة) الاستوديو لتتيقّن من مغادرتنا المكان.

جلسنا نتناول طعام الغداء المعد لنا من أشهى المأكولات، وقد أرهقنا السهر، وكدتُ أغفو في مكاني من شِدة التعب. عندما أعلنَ المصعد عن وصول أحدهم إلى شقتنا لتخرج (نهلة) منه وهي تهتف بنا. أمامكم نصف ساعة لتستعدوا حيث لجنة التحكيم في انتظاركم بالدور الأول.

هتفَ (جعفر) مُستفسرًا:

- وتصاميمنا، هل...؟

أجابته مُقاطعةً:

- لقد نُقِلَتْ. سأعودُ بعد نصف ساعة لاصطحابكم.

***

3

كان استوديو التصوير الذي أُعِدَّ لمسابقة التحكيم مُنسقًا ومُنظمًا بشكل رائع. لكن الإضاءة كلها مُسلطة على لجنة التحكيم، وعلى المكان الذي تراصَّت فيه التصاميم. أما الجزء الخاص بالكاميرات فكان حالك الظلام ولا يمكنك تخمين وجود أحدهم هناك.

لم يَطُل الأمر كثيرًا. فقد وضعت اللجنة في الاعتبار إرهاقنا، وبعد لحظات من التفحُّص ظلوا يتشاورون بُرهةً. ثم أعلنت (ليان) بصوتها الرجولي الخَشِن:

– تامر ، معتز، رياض، جعفر.

وتنهدت لتزيد من توترنا قبل أن تُكمِل.

– أما باقي المتسابقين. أتمنى لكم التوفيق في المرة القادمة.

شعرنا بالارتياح وتبادلنا التهنئة عندما أشارت لنا (نهلة) وهي توضح.

- مسموح لكم بالمغادرة لجلب ما تحتاجون من منازلكم وتوديع عائلاتكم، وغدًا في تمام الثامنة يجب أن تُوقِّعوا على استمارة حضوركم.

سألتُها في حيرة:

- الأمور لن تزيد عن أسبوع.

أجابتني مُكملة:

- نعم هذا صحيح. لكن فور إعلان الفائز سيتم تصوير أحدث أفلام الرعب وأقواها. رعب أون لاين.

كانت الكلمة لها وقعها على اذني (رعب أون لاين).

ناداها أحدُهم، فغادرتنا على عجلة من أمرها.

هتفتُ ساخرًا وأنا أُحدِّث (جعفر):

- نودع عائلاتنا. أنا أعزب وكل عائلتي في الساحل.

ابتسم (جعفر) بسخريةٍ مريرة:

- وأنا أسرتي وعائلتي في الصعيد.

شعرتُ بتلك الوخزة في أسفل عنقي التي تُنبئُك أن هناك شيئًا خفيًّا ومخيفًا في هذه المصادفة.

وعندما سألته عن (تامر) أجابني هامسًا:

- إنه يعيش مع جدته الضريرة بعد وفاة كل أسرته في حادث طائرة منذ ستة أعوام.

هممتُ بإكمال تحقيقي لكن كنا وصلنا لمفترق الطريق، وقد استقلَّ (جعفر) أول سيارة أجرة مرَّت أمامنا.

تمشيتُ قليلًا حتى وصلتُ إلى الشارع الرئيسي، ووقفتُ أنتظر وسيلة مواصلات عامة.

ضوء القمر يتسرب إلى ذلك الظلام، فيُبدِّل عتمته إلى ضوء فضي باهت. أتنفَّسُ بصعوبة وقد تملَّكني التعب وصوت جدي يُناديني وسط الغابة (ريااااااااض).

أتلفتُ حولي مُستغيثًا. لكن يدًا عملاقة تمتدُّ لتنغرس في عظام كتفي وتُلقي بي أمام جدي بنظراته الحادة النارية. ليصرخ في وجهي بصوت مخيف.

سوف تُعاقَب على ما فعلت يا ولد

فتحتُ عيني ليُفزعني المزيد من الظلام، أسرعتُ أضيء كشاف هاتفي المحمول، وأبتلعُ ريقي بصعوبةٍ وأنا أُبسملُ وأحوقلُ وأستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم. تحاملتُ على نفسي، وأنرتُ ضوء الغرفة، وجلستُ أحدِّقُ إلى لا شيء، وأنا أرتعدُ من ذلك الكابوس.

في صباح اليوم التالي كانت تنتظرنا (نهلة) في مكتبها وقد أعدَّت لكل منا ظرفًا يحوي موضوع المسابقة النهائية.

تجمعنا بالاستوديو وعاد (معتز) يهتف في مرح:

- سوف أفتح أنا أولَ ظرفٍ بما أنيَ أكبركم سِنًّا.

ابتسمنا من حديثه وانتظرنا ما سيقولُ.

- الموضوع صُنع وحشٍ يُمثِّل الشَّرَّ الكامِن بداخلك.

رفع حاجبيه في دهشة وحيرة. أكملَ (جعفر) التتابُعَ في فتح الظروف.

- صُنعُ وحشٍ يُمثِّل الشَّرَّ الكامِن بداخلك.

قرأتُ أنا و(تامر) فحوى موضوعنا في صوت واحد.

- صُنعُ وحشٍ يُمثِّل الشَّرَّ الكامِن بداخلك.

تبادلنا نظرات الحيرة. ما هذا الاختبار الذي كان يختبر خيالنا قبل أن يختبر خبرتنا وموهبتنا؟ وجَّه (تامر) سؤاله إلى (معتز):.

- بما أنك أكبرنا عُمرًا وأكثرنا خبرة، هل يمكن أن تفيدنا بنصيحة ما؟ من أين نبدأ؟

رفع (معتز) كتفيه في حيرة وهو يجيبه.

- لا أدري. لكن من الممكن أن نبدأ بالرسم. لنرسم تخيلاتنا وبالتأكيد سوف نصل إلى نتيجة.

وَقَفَ كل منا في المكان المخصص له وبدأنا في إخراج شرور النفس على شكل رسم.

كانت فكرة الرسم ناجحة وعلى مدار أسبوع كامل استطعنا بناء هياكل لأربعة وحوش مختلفي الأنواع.

منهم الوحش صاحب السوط الناري، والوحش ذو الملمس السام، والوحش ذو الوجهين. أما أنا فقد تذكرت حادثًا لي في طفولتي، وكان الوحش الخاص بي عبارة عن جدي الذي تُوفِّيَ نتيجة جرعة زائدة في الدواء. لكني أضفتُ إليه المزيد من الغموض والرعب بعينيه البيضاوين ولحيته التي صممتها كالأفاعي وعكازه الذي ضاعت ملامحه بعد أن حوَّلته إلى طفل نحيف برأس أسد.

في يوم التحكيم وَقَفَ كلٌّ منا بجانب تصميمه وقد غادرَ أعضاء لجنة التحكيم مقاعدهم لأول مرة، وبدؤوا في سؤالنا عن اسم كل وحش وما صفاته وسبب اختيارنا لهذا الوحش خاصة ليُمثِّل الشَّرَّ الكامن بنا؟

لم أكن أُنصت لأني فقدتُ تركيزي وأنا أتأمَّلُ ما صنعتْ يداي، وبدأتُ أخشاهُ.

هتفَ أستاذ (طارق) مُستفسرًا:

- ما اسم وحشك يا (رياض)؟

أجبتُه بتلقائيةٍ:

- وحش الماضي.

وَقَفَ يُدقِّقُ النظر في منحوتتي. عندما سألني (مايكل) السؤال الذي كنتُ أخشاهُ:

- ما السِّرُّ لاختيارك هذا الوحش؟

ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ وأنا أقول مُوضِّحًا.

- الماضي لا يموت، ولكنه يفترس حياتنا وحاضرنا.

طلبت منا (ليان) مُغادرة المنصة والانتظار بغرفة الاستراحة المجاورة للاستوديو حتى تعلن اللجنة عن قرارها.

جلسنا نتقلب على جمر مُشتعل ونحن ننتظر إعلان النتيجة إلى أن جاءت (نهلة) لتطلب منا العودة مرة أخرى للاستوديو.

اتخذنا أماكنا لكن هذه المرة كان هناك شيء ما بمنحوتتي. شيء ما قد أُضيف له. دقَّقتُ النظر وقد تعجبتُ من هذا الرمز الذي وُشِمَت جبهةُ وحشي به.

نظرتُ إلى التصاميم الأخرى. وبالفعل الرمز وُشِمَ على جبهةِ كل وحش. حانَتْ مني التفاتة إلى لجنة التحكيم وقد كانت (ليان) تتحدث لكني لم أُصغِ لما تقول، وهنا حاصرتني عينا (مايكل) لتلمع عدسات عويناته بشكل مرعب.

ارتعدت فرائصي وقبل أن أتمالك نفسي وجدت الزملاء يلتفون حولي مهنئين. فقد تحقّق الحلم وأصبحتُ الفائز.

وقفتُ بالشرفة أداعب قداحتي وقد شَرَدَ ذهني أمام كل هذا الغموض. قاطعني صوت (معتز) قائلًا:

- كنتُ أتوقّع أن تُنسيك سعادة الفوز أي هموم.

أجبتُه موضحًا.

- هناك شيء غير مريح بهذه المسابقة.

ابتسم وقال متهكمًا:

- عندما تنال الشهرة ستصبحُ أحد هؤلاء غير المريحين على الإطلاق.

كان واضحًا أن أحدًا لن يفهمني لهذا ابتسمت مُتقبِّلًا مزحته واتجهتُ إلى الداخل حتى أنعم بصحبة الزملاء قبل أن يغادروا غدًا صباحًا وبعدها أتّجه أنا إلى أعماق الصحراء للبدء في تصوير أحدث أفلام الرعب.

في الصباح استيقظتُ فزعًا على صوت طرقات الباب والتي تلاها صوت(نهلة).

- أستاذ (رياض) كن مُستعدًّا خلال نصف ساعة.

وسمعتُ خطواتها تبتعد. انتفضتُ من مكاني بعد أن رأيتُ المنبه وقد تجاوز العاشرة بعشر دقائق. كنتُ أتحرَّك بسرعة الفيمتوثانية حتى نجحتُ أخيرًا في الانتهاء من حزم أمتعتي وترتيب مظهري المزري وغادرتُ الغرفة مُسرعًا عندما تعالت أصوات أبواق السيارات.

كان هناك مقطورة ذات صندوق عملاق مغلق. خمَّنتُ أن بها المنحوتات.

وعندما صعدتُ إلى الأتوبيس المُخصص لنقل العاملين. عرفتُ أن حظي عاثر، ولن يتغيَّر، فقد كان المكان الوحيد الشاغر بجانب (نهلة).

***

4

كانت المرة الأولى التي أكون فيها في موقع تصوير سينمائي، وقد كان أفراد لجنة التحكيم في انتظارنا، وقد أسعدهم وصولنا في الموعد المحدد.

وقف دكتور (أمجد) يشرح لطاقم العمل تصوره السينمائي للفيلم وأنه يريد أن تعمل كل الكاميرات في وقت واحد وأن ينصبَّ كل تركيزهم على الضحايا، وأن يتابعوا أوامره أولًا بأول.

– فهذا الفيلم صورة حية للرعب بكل ما تحوي الكلمة من معنى ولا سبيل للخطأ إلا جعلكم طعامًا للوحوش.

اقشعرَّ بدني من مزحته السمجة برغم تعالي صيحات المرح من حولي.

كان المشهد الأول يتمثل في مجموعة من الأفراد يقضون إجازتهم بداخل أحد أكواخ المنتجعات الصحية.

وبدأت الكاميرا تقترب من النافذة وهنا ظهرت على الشاشة أمام المخرج صورة واضحة لزملائي المتسابقين السبعة الذين لم يحالفهم الحظ.

أصابتني الدهشة وهمست إلى (هلة) سائلًا:

– ما هذا؟ متى تعاقدتم معهم للتمثيل؟ ثم إنهم لم يكونوا معنا في أتوبيس الرحلة؟

أجابتني موضحة.

– أستاذ (طارق) هو من عرض عليهم فرصة التمثيل وقد وافقوا. ووصلوا إلى هنا قبلنا.

ازداد توتري فجأة، وقد بدأت الشمس في المغيب عندما صَمَّ آذاننا أول صرخة رعب في هذا الفيلم من حنجرة (هشام). حيث انقضَّ عليه الكائن الفضائي الذي صمَّمه ليفتك بعنقه وتخرج نافورة الدماء لتغرق المكان، وقد تدلى رأس (هشام) بشكل يؤكِّد أن لا دخل للخدع السينمائية بهذا المشهد. لم يتوقف الكائن الفضائي عند هذا الحد، بل أكمل تمزيق الجثة الهامدة دون التفات لكل هذا الصراخ والذعر الذي عَمَّ المكان ومع تعالي الصراخ اقتحمت

الوحوش المكان، وبدأ الذعر يتسرب إلى نفوس رجال التصوير ومنهم من ألقى معداته على الأرض مُحاوِلًا الفرار من هذا الجحيم.

ابتسم (مايكل) ونزع نظارته ليتأمل المشهد بعين لامعة مشقوقة مثل الأفعى. وتناول إحدى كاميرات التصوير التي أسقطها أحدهم وكذلك فعل (طارق) و(أمجد). واكتفتْ (ليان) بالمشاهدة وهي تُتابِع بكل تركيز تلك المذبحة. وتُشير إلى (نهلة) تأمرها بشيء ما وتطيعها الأخيرة وهي تُمزِّق وجهها لتساقط الجلد المحترق ويظهر جلد أفعى.

وكأنما بدأ موسم القنص. فكل متسابق كان يحاول الفرار من الوحش الذي صنعته يداه.

وكنتُ أنا أهرب من الشَّرِّ الكامن بداخلي.

جدي الذي بجهل طفولتي لعبت في جرعات دوائه وقمتُ بخلطها جميعًا مما تسبب في وفاته. ومن وقتها وهو يصرخ بداخلي متوعدًا.

أرى عصاه ذات رأس الأسد تقترب مني وعينيه شديدتي البياض تلمعان في عتمة الليل. أرى كل هذا وصوت فحيح الأفاعي يفقدني شجاعتي ويجعلني أفرُّ إلى الصحراء.

صوت جدي المتحشرج العائد من الموت.

(ريااااااااااض).

انهالت صفعاتٌ خفيفة ورائحة دخان نفّاذة تزكم الأنف مختلطة برائحةٍ عطرية أخرى. وصوت (ليان) الحائر.

– لا أدري ما الذي أصابه؟ ما إن بدأنا التصوير حتى ظَلّ يصرخ ويهذي، ثم سقط فاقد الوعي أمام وحش الماضي الذي فاز به في المسابقة.

ريماس صالح

القرينة

تَدورُ أحداثُ القصة بمنزل قديم الطراز تملكه الحاجة (إحسان) يتجاوز عمر الحاجة سبعين عامًا، وتُشتَهر بعلمها في أمور الدين ومداواة المسحورين والوقاية من القرين ومحاربة أصحاب السحر الأسود اللعين بعلاج ضحاياه دون مقابلٍ، وتنبعث من منزلها رائحة المسك والعود والبخور، وعلى الرغم من سمنتها المفرطة ومرضها الشديد لدرجة أنها تجد صعوبة في السير داخل المنزل فتستند إلى جدران طرقتها الطويلة المؤدية من غرفتها لبهو المنزل حيث مجلسها، فإنها تقضي ما تبقّى من عمرها في محاربة السحر والاهتمام بشؤون حفيدها (علاء) الذي يُقيم معها بعد أن سافر والده (المهندس هلال) إلى الكويت للعمل بإحدى شركات البترول.

***

يُعرف عن هذا الحفيد استهتاره بالحياة وتأخُّر بالدراسة، وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره فإنه شابٌّ حاقد يستهويه إذلال الآخرين، يدمن الخمور، ويتعاطى المخدرات، فهو بالفعل شخصية مريضة، ينامُ طيلة النهار، وينطلقُ ليلًا لقضاء سهراته الحمراء مع رفقاء السوء.

***

وذات يوم بعد ملأت رائحةُ البخور المنزل كالعادة عند قيام الحاجة بجلسة علاج لإحدى الحالات، وهي فتاة لا تتجاوز العشرين من عمرها، وبدأت تصرخُ بصوتٍ مرتفع، عند سماعها آيات القرآن..

استيقظَ علاء من نومه على صوت صراخ الفتاة ودَفَعَه فُضوله لرؤية ما يحدث بالخارج، فهمَّ مُسرعًا ليرى ما يحدث، ومع علو صُراخ الفتاة بدأ قلبه يرتعد خوفًا، إلى أن اقتربَ إلى باب الغرفة، وبدأ النظر من خلال نافذة صغيرة وهنا كانت المفاجأة.

***

كلما قرأت الحاجة آية الكرسي تزداد الفتاةُ في صُراخها، وبدأت في التشنجاتِ إلى أن تفاجأ بصوت الفتاة يتحوَّل لصوت رجل يُهمهِمُ ببعض الكلمات غير المفهومة، بدأ علاء يتصبب عرقًا وتزداد نبضات قلبه ويرتعش جسدُه خوفًا من هولِ ما يراه، ومع مُتابعةِ الحاجة لقراءةِ

القرآن بدأت الفتاةُ بالقفز من مكانها لترتطم بسقف الغرفة عدة مرات، ثم ازداد الصُّراخُ هذه المرة، ولكن بصوت الرجل الذي يتحدَّث عن لسان الفتاة، ومع متابعة قراءةِ القرآن، بدأت عينا الفتاة تتحولانِ إلى اللون الأحمر، وبدأ شعرها يُسحب لأعلى، وكأن هناك مغناطيسًا يجذِبُه إلى سقف الغرفة.

(علاء) مُحدِّثًا نفسه:

يا نهار أسود إيه الي بيحصل ده؟

ثم فَرَّ علاء مُسرعًا من هول ما يسمعه، وما رأته عيناه إلى غرفته، وفي أثناء سيره خلال طرقة المنزل حدثت المفاجأة.

***

تسمَّرت قدما علاء في مكانهما، ورفع حاجبيه وجحظت عيناه من هول ما يرى، إذ تفاجأ بالحاجة تخرج من غرفتها دون أن تستند إلى الجدران كعادتها، ولا يبدو عليها المرض، بل تسيرُ مُسرعةً وتمرُّ إلى جواره؛ مما زاد قشعريرة جسده على الرغم من أنه يسمع صوتها بالخارج.

إذن مَن هذه السيدة؟

استجمع (علاء) قواه بعد أن التقط أنفاسه مِن هَوْلِ ما رأى، ثم أسرع للدخول إلى غرفته وصعد إلى سريره، وخبَّأ نفسه أسفل الغطاء

مرتعشًا جسده، وازدادت ضربات قلبه لدرجة أن قلبه أوشك على الخروج من صدره من هول ما رأى.

تزداد الصَّرخات بالخارج مرةً بصوت الفتاة، وأخرى لرجلٍ غليظ الصوت، إلى أن يعلو صوت الحاجة بالقرآن فتتغلبُ كعادهًا على هذه الروح الشريرة، وتعودُ الفتاةُ لطبيعتها وتفيق مما كانت عليه، وتغمرُ الفرحةُ قلب والديها، وينصرفون وهم يتمنون للحاجة الصحة والشفاء لما قامت به معهم في علاج ابنتهم وفَكِّ سحرها.

فتوجَّهت الحاجة إلى غرفتها ثم نادت (علاء):

– يا علاء... أنت فين يا ابني؟

(علاء): ما زال منكمشًا في سريره ويرد بخوف:

– أي– أي–... أيوه يا تيته.

الحاجة:

– تعالى أنا عايزاك، أنا عارفة إنك خايف، تعالى يا بني اطمن.

يحضر علاء لغرفة جدته مُتلفِّتًا يمينًا ويسارًا، ثم يُساعِدُ جدته على الصعود إلى سريرها.

علاء:

– أنا هموت من الرعب يا تيته.

الحاجة:

- طمّن قلبك يا ابني، أنا عارفة اللي حصل ومش عايزاك تخاف، وأدام عينك شافت يبقى ده أوان العهد.

علاء مُتعجِّبًا:

- عهد؟ عهد إيه؟

الحاجة:

أنا هفهمك كل حاجة.

علاء:

- أنا اللي عايز أفهمه وأعرفه إزاي انتِ كنتي بره، وانا شايفك بعيني معدية أدامي؟ أنا هتجنن!

الحاجة مبتسمة:

- مش قولتلك ماتخفش يا ابني اللي أنت شوفتها ده قرينتي، وهي من الصالحين، وتعيني في الخير، إياك تخاف منها، عمرها ما هتأذيك، فمتقلقش لأنك هتشوفها بعد كده كتير.

علاء في استغراب:

- هشوفها.. هشوفها كتير. هو انا ناقص يا تيته.

الحاجة:

- اطمن والعهد يا ابني الي هورثهولك هيمكنك من حاجات محدش غيرك يعرف يعملها أو يصدقها أو حتى يتخيلها.

ثم تنهمر الحاجة في نوبة سُعال قوية.

علاء يقدم لها بخاخة توسيع الشُّعب الهوائية:

- اتفضلي يا تيتة.

الحاجة تستخدم البخاخة ثم تتنهَّد وتُكمِلُ حديثها:

- العهد يا ابني هيفتحلك أبواب الخير، وهيكشفلك المستور، ويجعل الجن المؤذي من أدام عينك يغور، وبعدما تحفظه ربنا هيحفظك وعمر الخوف ما يدخل قلبك تاني.

علاء:

بس يا تيته أنا ماليش في الحاجات دي.

الحاجة تجذب علاء من ياقته نحوها قائلة:

- قرب ودنك مني يا ابني وقول ورايا في سرك، أنا خلاص مشواري في الدنيا قرب ينتهي، ومفيش وقت.

ثم تُكمل:

- يا رب يا شكور يا كاشف المستور اجعل حفيدي علاء حافظ حروف النور.

ثم تتنهَّد تنهيدة طويلة وتُتابِعُ:

- حافظ على العهد وأوعى تنقضه واسعى في الخير، وساعد الغير، وإياك لشهوة في يوم تكون وراها أسير، وابعد عن الكتاب أبو جلدة حمرا؛ لأنه كتاب سحر اسود والعياذوا بالله.

علاء:

- ياه يا تيته! ما أنت يامه حذرتيني منه، وبعدين ما أنتِ عارفة أنا مبحبش القراية أصلًا.

الحاجة:

- أنا بحذّرك يا ابني، أنا محتفظة بالكتاب ده عشان أحمي الناس من شره، وكنت عايزة ساعتها أعرف طريقة استخدامه وإزاي السحرة بيستخدموه في الأذى عشان أقدر أتغلب عليهم وأعالج الناس، أوعى تخون العهد أو تقرب من الكتاب لتصيبك اللعنة، وبعد موتي لازم تتخلص منه وتحرقه.

***

علاء يترك جدته لتخلُد للنوم، وسارعَ بالخروج لأصدقائه لينسى ما حدث له خلال هذا اليوم العجيب، وكعادته لم يُبدِ بداخله أيَّ اهتمامٍ لما حدَّثته به جدتُه، ولم يشغل باله سوى الكتاب (أبو جلدة حمرا) وظَّلّ يسأل نفسه:

يا ترى الكتاب ده مكتوب في إيه؟

وإيه هو السحر الأسود ده؟

***

وبعد قضاء سهرته عاد علاء من الخارج مخمورًا، وخَلَدَ للنوم، ونظرًا لاستهتاره بالعهد، بدأت الكوابيس تُطارِدُه، وبدأت أشياء غريبة تحدث له، وفي بداية نومه وجد علاء الغطاء يُسحب من فوقه أكثر من مره فيقوم ليرى ما يحدث، لكن لا يرى شيئًا، ثم يستكمل نومَه ليتكرَّر الأمر نفسه مرة أخرى مع استدارة السرير مرةً جهة اليمين وأخرى جهة اليسار، يحاول علاء إقناع نفسه أن ما يحدث له نتيجة كمية الخمور التي احتساها.

علاء مُحدِّثًا نفسه:

فوق يا عم، أنا عامل دماغ جامدة مش أكتر ده أوهام. ويتفاجأ علاء في أثناء ذلك بصورة جَدِّه وهو يُحرِّك عينيه في جميع الاتجاهات، يقوم علاء بفركِ عينيه ليتيقن مما يرى ليجد الصورة تتحوَّل إلى صورة شبح مخيف، ثم يقوم علاء بتغطية وجهه، وراح في النوم مُرتعبًا.

وبدأ الكابوس ليرى سيدةً جميلةً تقترب منه وتبتسم له ابتسامات تدلُّ على إعجابها به، ثم تقترب منه، وعندما يهمُّ ليحضنها يتفاجأ بأن وجهها يتحوَّل إلى وجه كلبٍ أسود ذي أذن طويلة، وعيناه حمراوان، ثم يَفْزَعُ علاء من نومه صارخًا:

لأ. لأ.

يقوم علاء مُسرعًا لاستبدال ملابسه والخروج من البيت.

وبدأت الكوابيس تُطارِدُه.

***

وبعد مرور عدة أيام انتقلت روح الحاجة إلى بارئها، وعاش علاء بمفرده، بعد أن أرسل عدة تلغرافات لوالده ليخبره بالأمر دون ردٍّ..

***

وبدأ علاء يرى قرينة الحاجة أكثر من مرة، وكأنها تُراقِبُه وتطمئنُّ عليه، وعندما يحاول الاقتراب منها ليتحدث معها سرعان ما تختفي؛ ولأنها قرينة طاهرة فتهرب دائمًا من أمام عينيه نظرًا لسوء سلوكه وابتعاده عن ربه.

***

وذات يوم عاد علاء للبيت، وبعد أن استرخى واستراح لبعض الوقت، نظر فوجد أمامه الكتاب (أبو جلده حمرا) ودَفَعَه الفضول للاطلاع عليه، ومعرفة ما يحتويه، فالممنوع مرغوب.

وعندما هَمَّ علاء بفتح الكتاب، انقطعت الكهرباء، ثم عادت وفي أثناء ذلك سَمِعَ صوتًا عاليًا لعواء الكلاب.

وبدأ يشعر بقشعريرة قوية بجسده، وبدأ يتصفح الكتاب ليجده مُكوَّنًا من عدة أبواب..

باب التخفي، باب الأذى، باب الفرقة، باب تحضير الجنيات بأجمل الأشكال والصور لأجمل السيدات... إلخ.

ويوجد عدةُ طقوس وشروط: يجب أن تُتَّبع أولها: الاستحمام داخل دورة المياه باللَّبن، ثم حَرْقُ المصحف واستخدام الرَّماد في كتابة بعض الرموز والطلاسم، وطبيعي لشاب مُتهوِّر غير متدين أن يشاور عقله للتجربة، ويردد ما يُحدِّثه به شيطانُه..

***

(علاء) مُحدِّثًا نفسه: الكتاب ده شكله اختراع، وبعدين باب تحضير الستات ده جامد قوي، وإيه يعني ما أنا عايش لوحدي ما احضر ست حلوة تقضي معايا السهرة.

ثم يردد همس شيطانه قائلًا:

- هي جت على حرق المصحف أو إني أستحمى باللبن.. أنا هجرب مرةِ وبعدين أستغفر.

***

وبمجرد أن أقدمَ على تنفيذ الطقوس، اختفت الحاجة القرينة من المترل، وزالت البركة عن بيت الكرم والفضل.

وبدأ علاء رحلته مع السحر الأسود ولكن حدثت المفاجأة غير المُتوقَّعة بعد ما أنهى (علاء) الطقوس التي منها أن يكتبَ على جسده برماد حرق المصحف بعض الأحرف لعدد من الطلاسم، ولسوء حظِّه وجهله كانت الأحرف التي كتبَها على جسده تحمل اسم ابنة ملك ملوك الجان الأحمر (ميمونة) ابنة الملك (برقان) وهي أعتى الجنيات مكرًا وأشرسهم شرًّا، وعند تحضيرها لا تترك من حضَّرها إلا بموته.

***

بدأ علاء يُهمهِمُ ببعض الكلمات ونداءات لأسماء بعض ملوك الجان، ثم انتابت جسده قشعريرة رهيبة، وبدأت الأضواء تنخفض من حوله، واهتزت الأرض من تحت قدميه، ثم بدأت (ميمونة) في الظهور متمثلة في صورة سيدة فائقة الجمال، ممشوقة القوام، تفتن مَن يراها بقوة جمالها ونعومة بشرتها وحُمرة خديها، فهي أشبهُ بالملاك.

ميمونة مبتسمة له:

- حبيبي كنت مستنياك بقالي كتير.

علاء يبتلع ريقه، وينظر إليها في دهشةٍ:

- أنا مش مصدق عنيه.

ميمونة:

- لأ صدّق، أنا ملكك من النهاردة، وأنت ملكي ومش هتحتاج تحضرني تاني، وكل يوم هاتشوفني بشكل،وهحقّقلك كل اللي بتتمناه.

علاء منبهرًا:

- إنت فعلًا تقدري تحققي لي أي شيء؟

ميمونة:

- اطلب وأنا أنفذ.

علاء:

- طب قربي مني.

***

ويبدأ علاء مضاجتها وكادت متعة احتضانها تُنسيه من رآهم من سيدات من قبل من شدة اختلافها وتربعها بأنوثتها علي عرش المتعة وتحقيقها لنشوة لم يشعر بها من قبل، وبدأت (ميمونة) في إعانته علي الشرّ واستهوى علاء ما يفعله، وبدأ في استغلال محبي جدته ومريديها

بحجة أنه وَرِثَ عنها العهد، فيقوم عن طريق (ميمونة) بالاتفاق مع الجن الذي يسيطر على الحالة التي تطلب منه العلاج، وفي حال أعجبته إحدى السيدات من الحالات المعروضة عليه يتفق مع الجن المسيطر ليأتي بهذه السيدة له ليلًا ليمارس معها الجنس، وفي حال ثراء أحد ضحاياه يتفق بنفس الطريقة مع الجَن المسيطر على الشخص فيجعله يجلب له جميع ما يملك طواعية، واستمرَّ علاء في لعبته التي احترفها.

إلى أن يأتي يوم ويعود فيه المهندس (هلال) من سفره ويستقبله علاء بمنتهى الجفاء، ويُلملم أغراضه وزجاجات الويسكي المُنتشرة في أرجاء المكان.

هلال:

– وحشتني يا علاء، وحشتني قوي يا حبيبي.

علاء:

– شكرًا يا بابا وانت كمان كنت فين كل ده؟ بعتلك من ست شهور عشان أعرفك إن تيته ماتت.

هلال:

- أنا يا ابني كنت عامل حادثة كبيرة جدًّا وربنا نجاني منها بأعجوبة، وبعد ما عملت آخر عمليه جراحية نويت العودة لمصر والاستقرار فيها ونتجمع أنا وانت مع بعض.

علاء يرد بضيقٍ:

- نقعد مع بعض؟ أه طبعًا، تنور.

هلال:

- إيه يا ابني أزايز الويسكي دي؟ انت بقيت بتشرب خمرا يا علاء؟

(علاء):

ده كانت حفلة كنت عاملها في البيت هنا لخطوبة واحد صاحبي، كنت من الآخر مأجر المكان.

هلال يستشعر كذب علاء، ويلمح هلال بطرف عينيه الكتاب (ابو جلدة حمراء) ضمن أغراض علاء، وبدأ الشَّكُّ يساور (هلال):

لماذا يحتفظ (علاء) بهذا الكتاب؟ لأنه على عِلمٍ مُسبقٍ بما يحتويه هذا الكتاب من شرّ، ومن المفترض أن يُحرق (ودي كانت وصية أمي الله يرحمها).

علاء:

- حمد الله على السلامة، ادخل بقى استريح شوية، وانا هاروح مشوار.

هلال يدخل الي غرفه نوم والدته، ولا يستطيع أن يسيطر على نفسه من البكاء قائلا:

- الله يرحمك يا أمي.

ثم انهمر في بكاء شديد لفراق والدته التي لم يُودِّعها، والحالة التي وصل إليها ابنه الوحيد علاء، ثم استعاذ من الشيطان وقام للوضوء والصلاة، وبعد أن فرغَ من صلاته التفتَ إلى يمينه ليجد قرينة الحاجة أمامه، فَزِعَ هلال وانتفض في مكانه وردّد:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

القرينة:

- أرجوك ماتخفش، أنا قرينة الحاجة الله يرحمها، وأنا مؤمنة وموحدة بالله، ولاأعين الإنسان الصالح إلا على الخير والعلاج.

هلال يبتلع ريقه قائلًا:

- طب إنت عايزه مني إيه؟

القرينة:

– أنا مكنتش عارفة أظهر تاني لولا قيامك بالصلاة هنا وذكر الله ماكنتش هعرف أظهر وده لأن ابنك (علاء) خان العهد ويعاشر أخطر جنيّات العالم السفلي (ميمونة بنت برقان) ملك ملوك الجن الأحمر، والشك الي في قلبك، صحيح علاء بيستعين بالسحر الأسود.

هلال:

– أعوذ بالله من غضب الله، وازاي ده حصل؟!

القرينة:

– والدتك قبل ما تموت ونظرًا لغيابك ملاقتش قدمها إلا علاء عشان تورثه العهد، إلا إنه خان العهد بالعبث في (الكتاب أبو جلدة حمرا) وبالتالي أصاب المنزل اللعنة بعد أن كان بيت الخير والصلاح.

تأثّر هلال بحديثها وظهرت عليه ملامح الغضب.

هلال قائلًا:

– طيب وإيه العمل دلوقتي؟

القرينة:

– أولًا لازم تحفظ مني العهد.

هلال:

– أنا مستعد أعمل أي حاجة عشان أنقذ ابني من الي هو فيه.

القرينة:

– قرّب مني وقول ورايا العهد.

وبعد أن انتهى هلال من ترديد العهد وراء القرينة سألها.

هلال:

– وإيه هو ثانيًا؟

القرينة:

– دلوقتي لازم تبعد عن البيت لفترة عشان تتفادى أذية ميمونة لأن حفظك للعهد دلوقتي أضعف من قوتها شوية، ودي جنية كافرة مؤذية، أما الباقي فسيبه عليه أنا هجعلك كل كتب الحاجة والأوراق والتحصينات التي تقي من يقرأها من شر الجن الكافر وتعينه عليه وربنا يقوينا لإخراج ابنك من طريق الضلال والمعصية، ولازم أعرّفك على الشيخ طارق، وده من تلاميذ والدتك وهيساعدنا كتير، وده هتلاقيه في المسجد الي بعد البيت.

يأتي علاء من الخارج مُناديًا:

– يا بابا إنت فين؟

القرينة تختفي من أمام هلال عندما اقترب علاء.

هلال:

- أنا هنا يا علاء في غرفة جدتك.

علاء يشعر بالاختناق عندما وَجَدَ والده يجلس على سجادة الصلاة ويزيد اختناقه عندما يجد آية الكرسي أمام عيناه على الحائط فيخرج مُسرعًا من الغرفة.

هلال:

- رايح فين يا علاء؟ إنت كنت عايز حاجة.

علاء مُتحدثًا بخبث من خلف الباب:

- لا يا بابا بس أنا حابب أعملك حجاب يحفظك من الشر، ابنك بقى علاّمة كبير بعد ما ورثت العهد عن تيته.

هلال مُبتسمًا من داخله:

- الحافظ ربنا يا ابني، على العموم أنا هسافر كام يوم بلد جدتك عشان أسلم على قرايبنا هناك بقالي كام سنة ماشفتهمش تحب تيجي معايا.

علاء:

- لا يا بابا روح انت بالسلامة عشان أنا مشغول شويةو وعندي حالات كتير بعالجها.

هلال:

- ربنا يقويك يا ابني.

***

ثم يتوجّه هلال إلى خارج المترل متوجهًا إلى المسجد لمقابلة الشيخ طارق، يدخل هلال المسجد، وبعد إتمام صلاة الظهر سأل عن الشيخ طارق فأجابه أحد الأشخاص:

- الشيخ طارق هو الإمام الي صلّى بينا.

هلال:

- السلام عليكم ورحمة الله.

الشيخ طارق:

- عليكم السلام ورحمة الله يا باشمهندس هلال.

هلال متعجبًا:

- انت تعرفني؟

الشيخ طارق:

- القلوب من تقابل منها ائتلف ومن تأخر منها اختلف. أنا وصلتني كل المعلومات.

هلال:

– طب وإيه العمل ابني كل يوم من سيئ لأسوأ، وأنا نفسي أبعده عن طريق الضلال.

الشيخ طارق:

– لازم في البداية تتعلم بنفسك أصول هذا العلم، وما دام أخذت العهد من الحاجة رحمة الله عليها ده هيعينك كتير في الي انت مُقدِم عليه.

هلال:

– والبركة فيك طبعًا يا شيخنا.

الشيخ طارق:

– للأسف أنا هساعدك من بعيد لأنه شرط عشان تشيل اللعنة من بيتك وتتغلب على سحر (علاء) لازم الي يقوم بكده حد من دمه.

هلال:

– الله المستعان.

***

وتبدأ رحلة هلال في تعلُّم أصول عِلم الأرواح ومعرفة خفاياها وأسرارها، واستمرَّ بالتردُّد إلى الشيخ طارق ومقابلته بعد أن مكثَ بفندق قريب من منزله، وتعدَّدت الجلسات، ومرَّت الأيام، وأصبح هلال متمكنًا في علم الأرواح إلى أن أتى اليوم المشهود.

استقبل الشيخ طارق المهندس (هلال) في منزله يجد القرينة بصحبة الشيخ طارق في استقباله، وبدأت جلسة التحضير.

الشيخ طارق أشعلَ بعض البخور، ثم توضَّأ هو وهلال وبدأت الجلسة.

بدأ هلال بقراءة القرآن، وبعض التحصينات التي تحتوي على عدد من الرموز والأرقام التي تحمل في دلالتها اسم الله الأعظم، ثم بدأ هلال في كتابة تلك الرموز والأرقام، وبدأ هو والشيخ طارق في قراءة الآيات المُنجيات من السِّحر، وتوجَّهت القرينة إلى منزل علاء لمتابعته، وبدأ الشيخ طارق وهلال في القراءة:

بسم الله الرحمن الرحيم (وأوحينا إلى موسي أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وأُلقيَ السحرة ساجدين قالوا آمنا برب موسي وهارون)

وبمجرد أن بدأت التلاوة بدأ علاء بالصراخ في المترل مع صراخ (ميمونة) تردّد بأذنه:

– اقتل أبوك الكافر ده بسرعة.

هلال يستمر في قراءه القرآنو ويزداد صراخ علاء عندما يُردِّد الأب:

(ولا يفلح الساحر حيث أتى).

وتبدأ الغرفه بالاهتزاز من حول هلال، وتتطاير المقاعد أمام عينيه، وتتجمع على الحائط بقع دماء وكأها تسيل كالدموع فوق الحائط.

يردّد هلال:

(فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقًّا)

ثم تبدأ ميمونة الملعونة في الظهور هيئتها وشكلها القبيح حيث يتوسط وجهها غير منتظم الشكل عين واحدة بيضاوية، يخرجُ منها شَرَرٌ أحمر اللون، رائحتها كريهة، ولها قرنان صغيران، وشعر كثيف يتطاير ناحية السقف، وتعلو قدماها الرفيعتان الأرض وكأها تطير، وتصرخ في هلال صرخةً مُخيفة عالية تؤدي إلي كسر جميع زجاج النوافذ.

ميمونة ضاحكة بسخرية:

– ههههههه اياك تفتكر انك هتقدر تتحداني.. أنا هسخطك قرد.

هلال:

(قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين)

علاء يزداد صراخه ويضع يديه على أذنيه ويستمر في الصراخ.

القرينة تجلب الكتاب (أبو جلدة حمرا) وتتوجه به إلى مترل الشيخ طارق.

الشيخ طارق يردّد بصحبة هلال بصوت عالٍ ومرتفع:

(ولا يفلح الساحر حيث أتى).

ميمونة يزداد قُبحُها وتهتز الأرض أسفل قدمي هلال اهتزازًا قويًا وغريبًا، وتضيق الغرفةُ وتتسعُ وتنخفضُ الأضواءُ، وتظهر أصواتٌ كثيرة ومتداخلة لأصوات صهيل خيول وأصوات سيوفٍ وصرخات قوية.

هلال يستكمل هو والشيخ طارق في صوت واحد:

(ألقِ ما بيمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى).

ميمونة:

– عايز تحرقني أنا هحرق قلبك على ابنك.

هلال يردّد :

(فوقع الحق وبطل ما كانوا يعلمون).

القرينة تذهب مسرعة لمتابعه علاء، وتجد علاء في حالة تنشج غريبه ويزداد صُراخه.

ميمونة تطلق صوتًا كالصافرة يكاد يثقب طبلة أذن الشيخ طارق وهلال مرددة:

– أنا هحرق قلبك عليه.

(هلال) (والشيخ طارق) (والقرينة) يرددون في صوت واحدٍ (وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين)، ثم تحترق ميمونة أخيرًا بإذن الله، ويسقط علاء مغشيًّا عليه بالمترل، يتوجَّه (هلال مسرعًا) هو والشيخ طارق إلى مترله ليطمئنَّ على علاء ليجده ما زال مغشيًّا عليه ليفيق وهو في أحضان والده.

ويطمئن علاء:

– خلاص يا ابني كل شيء انتهى، عرفت قيمة الوصية وجزاء خيانة العهد، وشوفت بعدك عن الصلاة وعن ربنا عمل فيك إيه؟ على العموم حمد لله على السلامة.

علاء مُردِّدًا لوالده وهو منكسر:

– درس صعب قوي، والحمد الله إني فوقت من الي أنا كنت فيه.

الشيخ طارق:

- الحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

ويقوم برش الماء بالملح والمقروء عليه بعض آيات القرآن ويُبعثره في أركان المترل مرددًا:

(يا حفيظ يا عزيز، احفظنا من تلبيس إبليس).

ويقوم هلال والشيخ طارق بحرق الكتاب (أبو جلدة حمرا) فينعث الدخان بأرجاء المكان، وتصدر صرخات غريبة من داخله في أثناء حرقه.

يشكر هلال الشيخ طارق وهو يهمُّ للانصراف على ما فعله معه من مساعدته في حرق ميمونة الملعونة وتمرُّ الأيام وتختفي اللعنة من المترل، ويقوم هلال بالتجهُّز للسفر لتسوية باقي أعماله والعودة للاستقرار مع ابنه الوحيد

هلال:

- أخبار البطل إيه النهارده؟

علاء:

- الحمد لله يا بابا أنا كويس.

هلال:

– ها ابتدينا نصلّي ولا لأ؟

علاء:

– أنا بحاول يا بابا.. موضوع تبطيل المخدرات ده فعلًا مأثر عليا.

هلال:

– دي فترة وهتعدّي يا ابني.. تحب تسافر معايا تغير جو؟

علاء:

– لا يا بابا سافر انت واطمّن عليّا أنا هبقى كويس.

***

وبعد سفر هلال بعدة أيام تأتي لعلاء أجمل ضحاياه تعرض نفسها، وسرعان ما لَعِبَ الشيطان مرة أخرى برأس علاء ليُدخِلَها المنزل، وبعد أن جرَّدته من ملابسه سرعان ما تحوَّلت إلى مسخ دميم لا يتخيل أحد قُبح ما تحوَّلت إليه، وأخرجت سكينًا.

علاء مفزوعًا منها قائلًا:

– إنتِ مين؟

السيدة (ضحكت ضحكة مرعبة:

– ههههه.. أنا مش الي نمت معاها قبل كده أنا (نايلة بنت زحالف) مُرسلة من الملك (برقان) ملك ملوك الجن الأحمر لأنتقم منك لما فعلته بميمونة.

ثم تطعنه عدة طعنات، وفجأة يعود هلال من سفره إلى المنزل مسرعًا إلى غرفة علاء بعدما أخبرته القرينة بما حدث لابنه.

هلال يستر ابنه مُحاوِلًا إيقاف النزيف مُردِّدًا:

- علاء ابني حبيبي اتشاهد يا ابني.

علاء:

- أشهدُ أن..

ثم يصمت.

(هلال) مُنفعلًا من الصدمة:

- رد عليَّ يا ابني، فوق يا علاء متسبنيش.

القرينة تأتي إلى جوار هلال لمواساته في فقدان ابنه ويسألها:

- إيه اللي حصل؟

القرينة:

- ملك ملوك الجن الأحمر بعت جنيه تقتل ابنك ومن قوها مقددرتش أمنع الي حصل.

هلال مُردِّدًا في غضب: لازم أستعد للانتقام وأثأر لروح ابني، وهعد نفسي للحرب الجديدة ضد (برقان) ملك ملوك الجن الأحمر.

سمير صفوت

الوه-م

وَقَفَ أحمد ذلك الطبيب الشاب يتلقّى عزاء زوجته بقلبٍ يعتصره الألم أو بمعنًى أدق بقلبٍ قد دفنه للتوِّ مع حبيبته، بعـد أن واراهـا التراب للتوِّ في مقابر أسرتها، لم يستطع أن يتمالك نفسه، وكاد يُغشى عليه وهو يستند إلى ذراع أخيها وتوأمها وزميله خالد الذي حـاول أن يظهر قويًّا من أجل والديه اللذين وقفا على قـبر ابنتـهما ذات الثلاثين ربيعًا وقلوبهما تتفطر على زهرة عمرهما التي فقداها في ريعان شبابها.

كان أحمد لا يزال ينتحب بشدة وهو ينظر إلى قبر زوجته التي ما زالت كلماتها الأخيرة له تدقُّ في أذنه بعد أن أصرت أن يقوم هـو بإجراء تلك الجراحة الخطيرة لقلبها بالرغم من رفضه ذلك، لم تستمع إليه ولم تقبل أن يجريها لها أحدٌ غيره، فقد كانت تَثِقُ به ثقةً عميـاء، لذلك قام بإجراء الجراحة لها، ولكن قلبها توقّف بين يديه.. وللأبد.

ليته لم يستمع إليها، ليته لم يُذعنْ لرغبتها، ليته ما كان طبيبًا!

لا يزال يسمع صوتها وهي تودعه قبل العملية:

– أنا أثقُ بك، فقلبي يحيا بك وينبض لك فقط، لن أسلمه لأحد غيرك، لا تَخَفْ لن أمُتْ بتلك السهولة، لقد تعاهدنا أن نبقى معًا، لن أفارقك.. سأبقى بجوارك دائمًا.

لم يستطع أن يتحمل فكرة أنه هو السبب في موتها، فسقط مغشيًّا عليه بين يدي خالد الذي قام هو وزميلاهما يحيى ويونس بنقله للمشفى الذي يعملون فيه.

***

دَلَفَ خالد لغرفة أحمد في المشفى الذي يعملان فيه ليُفاجأ به وقد نَهَضَ من فراشه ليرتدي ملابسه في طريقه ليغادر المشفى بعد أن مرت عدة أيام على بقائه فيها إثر إصابته بهبوطٍ حادٍّ في الدورة الدموية في أثناء دفن زوجته.

حاولَ خالد جاهدًا أن يُثنيه عن فكرة مغادرته للمشفى وهو في هذه الحالة، وشفاؤه لم يكتمل بعد، ولكن أحمد أصرَّ على المغادرة والذهاب لمنزله حيث ذكرياته مع زوجته منى، فأردف قائلًا:

– لا تتعب نفسك يا خالد، أريدُ الذهاب لمنزلي الآن، أشعرُ أن منى تنتظرني هناك، أشعرُ أنها ستستقبلني عند الباب لتفاجئني وتحتضنني كطفلة صغيرة كما كانت تفعل دائمًا، أريد أن أبقى معها أن أستنشق عبيرها.

قال ذلك ثم أجهش ببكاء مرير وهو يُغطي وجهه بكلتا يديه وينهار على حافة سريره قائلًا:

- لقد قتلتُها يا خالد، لقد كنتُ السبب في موتها، لن أسامح نفسي أبدًا.. أبدًا

تمتم خالد في ألمٍ مكتوم حاول إخفاءه عن أحمد:

- لقد ماتت منى يا أحمد ولن تعود... أنت ليس لك ذنب في ذلك، يجب عليك أن تتقبَّل هذه الحقيقة وتتعايش معها، فالحياة لن تتوقف بموت أحد مهما تكن مكانته في قلوبنا.

نظر إليه أحمد من بين دموعه في ذهول وقد صدمه كلامه فتمتم قائلًا:

- أنتَ يا خالد! أنتَ مَن تقول ذلك؟! لقد كانت تحبُّك كثيرًا، لم تكن تعتبرك أخاها فقط وإنما كنتَ بالنسبة لها الأخ والابن والأب، لقد كانت...

قاطعه خالد وهو يستدير ليلملم ما تبقى من ملابس أحمد في حقيبته متظاهرًا بالقوة ليُخفي تلك الدموع التي تحجرت في عينيه ونبرة صوته التي حاول جاهدًا أن يجعلها طبيعيةً:

- كانت يا أحمد.. كانت، ولكنها ذهبت ولن تعود مرة أخرى، فهَوِّنْ على نفسك، والآن هيا بنا ما دمتَ تُصرُّ على المغادرة، سنصطحب في طريقنا يحيى ويونس فقد كانا في طريقهما إلى هنا ليطمئنا عليك.

دَلَفَ أحمد إلى شقته ومعه أصدقاؤه الذين قضوا بعض الوقت معه محاولين تهدئته بعد أن أجهش بالبكاء بمجرد دخوله إليها بشكلٍ هستيريٍّ حتى اطمأنوا عليه، ثم قاموا ليغادروا إلا خالدًا الذي رفض المغادرة حتى لا يترك أحمد في تلك الحالة وحده، ولكن أحمد أصَرَّ على أن ينصرف خالد مع يحيى ويونس ليعود إلى منزله حتى يكون بجانب أبويه في تلك الظروف، وليرتاح قليلًا بعد أن اعتنى به وبقيَ إلى جانبه طوال فترة مرضه، فاضطرَّ خالد للنزول على رغبة أحمد أمام إصراره، وانصرفَ مع صديقيهما بعد أن ناول أحمد الأدوية والمهدئات الخاصة به وأخذ منه وعدًا أن يخلد إلى الراحة.

لم يكد أصدقاؤه يغادرون حتى انقضَّت عليه ذكرياتُه مع زوجته لتعذب فيه بلا رحمة، تذكَّر كيف تعرف إليها منذ ثلاث سنوات عن طريق أخيها خالد، وكيف مرَّت عليه تلك السنوات وكأنها حلم..تذكَّر كيف كانت تتألم وتُعاني.. وكيف حاول إقناعها أن يقوم طبيب غيره بالعملية لأنه لا يستطيع القيام بذلك.. وكيف أصرت على أن يُجريها هو لتموت على يديه..

أجهش بالبكاء مرة أخرى وشعر بأن الأرض تميد به فارتمى على سريره، وقد بدأت عيناه تغفوان ليستيقظ بعد فترة وهو يشعر بصداع عنيف في رأسه.

فتح عينيه، وهو يمسك برأسه من شدة الألم، ولكنه شعر أن هناك من يجلس أمامه.. لثوانٍ قليلة لم يعِ أن زوجته قد ماتت، وأنها بجواره لتوقظه، فرفع رأسه ليجد أن هناك مَن يجلس على المقعد المقابل للسرير.

كانت الغرفة مظلمة وقد استغرق ثواني ليدرك الوضع بالكامل.. حاول الجلوس قليلًا ولكنه لم يستطع، فحاول التحدُّث، لكن صوته لم يخرج من حلقه أيضًا، بينما بدأ الشخص الجالس أمامه في الحديث وهو يتَّجه نحو باب الغرفة الموارب ليتضح أنه امرأة..

- أنا منى يا أحمد.. أنا جريمتك التي ستتجسد أمام عينيك.. أنا ذنبك الذي لن يُغتفر..

حاولَ أحمد جاهدًا أن يتحرَّك، ولكن بدا كأن جسده يرفض الاستجابة إليه، أراد أن يتحدث.. أن يطلب منها البقاء.. ولكنها استدركت قائلة:

- لقد قتلتني يا أحمد.. كنتُ أثقُ بك، ولكنك خُنتَ ثقتي وسلبتني تلك الحياة التي عشتُ أحلم بها معك.. لقد وهبتُك نبضات قلبي ولكنك أسكتها للأبد.. لن أسامحك أبدًا على ما فعلت.. ستتمنى الموت كل لحظة ولكنك لن تجده.. ستتألم كثيرًا ولن تجد من يُخفِّفُ ألَمك.. لن تُجدي معك الدموع ولا الصُّراخ.. ستعيش مع إحساسك

بالذنب على ما اقترفت يداك..فأنت قاتلي.. أنت قاتلي.. تذكّر ذلك يا أحمد..

حاولَ أحمدِ القيام.. حاولَ وحاولَ.. حتى وَقَعَ من فوق سريره، وانكفأ على وجهه وهو يشاهدها ترحل، رَفَعَ يدَه وحاول أن يُناديها ولكن صوته بدا ضعيفًا وبلا جدوى..

فقد رحلت مرةً أخرى..

فوجيء أطباء المستشفى بأحمد صباح اليوم التالي، وهو يدلف إلى مكتبه مُحاولًا تغيير ملابسه ليرتدي معطفه الأبيض، وينغمس في العمل رغم عينيه اللتين أصابهما الاحمرار من البكاء والأرق والإرهاق البادية على ملامحه، مما دعا زميله يحيى إلى محاولة التخفيف عنه، فأقنعه أن يخرجا إلى حديقة المشفى ليتحدثا قليلًا وما إن استقرَّا على أحد المقاعد حتى بادره يحيى قائلًا:

– ما الذي حدث لك يا أحمد؟ أنا لم أعهدك بهذا الشكل قط، لقد عهدتُك قويًّا ومؤمنًا، لقد ماتت منى وهذا قدرها وعمرها، وليس لك أو لأحد دخل في هذا، كلنا متأكدون أنك قد بذلتَ قصارى جهدك للحفاظ على حياتها، ولكنك طبيب وتعلم أننا مجرد وسيلة لشفاء الناس، أما الحياة والموت فبيد الله وحده، قد أتفهّم حُزنك عليها، فقد كنتَ تحبُّها كثيرًا، ولكنك تقتل نفسك يا رجل، هوِّن على نفسك وسلِّم بقضاء الله.

أردف أحمد بعينين زائغتين والدموع في عينيه:

– لقد كنت السبب في موهّا يا يحيى، أعلم ذلك، لم أرد أن أُجري تلك الجراحة، ولكنها أصرت، ورفضت أن يقوم بها غيري، وثقت بي ولكني خذلتُها، لقد قتلتُها هي قالت لي ذلك، قالت لي إنها لن تسامحني.. لن تسامحني أبدًا يا يحيى، ولن أسامح نفسي أبدًا.

أشفقَ عليه يحيى وقد شعر من كلامه أن إحساسه بالذنب سيقتله فربت على كتفه قائلًا:

– لا تَقُلْ ذلك يا أحمد، ادعُ لها بالرحمة، وحاول أن تستجمع شتات نفسك يا رجل، وعُدْ لحياتك وعملك مرة أخرى، فالحياة لا تتوقف بموت أحد، اسمعني جيدًا: أنت تحتاج إلى الراحة فقط، لذلك أقترحُ عليك أن تأخذ إجازة وتسافر و....

قاطعه أحمد في انهيار ودموعه لا تتوقف:

– لقد أتت إليّ بالأمس، وأخبرتني أنها لن تسامحني يا يحيى، حاولتُ إيقافها ولكني لم أستطع، هي غاضبة مني لأني خُنتُ ثقتها وفشلت، لن أسامح نفسي قط، لن أفعل.. لن أفعل.

نظر إليه يحيى في قلقٍ وقد أدرك أنه قد أوشك على الجنون بالفعل من شدة حزنه، فحاول أن يُخفّف عنه إلا أنه لمح خالد قادمًا ناحيتهما فاستدرك قائلًا:

- حاول أن تتمالك نفسك أكثر يا أحمد بالله عليك، فها هو خالد قادم، لا تخبره بما أخبرتني به الآن، فلا تنسَ أنه يحاول أن يضمد جراحه هو الآخر..

لم ينبس أحمد ببنت شفة في أثناء وجود خالد الذي لاحظ الحالة المزرية التي وصل إليها أحمد، فحاول أن يسري عنه مع يحيى وأقنعاه بصعوبة بالعودة إلى المترل ليرتاح، فقام خالد بتوصيله للمترل وظل معه فترةً ولم يتركه حتى اطمأنّ عليه.

أما أحمد فقد كان في وادٍ آخر، فقد ظل يفكر فيما رآه، هل كان ما رآه حقيقة أم محض أوهام؟ ومنى هل تظنُّ فعلًا أنه قتلها عن قصد؟ كيف وهي تتعلم أنه كان وما زال يعشقها لدرجة الجنون؟ كيف وهو يتمنى الموت هو الآخر لكي يكون بجوارها؟ هو لا يتخيل حياته دونها.. حاول أن يقوم ليخلع ملابسه لكنه شعر فجأة بدوار شديد والدنيا تظلم من حوله، لم يستطع أن يتمالك نفسه وسقط أرضًا.

***

تأوّه احمد في ألمٍ وحاول أن يفتح عينيه، لكن الظلام كان يُحيط به من كل جانبٍ مع رائحة تزكم الأنفاس..حاول أن يضعَ يَدَه على رأسه لكنه وجدَها ممتلئة بالتراب، شعر بانقباضٍ كبير في قلبه.. لم يدرِ في بداية الأمر أين هو.. حاول أن يرى المكان من حوله عندما وجد أن هناك ضوءًا خافتًا يبعد عنه قُرابة المترين..نظر في المكان من حوله

ليجد عدة لفافات بيضاء غطاها التراب..فتح عينيه فزعًا على اتساعهما عندما أدركَ أخيرًا أنه داخل قبر..

حاولَ أن يصرُخ لم يخرج الصوت منه..حاول أن يَقِفَ لكن السقف كان أقصر بكثير مما جعله يحبو على يديه وقدميه في اتجاه الضوء.. يجب أن يُهدِّئَ من رَوعه.. إنه مجرد حلم.. لا ليس حلمًا إنه كابوس..وصل إلى النور الضعيف الذي كان يأتي من شمعة بسيطة لم يعلم كيف وصلت إليه.. استند بظهره إلى جدار القبر محاولًا أن يعرف أين بابه؟

توقّف حينما سمع أصواتًا تهمس باسمه في صرخات متداخلة مرعبة، مما جعله يرتعد من قمة رأسه وحتى أخمصي قدميه، فوقعت منه الشمعة وانطفأت..حاول أن يبحث في جيوبه عن قداحته لم يجدها.. كاد يصرخ وقف الصُّراخ في حلقه مع تصاعد التراب والأصوات داخل القبر.

كان يبحث بهستريا عن هاتفه الجوال..صداع قاتل مع تلك الرائحة البشعة جعله يشعر برغبة في التقيؤ.. كانت يداه ترتعشان عندما أمسك بجواله وحاول أن يشعله.. لم يجد إشارةً فأشعل مصباح الهاتف.. استند إلى الجدار وهو يصرخ بأعلى صوتٍ، ولكن دون أن يخرج منه أيُّ صوت..

شعر أن هناك كفنًا ما قريبًا جدًّا منه.. حاول أن يُشير بهاتفه ناحيته فوجده جالسًا إلى جواره ورأسه موجه إليه..كانت الضحكات

تتعالى في القبر بأصوات تصمُّ الآذان، أشار بالهاتف ناحية وجه الجثة ولكن لفرط رعبه كانت تلك جثة مني، وقد سقط الكفن عن وجهها، كانت أنظارها متجهةً إليه وما زال صوت ضحكاتها الهيستيري يتردد فيرعبه أكثر فأكثر..

ظَلَّ يصرخ عندما وجد أن الجثة تتحرك ناحيته..وفي تلك اللحظة فرغ هاتفه من الشحن وأصبح القبر في ظلام دامس..كاد قلبه يتوقف وهي همس: أنت قاتلي سأنتظرك..ستأتي إليّ.. لن تتركني وحدي هنا..لم يقوَ على التنفُّس وعندما أصبحت الجثة أمامه، رأى خيالًا قادمًا باتجاه، وفجأة وجد يدًا آدمية تجذبه من قدمه..ولم يشعر بنفسه بعد ذلك قط..

كانت الساعة تُشير إلى السابعة مساء عندما أفاق أحمد..بدأ الضوء يتسلل إلى عينيه فحاول أن يُغطي عينيه بيده، فقد كان مصباح الغرفة ما زال مضاءً، تسلل إلى أذنيه صوتٌ مزعج، استوعبَ بالتدريج أنه جرس الباب، قام ببطء ليجلس على حافة سريره وصداع رهيب يكتنف رأسه، أمسك رأسه بكلتا يديه وهو يستعيد أحداث ذلك الكابوس؛ مما جعله ينتفض، فما رآه لم يكن كابوسًا فما زالت رائحة التراب تزكم أنفه.. استمرَّ جرس الباب في إلحاح مما جعله يشعر بالجنون، فقام ليفتح الباب، ولكنه شعر بالدوار فاستند إلى الحائط وأمسك برأسه إلى أن يتمالك نفسه، ولكنه شعر أن شعره

مليء بالأتربة؛ مما جعله يرتعد أكثر، لم يكن ذلك كابوسًا إذًا، إنه حقيقة..أعاد الجرس إليه وعيه مرة أخرى فتحامَلَ على نفسه ليفتح الباب ليجد يحيى وخالد ويونس، وقد بدت عليهم ملامح القلق والتوتر، فهتف به خالد في قلق:

– أين أنت يا أحمد؟ لقد اتصلنا بك كثيرًا، ولكن هاتفك مغلق، لقد قلقنا عليك.

تمتم أحمد في إرهاق وهو يرتمي على أقرب مقعد:

– لا أدري ما يحدث لي يا خالد.. يبدو أني سأُجنُّ قريبًا.

أردف يحيى في توتر:

– سامحني يا أحمد لقد أخبرتُ خالد ويونس بموضوع منى، ونحن في شدة القلق عليك.

ربت خالد برفق على كتف أحمد في شفقة قائلًا:

– هَوِّن عليك يا أحمد، أخبرتُك كثيرًا من قبل أنك لا ذنب لك في موت منى، فأنت جراح وموت مريض من مرضاك في أثناء الجراحة هو أمر وارد، لذلك حاول أن تتماسك وأكمل حياتك، فالحياة لا تتوقف على موت أحد حتى ولو كانت منى، تلك الأفكار ستقتلك، وعقلك الباطن سيُودي بك إلى الهاوية، فلا تستسلم لتلك الهلاوس.

– ليست هلاوس..أنتم تدفعونني للجنون أكثر، فقد رأيتها أمس أيضًا.

هتف يونس في ذهول:

– رأيتَ مَن؟! زوجتَك الراحلة؟!

– نعم يا يونس أُقسِم لكم.

– من فضلك يا أحمد توقف عن هذا الحديث فلم أعد قادرًا على السماع.

– أُقسِمُ لكم أني قد قضيتُ ليلتي في القبر مع زوجتي الراحلة.

قال أحمد ذلك ثم قَصَّ عليهم ما حدث بالقبر وهو يكاد يُجن، فتبادل الثلاثة نظرات الإشفاق والقلق على أحمد، وحاول يونس أن يقترب منه وينظر في عينيه ليلاحظ أن بؤبؤ العين على اتساعه، مما يشير إلى أنه يمر بحالة من الاضطراب النفسي الشديد.. مما جعل أحمد يتراجع للخلف قائلًا في غضب:

– لماذا تنظرون إليَّ بهذا الشكل؟ أنا لست مجنونًا، أقسم لكم أني قد رأيتُها أمس.

حاولَ خالد أن يُهدِّئه قليلًا قائلًا له:

- لقد أوصلتُك إلى منزلك أمس عصرًا، وتركتــك، وحاولــت الاتصال بك اليوم فلم تُجِب، فأنهينا عملنا بالمشفى وأتينا لرؤيتك قبل أن نذهب لمنازلنا.

نظر يونس إلى أحمد قائلًا:

- هل انتظمتَ في العلاج يا أحمد؟

- أي علاج يا يونس، أنا لستُ مجنونًا، ليتني كنت أنا من تــرك هذه الحياة! ليتني استطعتُ أن أفدي منى بحياتي!

انفعل خالد في غضبٍ هاتفًا:

- اللعنة! أبعد كل ما تحدثنا به تصمم على ما تفكر به، هل تريد أن تلحق بها؟ ألا يكفينا جرحٌ واحد؟ ألا تفكر سوى بحزنك أنــت فقط، كلنا فُجِعْنا بموتها، ولكن أحدًا فينا لم يفعل بنفسه مــا تفعلــه بنفسك، أفِقْ يا رجل، ولا تجعلنا نعاني مرتين مرةً بفقدانها والأخــرى بفقدانك أنت الآخر.

تمتم يونس قائلًا:

- يجب أن تذهب معنا للمشفى وتبقى هناك لبعض الوقت حــتى نكون مطمئنين عليك، فلا يمكننا تركك في هذه الحالة، فقد تــؤذي نفسك دون أن تدرك يا أحمد.

نهضَ أحمد وهو يهتف قائلًا في هيستريا:

- اتركوني وشأني، فأنا لن أذهب لأي مكان، لا أحــدَ مــنكم يصدقني، لا أحد منكم يفهمني، سأكون بخير وحدي، ولكن اذهبــوا واتركوني الآن، أريد أن أبقى بمفردي.

نهض خالد وهو يحاول تهدئة أحمد فربت على كتفه قائلًا:

- حسنًا.. حسنًا يا أحمد سنتركك وحدك الآن كما تريد، ولكننا لن نذهب حتى تتناول غداءك وتأخذ دواءك وإلا لن نتحرك من هنا.

وبالفعل قاما بطلب طعام بالهاتف ولم يتركاه حتى أتم غدائه وأخذ العلاج بالكامل، ثم استأذن ثلاثتُهم في الانصراف تاركين أحمد خلفهم وهو غارق في التفكير بكل ما حدث، والحيرة والحزن يكادان يقتلانه.

***

بعد يومين كان أحمد لا يزال في منزله، وكعادته بعد موت منى لم يعد لديه أيُّ رغبة أخرى في الحياة..لا طعــام ولا نــوم ولا دواء.. كانت ذكرياتهما معًا في كل مكان سواء في شقته أو خارجها.. كان يشعر أنها بالقرب منه بالفعل..ولذلك كان يقضي أغلــب الوقــت يتحدث ويتحدث إليها ربما ليشرح لها أنه لم يكن يقصد أن يقتلــها، ولكن كيف ذلك وهي على يقين أنه قتلها وأنه خان ثقتها به؟

لم يكن يخاف الموت، فهو الوسيلة الوحيدة لإنهاء آلامه والقرب من زوجته الحبيبة، ولكن ما كان يقتله هو إحساسه بالذنب، إحساسه بأنه هو من سلبها الحياة، شعوره بأنه خان ثقتها به، كيف سيحيا وهذا الثقل على كتفه؟ كيف سيتعايش مع تلك الأحاسيس؟ وما الجدوى من الحياة إذا لم تكن بجوار من تحب؟ بل ما أصعب الحياة دون من تحب! وما أقسى أن تعيش بعد أن تفقد حبيبًا لتظل ذكرياتكما تطوف إلى الأبد في مخيلتك!

كانت هناك فكرة ما تطوف برأسه، ولكن الشجاعة لتنفيذها كانت تنقصه..مجرد فكرة ولكنها سوف تقربه من حبيبته إلى الأبد

***

ظَلّ على هذه الحالة حتى قرَّر العودة إلى عمله بعد ثلاثة أيام لم يستطع معها المكوث في البيت أو ممارسة عمله أو اي شيء، حتى بعد محاولة أصدقائه إخراجه من تلك الحالة، ولكنهم فشلوا في ذلك أمام رغبته في الانطواء والبعد عن الناس التي ظلت تتزايد فلم تفلح محاولاتهم.

لم يعرف كيف أكملَ يومه، ولكن أصدقاءه كانوا بجواره ولم يتركوه لحظة، حتى انتهى اليوم فذهبوا جميعًا إلى شقة خالد الذي كان يقضي تلك الأيام وحيدًا فيها بعد سفر والديه ليعودا عمه الذي يقطن بإحدى القرى الريفية، وما لبثوا حتى تناولوا جميعا العشاء الذي أعده

خالد بعد أن قضوا بعض الوقت معًا ليستأذن كلٌّ من يحيى ويونس في الذهاب، ويبقى أحمد لقضاء الليلة عند خالد بعد إلحاحه عليه في البقاء.

ظَلّ أحمد يحوم في شقه خالد وكعادته بدا في الحديث مع منى والتي كانت صورها مع خالد ووالديها تملأ المكان.. حاول أن يمسك الصورة ويضمها إلى صدره، ولكنه شعر بثقل في رأسه فتحامَلَ على نفسه واستند إلى الجدار حتى اقترب من باب غرفة منى التي سيقضي الليلة فيها بعد أن تركه خالد وذهب لينام، ومَدَّ يده ليفتح باب الغرفة إلا أن ضوءًا قويًّا قد سطع فجأة في عينه، فرفع يده لِيُغطي عينيه محاولًا أن يتبين مصدر ذلك الضوء، فوجدها هناك.. كانت جالسة في أقصى الغرفة وهي تضحك.. حاول أن يتقدم ناحيتها لكنه فَقَدَ وعيه فجأة ووقع أرضًا..

***

بدأت تلك الغشاوة تنزاح من أمام عينيه، حاول أن يسعل من رائحة الفورمالين التي كانت تملأ المكان، ولكن لرعبه كان المشهد أمامه وكأنه في كابوس..بل في أشد الكوابيس رعبًا..

كان ممددًا على سرير طبي وقد قُيدت يداه وقدماه إلى السرير المعدني، وفوقه تمامًا كان هناك عدة مصابيح والتي تستخدم في أثناء الجراحات الطبية، كان هناك شخص مُشوَّه يرتدي غطاء على رأسه

ينظر إليه بعين واحدة في نشوة بالغة..اقترب منه أكثر وهو يدس حقنة ما في يده، بينما بدأ احمد في الصُّراخ، ولكن تسلَّل إليه صوت منى الجالسة خلفه دون أن يراها..كان يشعر بآلام لا تُطاق، ولدهشته وجد أن المسخ يجذب رأسه إلى أسفل السرير بحيث لا يسمح له برؤية ما سوف يحدث له، وعندما جذب رأسه إلى الوراء رأى منى تنظر إليه وهي تجلس بجوار الباب وتضحك، بينما قيَّد المسخ رأسه بهذا الوضع المؤلم.. بعد أن وضع كمامة على فمه حتى لا يصرخ..كان المسخ يتلفظ بلغة غريبة وهو يلمس جسد أحمد العاري..حاول أحمد أن ينظر من زاوية عينيه فاشتدَّ رُعبُه عندما وجد يد المسخ تمتدُّ إلى ذلك المشرط الذي يُستخدم في شَقِّ الصدر، وما هي إلا لحظات حتى شعر بآلام في صدره، والتي بدأت تشتدُّ خاصة مع إحساسه بالاختناق، وهذا المسخ يعمل بجدٍّ وهو ما زال على غنائه بتلك اللغة المرعبة.. وفي هذه الأثناء لم تتحرك منى أو تضحك إلا بعد أن ابتعد المسخ عن أحمد وهو يمسك بشيءٍ ما يقطر دمًا ليضعه على منضدة بجوارها..

اتسعت عينا أحمد عن آخرهما عندما تبيَّن أن ذلك المسخ يمسك بقلب يترف ويقوم بتقطيعه إلى شرائح مما أصابه برعب لا يوصف، فكيف توصَّل إلى قلبه وأخرجَه دون أن يلفظ أنفاسه، ولكنه تأكَّد الآن أنه ما زال داخل أحد الأحلام السخيفة؛ مما جعله يحاول تهدئة نفسه..

ولكن المسخ اقترب منه وهو ممسك بقطعةٍ من القلب ليزيل الكمامة من فم أحمد، ويضع القطعة في فمه ليمضغها أحمد الذي حاول لفظها على الفور، إلا أن المسخ وضعها مرة أخرى وأغلق فمه بعنف حتى يبتلعها، حتى ابتلعها فعلًا وسط ضحكات المسخ ومنى الهستيرية، حاول أن يقاوم أكثر فأكثر لكنه اكتنف رأسه دوارٌ شديد ليغيب ثانيةً عن الوعي...

***

أفاقَ خالد فجأة على يدي أحمد الذي ظَلّ يهزُّه بشدة صارخًا به ليقوم ويبحث معه في الشقة عن منى وذلك المسخ، فقام خالد فزعًا وهو يهتف بأحمد في غضب:

- أيُّ مسخٍ ذلك الذي تتحدث عنه بالله عليك يا أحمد؟! ما الذي اصابَك؟

كان أحمد يصرخ بهستيريا وهو شبه عارٍ، ويشير إلى جسده صارخًا في خالد:

- ابحث في جسمي هل ترى أي آثار لعملية جراحية.

حاول خالد أن يكتم غضبه، وهو ينهض من فوق سريره مُحاولًا تهدئة أحمد قائلًا:

– اهدأ وأخبرني.. ماذا دهاك؟ ما الذي تبحث عنه تحديدا؟ منى أم مسخ ما أم آثار جراحة؟

– لقد قاموا بإجراء عملية في قلبي يا خالد.. لقد انتزعوه وقطعوه أمامي.. أنا أموت.

– مَن الذي قام؟

– منى.. أخبرتُك يا خالد أنها منى ومعها ذلك المسخ.

– اهدأ بالله عليك يا أحمد.. يبدو أنه كابوس.

لم يلتفت أحمد لما قاله خالد وهو ينظر من خلال مرآة خالـــد إلى جسمه وهو يرتعد ويشير إليه صارخًا:

– شَقَّ ذلك المسخ صدري، وكانت منى إلى جواره وهي تضحك هيستريا، وكنتُ ما أزال في وعيي عندما شقَّه وأخـــرج قلـــبي، و.. وقطعه، انظر.. انظر لقد جعلني ألوكُ بعضًا منه..إن لساني لا يـــزال قانيًا

– تعالَ معي يا أحمد من فضلك، فأنت تكاد تُجن.

قال له خالد ذلك ثم خرج به من غرفته ليمر على كـــل غـــرف الشقة، والتي وجدها أحمد طبيعية ولا يوجد بها ما يدلُّ على صـــدق روايته، وبالفعل هدأ قليلًا، بينما أعدَّ خالد حقنة مهدئة ليحقنه بهـــا والتي بدأ مفعولها يُهدِّئ من روع أحمد قليلًا، فجلس بعد أن تنـــاول

كوبًا من الشاي الساخن الذي أعدَّه خالد وبدأ في سرد كل ما رآه في ذلك الكابوس، وتحدَّث كثيرًا عن منى وذكرياهما تارة وهو يضحك وتارة وهو يبكي وكأنه فَقَدَ عقله.

ظَلَّ يتحدث ويتحدث حتى ذهب في سبات عميق فتركه خالد ممددًا في الكرسي الكبير بعد أن قام بتغطيته..

ثم أمسك بهاتفه في هذا الوقت المتأخر ليتصل بيونس ويحيى ليخبرهما بالحالة التي وصل إليها أحمد، ويطلب منهما الحضور.

***

بعد عدة ساعات كان يونس، ويحيى وخالد يرتشفون القهوة وهم يتحدثون في شرفة الأخير بعد أن هُرع يونس ويحيى سريعًا ليجدوا أحمد وقد غلبه التعب ونام على هذا الوضع، فنظر إليه خالد بقلق شديد قائلًا:

لقد ساءت حالته النفسية كثيرًا، لذلك أُفضِّل وضعه في أي مصحة نفسية في هذه الفترة، أنتم لم تروه وهو يقتحم غرفتي فجرًا باحثًا عن المسخ ومنى، وقام بتعرية نفسه لأبحث معه عن مكان جراحة أخذوا منها قلبه.

أردف يحيى قائلًا في توتر:

- نحن لا ندري ما أصابه، ولكن وضعه بهذا الشكل في المصحة النفسية قد يرهقه أكثر، هو فقط يحتاج إلى الابتعاد قليلًا عن المكان

وعن العمل، ربما لو مكث في مكان هادئ مع العلاج سوف يتحسن بإذن الله.

أشار إليه خالد بالموافقة قائلًا:

– عظيم جدًّا، أنا أيضًا كنتُ سأقترح هذا، ما رأيكم في أن نذهب جميعًا في إجازة لعدة أيام للشاليه الخاص بي في مراقيا؟

وافق ثلاثتُهم على هذا الرأي، ولكن يحيى اعتذر عن السفر معهم لظروف العمل بالمشفى بالقسم الذي يعمل به، فاتَّفق يونس وخالد على الحصول على إجازة واصطحاب أحمد في تلك الرحلة.

***

ما هي إلا عدة ساعات حتى كان الجميع في طريق مصر إسكندرية الصحراوي، حيث كان يونس يجلس خلف عجلة القيادة، بينما انشغل خالد الذي يجلس بجواره بالعبث بهاتفه المحمول، في حين ظَلّ أحمد شاردًا وهو ينظر إلى لا مكان، طافت به ذكرياته مع هذا الطريق حينما سافر مع منى لقضاء شهر العسل في إحدى القرى الساحلية، كان يشعر أنها بجواره؛ لذلك ظَلّ يتمتم بالحديث معها مُجدَّدًا وكأنها موجودة بالفعل، مما دعا يونس إلى أن يهمس لخالد:

– يبدو أن أحمد سوف تنتابه إحدى نوباته مرة أخرى.

– دعنا إذن نتوقف في أقرب استراحة، لنرتاحَ قليلًا، ولا تــنسَ أنك أنت الآخر تقود منذ فترة وقد حَلّ علينا الليل.

– لا تقلق عليَّ يا خالد فأنا بخير، لكن ما يقلقني فعلًا حالة أحمــد التي تسوء يومًا بعد يوم.

– لا أعلمُ يا يونس، يبدو أننا سنضطرُّ إلى إخــضاعه للعــلاج بإحدى المصحات بالفعل، ولكننا سنقوم بتلك المحاولة الأخيرة ليعود أحمد لطبيعته، ربما ابتعاده عن الظروف المحيطة به يجعله يتحسن، فــلا نضطر لذلك، ربما...

ولم تمضِ عشر دقائق حتى كان الجميع يجلسون لاحتساء القهوة في إحدى الاستراحات المتواضعة على بداية طريــق وادي النطــرون.. حيث استأذن أحمد للذهاب إلى دورة المياه حيث يــشعر بــآلام في معدته، فأشار له صاحب المقهى بأنها موجودة في المبنى المجــاور.. في حين انشغل الآخران بمتابعة إحدى المباريات المهمة..

ولكن أحمد فقط سار عكس الطريق تمامًا بل عبر الطريق المظلــم إلى الجهة الأخرى وهو يبتسم، فقد كان يرى منى التي كانت تضحك وتشير إليه أن يلحق بها، ثم بدأت تعدو مما جعله يعدو خلفهــا هــو الآخر للحاق بها، وعندما كان يتعب كانت تشير إليه بالتقدُّم.

ظل كذلك حتى ابتعد عن المقهى كثيرًا، وهناك وقفت منى وهي تبتسم..تذكر أنها كانت ترتدي تلك الملابس تمامًا في أثناء سفرهما.. أشارت إليه ليلحقها إلى داخل المنزل المهجور..

شَعُرَ أحمد بالتعب والدُّوار لكنه تحامَل على نفسه ودخل خلفها، وهناك وجد أن كل أصدقائه هناك، لقد كان الأمـر تمامًـا كيـوم عرسه..حتى والده ووالدته اللذان رحلا في حادثة الطائرة منذ سـنة كانا هناك.. جميع من حضر عرسه كانوا هناك، خَجِلَ كثيرًا من نفسه لأنه لم يرتدِ الملابس اللائقة.. فقام بتلقائية بهندمة ملابسه وإزالة الغبار عنها، وهناك وقف خالد مع منى بفستان فرحها في انتظاره..اقتـرب رويدًا رويدًا وسط تصفيق الأهل والأصدقاء..لم يـشعر في حياتـه بسعادة مثلما شعر بها الآن، حتى في يوم عرسه لم يشعر بتلك الفرحة في العيون..

كانت الموسيقى تصدح في أرجاء المكـان، وأخـيرًا وصـل إلى عروسه..كانت أجمل بكثير من ذي قبل..لم يشعر بنفسه وهو يمسك بيديها ويقبلها في وجنتيها.. لم يكن يدري: أكان ذلك واقعًا أم حلمًا أم أن موتها كان مجرد كابوس مَرَّ عليه وأفاق منه الآن، وأن العمـر الحقيقي هو ما يحيا فيه الآن؟

ظَلّ يُراقِصُ منى على أنغام موسيقى هادئة، وهي تضع رأسها على كتفه في سعادة، أما هو فقد احتضنها بشدةٍ خوفًا من أن تفارقه مرةً أخرى.

احتضنها اكثر فأكثر فأكثر حتى توجَّعت، وكلما توجَّعت أكثر كلما احتضنها أكثر، حتى بدأت في الصُّراخ..التفَّ الجميع حوله وهم يضحكون، أما هو فقد رفع يديه عنها فتراجعت إلى الخلف، لكنه أمسك برقبتها دون وعي..حاول أن يبعد يديه عن رقبتها، ولكن جدوى فوقعا معًا على الأرض وسط الضحكات المتعالية من الحاضرين الذين بدؤوا في التحوُّل رويدًا رويدًا إلى هيئة غريبة الشكل، بينما منى كانت تحاول أن تُبعد يديه اللتين ظلتا تضغطان على رقبتها بشدة.. مما أصابه بالذهول بينما تصلبت يداه على رقبة زوجته وحبيبته..وفي الوقت الذي بدأ فيه من حوله في الركوع على أيديهم وأرجلهم، بعد أن تحولوا إلى هيئة أشبه بالمسوخ، حيث برزت أنيابهم وطالت شعورهم ونبتت ذيولهم.

شعر أحمد برعب شديد وحاول أن يجري، لكن يديه رفضتا أن تتخليا عن رقبة منى التي جحظت عيناها وهي تحاول أن تتنفس حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.. فصرخ أحمد في رعب وهو ينظر إلى يديه بينما اقتربت تلك المخلوقات أكثر منه وهي تحاول أن تُمسك به، ولكنه تقهقرَ للخلف تاركًا جثة منى التي اقتربوا منها، بينما هو ظَلَّ يتراجَعُ بظهره حتى خرجَ خلف هذا المكان المهجور وهو يجري هائمًا على وجهِه في الصحراء.. لم يدرِ: ماذا فعل ولماذا؟ أو حتى أين هو أو لماذا يحدث كل ذلك؟

كانت نبضات قلبه تتسارع بشكل مخيف، ولم تقوَ ركبتاه على حمله، فجلس أرضًا في وسط الصحراء..بينما تعالت من خلفه أصوات عواء كثيرة فشعر معها أنه ميت لا محالة.. خاصة وقد قتل حبيبته منى للتوِّ، قتلها بيديه بعد أن وجدها ثانيةً.. تمدَّد على الرمال ناظرًا إلى السماء التي تناثرت فيها النجوم كحبات اللؤلؤ..كان المشهد بديعًا، لم يدرِ: لِمَ نَقَشَت النجوم اسم منى التي فوجئ بها همس في أذنه:

– لماذا يا أحمد؟ لماذا؟

انتفض فجأة فوجدها ترقد بجانبه، ولكن بصورة بشعة بعد أن تحللت وبرزت أسنانها وتحوَّل وجهها إلى هيكل عظمي كامل وترتدي زي المشفى قبل العملية مباشرة، فحاول أن ينهض من جوارها لكنه عجز فصرخ قائلًا بتضرع:

– لم أقصد أن أقتلك، أقسم لك، أنا لم أكن أقصد، فأنا أحبُّك وأتمنى لو كنتُ استطعتُ أن أفديكِ بحياتي.

– ولكنك من قمتَ بإجراء الجراحة لي، وأوقفت نبض قلبي للأبد.

لكني لم أتعمَّد أن أمسَّك بسوء..أقسِمُ لك أنني في جحيم بعد أن تركتِني، أصبحت الحياة بدونك جحيمًا لا يُطاق، أقسم لك أني لم أحبَّ أحدًا غيرك ولن أحب بعدك فقد تركتِ لي فراغًا..

حاول أن يستكمل كلامه، ولكنه وجد نفسه يتكلم بلغة أخـــرى غريبة لا يعلمها، نظر إلى يديه اللتين تحولتا إلى يدي ذئب ونما فيه شعر غزير وبرز فكُّه بصورة عجيبة..لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنمـــا وجد نفسه وقد بدأ في العواء.. أما منى فقد تحوَّلت إلى جثة، فوضع فمه على جسدها وبدأ في نهشه.

كان يلوك ما تبقَّى منها في منتهى السعادة، ومِن خلفه تصاعدت الأصوات التي تعوي وتقترب تجاهه ورويدًا رويدًا لم تعـــد أصـــوات عواء بل بدأ يُميِّز اسمه وسطها..وتحوَّل العواء إلى أصـــوات بـــشرية تهتف باسمه..فكر أن يلتفت إليها ولكنه خشيَ أن تأخذ غنيمته منـــه فحملها بين يديه اللتين تحوَّلتا إلى الهيئة البشرية مرةً أخرى، في حـــين اقترب منه أحدُهم، لكنه هوى عليه بحجرٍ كان إلى جـــواره فـــسقطَ الرجلُ أرضًا..

***

وما هي إلا عدة دقائق حتى كان الجميع في الكافيه وقد التفـــوا حول يونس الذي شُجَّ رأسه بعد أن أصابه أحمد بالحجر، بينما ظَـــلَّ الأخير يتمتم بصوت خفيض بعد أن أعطاه خالد حقنةً مُهدِّئة، في حين وقف صاحب الكافيه بعيدًا بعد أن شاركهم هو وبعض الرجـــال في البحث عن ذلك المخبول داعيًا الله أن يرحلوا عن المكـــان قبـــل أن يجلبوا له المزيد من المشكلات.

لم تمضِ نصفُ ساعة حتى كان ثلاثتهم في طريقهم للقاهرة بعد أن قرَّر يونس وخالد العودة مرة أخرى لاغين السَّفرَ، وقد اتفقا على ضرورة وضعه في الغد في إحدى المصحات النفسية بعد أن ساءت حالته النفسية بشكل كبير..

بعد عدة ساعات كان الجميع في منزل أحمد الذي أفاق، وأكّد لهم أنه لم يشعر بأي شيء بمجرد نزوله إلى الكافيه، واعتذر كثيرًا ليونس الذي استلزم جُرحُه ثلاث غُرزٍ بسبب إصابته..

ترك الجميع أحمد في سريره بعد أن قام خالد بإعطائه أدويته واطمأنوا عليه، وخرجوا من منزله بعد أن ذهب في سُباتٍ عميق، فدلف خالد ويونس إلى السيارة التي قادها يونس في طريقه لتوصيل خالد لمنزله وأردف قائلًا:

– الأمر خرج من أيدينا يا خالد، وكما أخبرتُك لا بد من وضعه تحت المراقبة بصفة مستمرة، ربما هو هادئ الآن ولكن قد يحدث ما حدث مرة أخرى، ووقتها سيصبح خطرًا على نفسه ومَن حوله.

الحقنة التي أعطيتُه إياها ستجعله نائمًا حتى الغد، وسأحضر إليه وأقوم بنقله إلى أحد الأطباء المختصين للإشراف على علاجه، ولولا أن والديَّ قد عادا إلى البيت ولا أريدهما أن يشعرا بشيء لكنتُ بقيت معه الليلة، ولكني سوف أعود إليه صباح الغد لأنفذ ما اتفقنا عليه.

وصلت السيارةُ لمنزل يونس الذي نزل من السيارة بعد أن أخذ حقيبته ليكمل خالد طريقه لمنزله ليستريح من عناء اليوم الطويل الذي مروا به.

***

بعد عدة ساعات وقُرب الفجر تململ أحمد في رقدته وقام جالسًا في سريره على أثر الكوابيس التي لا تنتهي تلك الكوابيس التي أثّرت في حياته وفي مستقبله وقَلَبَتْ حياته إلى جحيم..كان يشعر بصعوبة في التنفس وكأن جبال الدنيا تربض فوق صدره.. أحسَّ بوجود أحد ما في الغرفة.. لقد كان ذلك المسخ مرة أخرى، كان يجلس بالقرب منه وكأنه أتى ليقبض روحه بذلك الغطاء الأسود الذي كان يُغطي رأسه..قام مُتحاملًا على نفسه وهو يستند إلى الجدار ليُشعِلَ مصباح الغرفة فلم يجد أحدًا..

ولكنه وجد ملابس منى وصورها وقد تناثرت في أرجاء الغرفة، تسلل إلى أذنيه صوت ضحكاتها التي ملأت المكان، وكأنها في طريقها إليه.. سمع صوتها وهي تناديه من الحمَّام.

لم يستطع الاحتمال فخرجَ من الغرفة وهوى على أقربِ مقعد واضعًا رأسه بين يديه، بينما انطفأت الأضواءُ وغَمَرَ المكانَ ظلامٌ تامٌّ، وبدأت تلك الخيالاتُ تطوف أمام عينيه مرة أخرى.. لم يعد يَحتَمِلُ أكثر وخاصة وهي تهتف باسمه..

لقد أصبحت الحياةُ بلا معنًى ولا هدف ولا مستقبل بعد رحيل منى، لقد أصبحت الحياة بالنسبة له كابوسًا متواصلًا..حاولَ أن يجمع شتات أفكاره.. انحصرت حياته كلها في تلك اللحظة في هدف واحد.. أن يصل إليها.. أن يكون بقربها..لقد اتخذ قراره الآن وحسم أمره، ورغم وهنه الشديد قام ليذهب إلى غرفته مرة أخرى واستند إلى الحائط حتى وصل إلى ذلك الدولاب الخشبي وسحب حقيبته التي تحتوي على عدة أدوات طبية، وبيد مرتعشة أخرجَ أحد المشارط الطِّبية.. وخرجَ مرةً أخرى إلى الصالة حيث كانت هناك منى تضحكُ وتبتسمُ وهي تُشير إليه.. استند حتى وصل إلى صورة زفافه هو ومنى المعلقة في الصالة ليأخذها بين يديه ويجلس بها على أحد المقاعد واضعًا الصورة أمامه مبتسمًا، بينما جلست هي إلى جواره ولم تفارقها ابتسامتها..

لم يشعر بأي ألمٍ وهو يقوم بتقطيع شرايين يديه بل ثبَّت نظره على الصورة الموضوعة أمامه وظلّ يبتسم هو الآخر، كان يعلم أنه لم يعد لديه إلا عدة دقائق ليذهب إلى حبيبته ليبقيا معًا للأبد.. بدأت غيبوبةٌ عنيفة تُهاجِمُه ودماؤه تتدفق لتغرق المكان.. لم يلتفت إلى ذلك المسخ الذي يقترب منه ليجلس أمامه وهو يرفع غطاء الرأس وينظر إليه في كره شديد.

– خالد..

- نعم يا عزيزي.. خالد.. خالد الذي قتلت شقيقته.. أغلى إنسان لديه في الدنيا.. أنت حزين عليها لمجرد أنك عشتَ معها ثلاثة سنوات بينما أنا الذي قضيتُ معها عشرات السنوات كيف أحيا دونها بعد أن حرمتني إياها بخطئك، ولكني اليوم أجلس أمامك لأشاهدك وأنت تنهي حياتك بيدك لتدفع ثمن ما فعلته بها.

تمتم أحمد وهو ينظر لخالد في إعياء شديد:

- ولكني لم أتعمد..

- بل أنت المتسبب الوحيد، أنت من قتلت شقيقتي الوحيدة..أتعلم؟ أنا من دفعك للانتحار.. نعم أنا..أنا مَن تسبَّبتُ لك بكل تلك الهلاوس يا صديقي.. لقد كنتُ أُعطيك حبوبًا تسبب لك كل تلك الهلاوس التي كنتَ تراها مع بعض الجهد البسيط مني لأجعل حياتك جحيمًا، فقد كان بعض ما تراه حقيقةً والبعض الآخر تكفلتْ به تلك الحبوب.. حملتُك إلى داخل إحدى القبور، وكنتُ أعلمُ ما سوف تفعله بك الهلاوس.. أصررتُ على أن تبيت ليلة معي حتى أُجهِّزَ لك غرفة كالعمليات وأقوم بعمل كل ذلك أمامك وأعطيتُك مُنوِّمًا، كنتُ قد أزلتُ كل آثار العملية أيها الغبي، كان عليَّ أن أُثبتَ للجميع أنك على وشك الجنون، أعطيتُك قبل السفر حبتين كاملتين حتى تهلوس أكثر فأكثر، وكنتُ أراك وأنت تعدو كالمخبول وسط الصحراء ولا أعلمُ بما هلوست أو رأيتَ، لكني كنتُ

في منتهى السعادة خاصة عندما هويت بذاك الحجر على وجه يونس ليتأكد الكل أنه قد أصابك فعلًا خبلٌ ما.. أوهمتُ يونس أني حقنتُك بمنومٍ ما حتى تستيقظ في الصباح، ولكني حقنتُك بجرعة مُضاعَفة من الهلوسة ستؤدي بك إلى الانتحار، والآن سأحقنُك قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة بترياق يزيل أي أثر لتلك الحبوب، وفي الغد عندما يجد الجميع جثتَك مُنتحرًا لن يظنَّ أيُّ أحدٍ أنك دُفعتَ إلى ذلك..

وبالفعل اقتربَ منه وهو يغمس إبرة ما في يده بينما ظَلَّ أحمد ناظرًا إلى ما وراء خالد في شرود وكأنه لم يَعِ

ابتسم أحمد وقد بدأ يغيبُ عن الوعي قائلًا:

- إذًا لم تكن منى غاضبةً مني لأني كنتُ السبب.. لقد كنتُ أعلمُ.. أعلمُ أنها أحبتني كثيرًا..

اتسعت ابتسامته، وهو يتمتم ناظرًا إلى شيء ما خلف خالد الذي كان لا يزال يتحدث متفاخرًا..لكنه لم يعد يستمع إليه بل كان ينظر إلى طَيْفِها الذي تشكّل في أجمل صورة منذ أن وقعت عيناه عليها قائلًا:

- هأنذا يا حبيبتي قادمٌ إليكِ.. لن نفترق بعد اليوم ثانيةً..

قالها وهوى رأسه إلى جانبه ويداه قابضتان على تلك الصورة التي أغرقتها الدماء، أما خالد فقد ألقى عليه نظرة أخيرة مليئة بمزيج من الكُره والارتياح.

ظَلَّ خالد إلى جواره حتى نزف كل دمائه و تيقن وقتها أنه فعلًا فارَقَ الحياة، وبدأ في إزالة كل المؤثرات الصوتية والسمعية التي تطلق هالات ضوئية حتى لا يكون هناك أيُّ أثر في المترل على أي جريمة انتحار..

كانت الساعة تقترب من الساعة السابعة صباحًا قبل أن يلمَّ كل الأشياء، ولكنه قبل أن يترل نَظَرَ نظرةً أخيرةً ناحية جثة أحمد، لكن لرعبه الشديد وجد أن هناك شيئًا ما يطوف حوله.. ترك باب الشقة مفتوحًا واقترب من الطيف بهدوء، لكن فجأة التفتَ إليه الطَّيف وكان بهيئة منى، ولكن بصورة شيطانية وكأنها تتوعَّدُه...

***

بعد مرور أسبوع على تلك الأحداث، دَلَفَ مصطفى الطبيب بقسم الجراحة وزميل أحمد إلى مكتب خالد بالمشفى الذي يعملان فيه حيث بادرَه قائلًا:

– البقاء لله يا خالد، لقد فوجئت بخبر انتحار أحمد بعد عودتي من البلدة، فقد مَرِضَت أمي كثيرًا فاضطررْتُ للسفر لأكون بجوارها بعد جراحة منى مباشرة لذلك لم أستطع حضور مراسم دفنها، فاعذرني يا صديقي.

– لا عليك يا مصطفى، فلم تكد جراحنا جراء موت منى تنتهي حتى فَجَعَنا أحمد بما فعله بنفسه الذي ظَلَّ مُنهارًا بعد وفاتها، فقد كان

رحمة الله عليه يحمل نفسه مسئولية موتها بسبب خطئه في أثناء إجرائه الجراحة لها.

انعقد حاجبا مصطفى في تعجبٍ قائلًا:

– السبب في موتها؟ كيف يُحمِّل نفسه مسئولية موتها وهو يعلم جيدًا أن حالتها كانت خطيرة جدًّا وأن إجراء الجراحة كان محاولة أخيرة لإنقاذ حياتها، خاصة بعد أن وصل قلبها لمرحلة مُتأخِّرة بعد أن ظلت تعاني مرضها منذ بداية زواجهما.

تطلَّع إليه خالد بذهول قائلًا:

– ما الذي تقوله؟ لقد أخبرنا أحمد أن حالتها بسيطة وأنها تتطلب جراحة بسيطة في القلب، وأنها ستتعافى في القريب العاجل.

ربت مصطفى على كتف خالد بإشفاق قائلًا:

– لقد كان ذلك بناء على طلب منى التي أصرت على ألا تعلموا شيئًا عن حقيقة مرضها، فهي تعلم مدى تعلقك بها.. وقد استغلت أنك طبيب عظام ولن تدرك الحقيقة، وقد طلب مني أحمد أيضًا ألا أُخبِرَ أحدًا بناء على طلبها، وللأسف وافقته على ذلك بالرغم من رفضي الأمر، ولكنها كانت رغبتهما، على كلٍّ لقد انتهى الأمر الآن فهذا قضاء الله وقدره وعلينا أن نُسلم به.

غادر مصطفى تاركًا وراءه خالد الذي انهار على أقرب مقعـــد، وقد جثم على صدره شبحٌ حقيقي سيظلُّ يعذبه ولن يفارقه في حياته أبدًا

إنه إحساسُه بالذّنبِ..

عمرو مرزوق

أرواحٌ مَكسورة

لحظة، فقط لحظة هي كل ما يحتاجه الأمر لتفقد معنى الحياة الذي اعتدت...

زحام، أصوات الأطفال، صخب البراءة، أسابيع قليلة وتبدأ الدراسة، لذا بدا كأنه لا بد من اقتناص كل لحظة متبقية في تلك العطلة الصيفية، وكأنما لا مزيد من العطلات...

هناك على الأرجوحة كانت، هادئة هي كنسمة صيفية، تلك الصغيرة التي يبدُو أنها لم تكد تتجاوز الرابعة أو الخامسة من عمرها، تتطاير خصلات شعرها برتقالية اللون على وجهها مع حركة الأرجوحة ذهابًا وإيابًا، تنظر لأمها الجالسة غير بعيد وتبتسم في سعادة...

- معذرة.. ألا تعرفين أين يمكنني تغيير الحفاض للصغير؟

التفتت الأم لصاحبة السؤال التي كانت تحمل رضيعًا لا يكاد يظهر منه شيء، وصفت لها الطريق لدورة المياه، ومن ثم عادت ببصرها إلى الأرجوحة، لكن ابنتها لم تكن هناك...

انتفضت وقوفًا وصارت تتلفت حول نفسها في كل الاتجاهات، تهتف بأعلى صوت باسم ابنتها...

الأرض تميدُ تحت قدميها، لكن عليها التماسُك، ربما هي هنا أو هناك...

عيناها تمشطان جميع الألعاب، تتفحصان وجوه الجميع...

خطواتها تتسارع، هي للركض أقرب منها للسير...

صوتها قد بُح، لم تترك عابرًا إلا واستنجدت به ووصفت له الصغيرة وما ترتديه...

الوقت يمرُّ ثقيلًا، والظلام قد حلّ، الأمل في إيجادها يفتر...

– رأيت رجلًا يحمل طفلة نائمة بتلك المواصفات منذ بضع ساعات ويرحل بسيارته

الرؤية بدأت تغيم في عينيها حال سماعها ما قاله حارس أحد البنايات المجاورة، وما هي إلا لحظات وتهاوت أرضًا فاقدة الوعي..

تجمهر حولها البعض مُحاوِلًا إفاقتها، والبعض اقترح الذهاب بها للمشفى أو البحث في هاتفها عمن يأتي لاصطحابها، لكن واحدًا

فحسب يرتدي السواد من قمة رأسه لأخمصي قدميه، اقترب منها دون أن يبدو كأن أحدًا يشعر به أو يراه، ركع على ركبتيه إلى جوارها ووضع كفّه على كفّها اليسرى، وما إن فعل حتى انسل من يده ما بدا وكأنه كائن أسود رخو مستدير، في حجم عملة معدنية صغيرة، تجزأ لأحجام أصغر، ومن ثم انساب أسفل أظفارها واختفى!

لينهض هو بعدها مبتعدًا، وقبل أن يذوب وسط الجموع يُلقي نظرة عليها وهم ينقلونها لسيارة أحدهم لنرى من خلال عينيه هالة رمادية فاتحة اللون بدأت في التشكُّل والإحاطة بجسدها...

***

– البقاء لله.. لقد تُوفيت، فعلنا ما بوسعنا لإنقاذها، النزف كان شديدًا وأمر الله قد نفذ، لكنك رُزقت بابنة هي نسخة مصغرة من أمها.. هل ترغب بحملها؟

كانت نظراته ذاهلة، عقله لا يستوعب ما قيل له للتوِّ، في الجملة تلقى نفسها نبأ وفاة وحياة، ما يفترض أن يكون فرحته الأولى بات كسرة قلبه...

نظرت إلى الوليدة التي تتلفت بفمها باحثة عن حنان لن تعرف طعمه أبدًا، أثارت في نفسه مشاعر متضاربة مُختلطة..

أيجدر به أن يفرح بمجيئها بعد سنوات طوال من الانتظار؟ أم أنه يجب أن يغضب؟ أن يكرهها لأنه سلبته حب عمره؟ هي أيضًا فقدت لكنها بعدها لا تدرك...

لم يستطع أن يُطيل النظر إليها أكثر، عيناه غامتا بالدموع فانطلق يركض عبر ممر المشفى خروجًا، تاركًا إياها بين ذراعي الطبيبة التي أطرقت برأسها أسفًا، ولم تلمح ذاك الذي بدا كأنه ظهر من العدم، مُرتديًا الأسود، ارتطم بالزوج المكلوم عمدًا، ومن ثم ربت على كتفه معتذرًا...

مع ابتعاده بدأ ذاك الكائن الأسود الذي تُرِكَ على الكتف في الانقسام لوحدات أصغر فأصغر، ومن ثم تتسلل بخفة على العنق صعودًا، لتختفي بغتة وكأنما تغلغلت عبر مسامِّ جلده...

وعلى وجه صاحب الزي الأسود شبحُ ابتسامة ترتسم وهو يرى تلك الهالة الرمادية تتشكل سريعًا حول جسد الشاب، تزداد حجمًا، وتتحول لدرجة لون أغمق هي أقرب للون الرصاص، فتزداد اتساعًا ابتسامتُه ويغمغم لنفسه قائلًا قبل أن يختفي مثلما ظهر:

يبدو أن هذا سيكون مستعدًّا بأسرع مما توقعت.

سيدة أمل.. رجاء.. ساعدينا لنستطيع مساعدتك، مضى على اختفاء ابنتك ما يقرب من ثلاثة أسابيع الآن، وكلما مرّ الوقت تضاءلت فرصة العثور عليها.

حدَّقت أمل بنظرة ذاهلة إلى ذلك الضابط الجالس أمامها:

ثلاثة أسابيع؟! هل مضى كل هذا الوقت وأنا غائبة عن الوعي؟! كل هذا وصغيرتي بعيدةِ عنيّ؟!

كانت ترغبُ في قول تلك الكلمات، لكن حرفًا لم يغادر شفتيها..

سيدتي.. ما آخر ما تذكرينه قبل اختفائها؟

تلك السيدة التي تحمل رضيعًا، تُدثِّرُه بالثياب حتى أنه لا يظهر منه شيء! لم يصدر عنه صوت! كيف لم أرتّبْ بالأمر؟!كيف تركتها تلهيني عن ملاكي؟! تبًّا لِي من أمٍّ مهملة!

تشعر برأسها يدور، أنفاسها تضيق، وقلبها يُعتصر عصرًا..

سيدتي.. أرجوك.. صمتك هذا لن يساعدنا، أيًّا كان ما تذكرينه، أي تفصيل ولو عابر قد يساعد، لا أحد يلومك، ذلك ليس خطأك.

مع آخر حروفه التفتت تنظر إلى زوجها الواقف في الركن، الذي أشاح ببصره بعيدًا ما إن التقت أعينهما مغادرًا الغرفة...

تلك النظرة التي لمحتها في عينيه قبل أن يخرج أخبرتها أنه يلومها كُليةً، فعادت تُحدِّق إلى الفراغ بصمتٍ...

– سيدتي...

قاطعه الطبيب الذي كان يجلس إلى جواره في مقابل فراشها قائلًا:

- حضرة الضابط.. أخبرتُك أن حالتها لا تسمح بالاستجواب، هي تمر بصدمة حادة، ولا أظنُّ أن بمقدورها أن تُجيب أيًّا من أسئلتك في الوقت الحاليّ.

فتنهَّد بعمق وهو يُومئ برأسه متفهمًا ومن ثم قال مادًّا يده ببطاقة صغيرة:

- على كلٍّ، هذه بطاقتي، تحمل جميع أرقامي، أرجو منك الاتصال بي ما إن تسمح حالتها باستكمال التحقيق.

فالتقطها الطبيب منه وهو ينهض ليرافقه خروجًا قائلًا:

- حسنًا، سأفعل بالتأكيد.

والتفت مُحدِّثًا أمل قبل أن يغلق باب الغرفة خلفه:

- حاولي نَيْلَ قسط من الراحة، سأرسل الممرضة بجرعة مُهدئٍ ستساعدك على نوم بلا منغصات.

ما إن أُغلِقَ الباب حتى تسلّل ذاك الكائن الأسود من أسفل الغطاء وبمجرد ملامسته للأرض تشكّل على هيئة الابنة، لكن ببشرة شاحبة اللون، شعرها أشعث وأقصر، وملابسها رثة...

لم تَنْتَبِهْ أمل إليها إلا حين بدأت في البكاء فانتفضت نُهوضًا من الفراش، توجهت نحوها في لهفة، حاولت احتضانها لكنها كلما مدَّت ذراعيها لتحاوط الصغيرة وجدتها تتلاشى من بين يديها، وكأنما تحاول عبثًا إمساك الهواء، كانت تتحوّل لهيئة ضبابية ومن ثم تختفي لتظهر في ركن آخر من الغرفة..

– صغيرتي أرجوكِ، أنا آسفة، أعلمُ أنك غاضبة.

تردد صوت الصغيرة في رأس أمل هاتفًا –وكأنه يُصدِرُ من داخل رأسها هي– نبرةً حملت كثيرًا من المَقت والغضب:

– لقد تخليتَ عني، لقد فقدتني وانتهى الأمر، لن أعود يومًا، ومنذ تلك اللحظة أنتِ قد فقدتِ الحياة كما عرفتها. لا شيء سيعود كما كان.

ومن ثم اختفت تمامًا، ليعود ذاك الكائن الأسود لهيئته الأولى وينطلق زاحفًا عائدًا إليها، أما هي فقد انهارت في بكاء عنيف فلم تلحظ ذلك المتشح بالسواد الواقف بباب الغرفة يراقب ازدياد حجم الهالة حول جسدها وتحولها إلى لون الرصاص الأدكن...

***

ظلام دامس يحيط بكل الموجودات، رائحة غريبة تثقِل أنفاسه، آخر ما يذكره هو مغادرته المشفى، يسيرُ هائمًا بلا هدف مُحدَّد، لا يذكر حتى كيف ومتى عاد لمنزله، يذكر فقط أنه ارتمى على الفراش دون حتى تغيير ملابسه...

– متى وكيف جئت إلى هنا؟ أين أنا؟!

حينها سَمِعَ صوتَها يتردد في رأسه قائلًا:

- هل يهمُّ كل ذلك حقًّا؟ المهم أنك هنا الآن، أنك تملك فرصة أن نكون معًا مُجددًا وللأبد.

أخذ يتلفَّتُ حوله في لهفة مُحاولًا تبيُّن مكانها - خاصة أنه استشعر ضوءًا خافتًا يأتي من مكان ما، وهو يهتف قائلًا:

- أهذه أنتِ حقًّا؟ كيف هُنتُ عليكِ؟ لَمَ تركتِني؟

أتاه صوتُها قائلًا:

- دعك مما حدث حبيبي، فلتصبَّ جامَّ تركيزك الآن على لَمِّ شملنا مُجدَّدًا.

ثم قالت بنبرة دلال:

- ألم تَشْتَقْ إليّ؟! إن الوضع هنا أفضل حالًا بكثير، لكنني أفتقدُك.

شعر بها تقترب منه، تحيطها هالة ضوء خافتة تكاد تُضيء ما حولها، طبعت قبلةً حانيةً على جبينه ومن ثم همست بحنان قائلة:

- سأنتظرُك، لا تتأخر.

وبانتهاء حروف جملتها اختفت، تلاشت للعدم، وعاد الظلام يكتنف كل شيء، فراح يهتف بأعلى صوته مناديًا باسمها قائلًا:

- لاااا، لا تتركيني، كيف لِّي أن أعيش دونك؟! لاااا.

فجأة شعر بأحدهم يربت على كتفه برفق ويقول بقلق:

- نضال.. استيقظ يا بني واستعذْ بالله من الرجيم، استيقظ يا ولدي لقد غابَت الشمس أنت نائم منذ البارحة، انهض، توضَّأ وصلِّ بينما يجهز الطعام.

بدأ نضال يتململ في فراشه، يفتح عينيه ببطء مُحاوِلًا أن يستوعب ما يجري..

- أين هي؟ إلى أين ذهبت؟ لقد كانت هنا توًّا، ما زلتُ أشعر بأثر قبلتها على جبيني، أين هي؟!

اختنقت العبرات بعيني ذلك الجالس بجواره وغمغمَ قائلًا:

- فليرحمها الله يا بني، فليرحمها الله، أعلمُ كم كنتَ تحبُّها! كانت ابنتي الغالية، جميعنا يفتقدها يا ولدي نسأل الله أن يفرغ علينا صبرًا من لدنه.

ثم ربت على كتفه بحنان وقال وهو ينهض متوجهًا للباب:

- سأنتظرك في غرفة الطعام لنتناول شيئًا معًا، ولا تقلق بشأن الطفلة، لقد أطعمتْها حماتُك ونظَّفتها، وهي نائمة في غرفتها الآن.

غمغم نضال لنفسه بصوت غير مسموع بينما أبوه يُغلق الباب خلفه:

- تلك الطفلة التي كانت يوما أمنية حياتي سلبت مني من كانت تمنح الحياة معناها، كيف ليّ أن أُشعِرها بمحبتي؟! كيف ليّ أن أرعاها؟!

مع نهاية جملته كان ذاك الكائن الأسود قد تسلّل خارجًا بالقرب من رأسه وبدأ بالتشكل على هيئة الزوجة تمامًا أمام عينيه، وسَمِعَ صوتها يتردَّد في رأسه...

- عائلتانا ستقومان برعايتها، هلمَّ أنت لمرافقتي، ولا تشغل نفسك بما عدا ذلك.

لم ينبس ببنت شفة، لكنه أومأ برأسه إيجابًا، ومن ثم نهض من الفراش مُترنِّحًا متجهًا صوب الحمام المُلحق بالغرفة، ورأسه لا يحمل سوى فكرة واحدة تمثّلت في موسى الحلاقة... ومعصميه..

حينها استعاد الكائن هيئته وعاد يتغلغل عبر مسام الجلد عائدًا إلى حيث كان...

في النافذة المُقابلة وَقَفَ ذاك المتشح بالسواد يُراقِبُ تحوُّل الهالة المحيطة بجسد نضال وهي تزداد حجمًا واقترابًا من اللون الأسود الأدكن، وغمغم بسعادة لنفسه قائلًا:

- لقد صار جاهزًا تقريبًا.

في ساحة حديقة واحدة من أشهر مصحات الأمراض النفسية جلست مجموعة من خمس أفراد - بينهم أمل ونضال - توسطهم طبيب حمل لوحًا من الأوراق وقلمًا وبين كل حين وآخر يُدوِّنُ بضع

ملاحظات، كانت تلك مجموعة علاجية لأولئك الذين أقدموا على الانتحار، اختلفت الأسباب والوسائل، لكن في النهاية ظنّ أغلبهم أن ذاك هو الملاذ والحل الأخير لما يمرون به...

كان نضال المتحدث قبل الأخير، لم يكن يرغب في الكلام حقًا،لكن ذلك الطبيب استحثّه مرارًا وتكرارًا وفي النهاية قال:

– نضال، الصمت لن يفيد أحدًا، الجميع يحمل داخله ما يظنُّه نهاية الدنيا، لكن الواقع أن كله يمضي، أن لا حال يظلُّ على ما هو عليه، عجلة الحياة لن تتوقف وعلينا مُجاراها لا أن ندعها تدهسنا.

فغمغم نضال قائلًا:

– لقد دُهِست وانتهي الأمر، ليتهم لم يسعوا لإنقاذي، لم يعد هناك ما يستحقُّ العيش لأجله.

فقال الطبيب:

– وماذا عن ابنتك؟، تلك التي لم تمنحها اسمًا حتى الآن.

في تلك اللحظة وللمرة الأولى ومنذ اختفاء صغيرها مذ أسابيع عدة مضت نطقت أمل قائلة بدهشة مستنكرة:

– لديك ابنة؟! لديك ابنة وأقدمت على الانتحار؟! كيف أمكنك؟ كيف؟!

التفت إليها ببطءٍ وهمّ بقول شيء ما، لكن بدا أنــه تراجَــعَ في اللحظة الأخيرة وأطبق شفتيه بحزم وعاد يُحدِّق إلى الفراغ، فهتفت به صارخة في غضب:

– أجبني يا هذا، أي حجر تمتلكه بين ضلوعك لتقــدم بمحــض إرادتك على تَركِ قطعةٍ منك؟!

انتفضَ نضال في غضبٍ وقوفًا، حتى أن مقعده سقط أرضًا مــع نهوضه المُباغِت، وبادلها الصُّراخ الغاضب قائلًا بحدة:

– هذه القطعة قتلت أمها، أخذت مني مَن كنت أتنفسُها، بسببها فقدتُ أغلى ما ملكتُ يومًا.

كان صوتُه مختنقًا، الدموع تحتقن في عينيه، يُجاهِدُ لمنعهــا مــن التسلل لوجنتيه، فهمّ بالمغادرة عائدًا لغرفتــه، إلا أن صــوت أمــل استوقفه حين قالت مغمغمةً:

– هي أيضًا فقدها، أتريدها أن تفقدك أنت أيــضا؟! إن كنــت ستبغضها بذاك القدر فربما أنت لا تستحقها، تمامًا كما لا أستحقُّ أنا الحياة بعد أن أضعتُ طفلتي.

هنا تدخَّل الطبيب مُحاولًا تهدئة حدة الموقف قائلًا:

– هلّا أخذنا نفسًا عميقًا؟ لا داعي للافتراضات، كلٌّ يختلف عن الآخر، ومؤكد أن أحدًا لم يقصد الإهانة.

وكأن مع نهاية جملته وقف الطير على رؤوس الأشهاد، لم ينبس أحدٌ ببنت شفة، ونهض الجميع كلٌ متوجِّهٌ إلى غرفته، كانت تلك جلسة مُخيبة للآمال، لا أحد يشعر بالندم بل إن لديهم استعدادًا كاملًا لمعاودة الكرَّة، لكن مع اتخاذ كامل الاحتياطات لضمان أن أحدًا لن ينقذهم..

كم هو قاسٍ أن يشعر أحدهم أن العالم سيكون مكانًا أفضل دون وجوده..

في مكان غير بعيد خلف الأشجار وقف خمس متشحين بالسواد يراقبون خمس هالات ضخمة تحوَّلت ألوان جميعها إلى اللون الأسود الأدكن...

- جميعهم مستعدٌّ، تواصلوا مع كائنات النِّوار المزروعة بأجسادهم، أنبؤوهم أن الموعد الليلة، تمام الثالثة صباحًا.

(لم أجرؤ يومًا على إدانة المنتحرين، أعترف أنه ذنب كبير، لكني لم أمتلك الجرأة للإدانة قط. هم أشخاص سقطوا تحت ضغطٍ ما، وبكل تأكيد لا يُحتمل، دفعهم لأن يضحوا بحياتهم دون تردد، ربما لن أفهم دوافعهم أبدًا.. تلك لحظة لا تُفهم أصلًا، لأن ما يليها طريق لا رجعة فيه. لا أدري هل ندم أحدهم فعلًا؟ لا أتحدث عمَّن نجا، لكن عمَّن خاض التجربة للنهاية وفلَّ من عالمنا. فقط يمكنني تخيل ذلك الشعور،

إنك ضعيف جدًا ولا حيلة لك، إن الدنيا سوداء فعلًا وكل الطـــرق تؤدي للا شيء.

محمد الدسوقي)

الساعة تقترب من الثالثة صباحًا، الجو بارد للغاية رغم أنه شـــهر سبتمبر، خمسة أجساد متشحة بالسواد تقف في مقابل مـــبنى غـــرف المرضى، تحديدًا المرضى الخمسة الذين كانوا بالمجموعـــة العلاجيـــة صباحًا، كانوا قادرين -- بطريقة ما - على رؤيتـــهم مـــن خـــلال الجدران، تقدَّم ذاك الواقف بالمنتصف- الذي بدا كقائد المجموعـــة- بضع خطوات للأمام وهمس قائلًا:

- الآن.

مع نهاية كلمته بدأ المرضى الخمسة يستيقظون تباعًـــا، لا شـــيء يشغل تفكيرهم سوى أن تلك هي اللحظة المناسبة للموت، كـــانوا أشبه بالمُنوَّمين مغناطيسيًّا، فلم يشغل بالهم عدم منطقية ما كان يحدث، فبداخل رؤوسهم كانوا جميعًا يسمعون صوتًا يأمرهم بالتوجُّه لحديقة المصحة...

حين وصلوا بدا كأن أحدهم لا يرى أولئك المتشحين بالسواد، أو تلك الكائنات التي راحت تتشكَّل خروجًا من مسامات أجـــسادهم وتتشكَّل على هيئة أحبال سميكة راحت تتسلَّق وتتدلى من أغـــصان الأشجار، ومجددًا راح ذاك الصوت في رؤوسهم يأمرهم بـــالاقتراب من تلك الأحبال أمامهم...

- بضع خطوات تفصل عن الخلاص، فقط بضع خطوات.

ظلت العبارة تتردد في رأس كُلٍّ منهم بصوت أقرب الناس إليهم، ودون تفكير بدؤوا يتقدمون الواحد تلو الآخر، كأن هناك ترتيبًا محددًا يتبعونه..

كُلٌّ بدوره يقترب، فتلتفُّ تلك الكائنات حول عنقه كأنشوطة الإعدام، تجذبه للأعلى بينما هو في استسلام تامٍّ، لا يُبدي أدنى مقاومة، وكأنما حتى غريزة البقاء الطبيعية داخله قد انطفأت، وكما البوا العاصرة تعتصر (النِّوار) العنق حتى تبدأ البشرة في الازرقاق، فتنسل من حوله تاركة الجسد يسقط أرضًا، حينها يتقدَّم أحد أولئك المتشحين بالسواد نحوه، نازعًا الملابس التي كانت تُخفي أسفلها حسدًا سرعان ما بدأ بالتحلل والتحوُّل إلى ما يُشبه الرماد الذي بدوره يتخذ هيئة ضبابية تندفع دخولًا عبر فم ذلك الساقط أرضًا وأنفه...

تكرَّر الأمر مع ثلاثة من الخمسة، وتبقَّى أربعة، اثنان من كل مجموعة، في حين غادر المرضى الثلاثة الأوائل ليختفوا متسترين بجُنح الظلام...

كانت أمل هي التالية، لكنها توقفت بغتة في منتصف الطريق والتفتت لنضال قائلة:

- لديك ما تعود لأجله، لديك حياة كاملة كانت أمنية حياة رحلت، عُدْ قبل أن تصبح العودة مستحيلة.

ومن ثم عادت تكمل المسير نحو الأحبال، في حين قال قائد المجموعة بدهشة:

- تلك المرة الأولى التي يفيق فيها أحدُ البشر من تأثير (النّوار)!

فأجاب تابعه بنبرة يكسوها التوتر:

- سيدي.. إن هالتها تتحول للون الرصاص، هذا غير مطمئن، هل تستعيد روحها قواها؟

انعقد حاجبا القائد وهلةً ومن ثم قال بحزم:

- اندمج ذهنيًّا مع بقايا النّوار داخلها، اسبر أغوار عقلها واكتشف السبب، لن نستطيع التوقف الآن، إن المهلة تنفد، تلك الأجساد التي تحتوينا قد استهلكت.

ساد الصمت لحظات بينما كانت أمل مُعلقة في الهواء من عنقها، مستسلمة تمامًا، لكن – وعلى عكس من سبقها – بصرها مُرتكِز على نضال.

- أضعتَ طفلتي، لكنه لم يُضِعْها بعد، عليه أن يستعيدها، هي ستجبُره، عليه أن يتقوى بضعف ابنته.

اتسعت عينا التابع ذُعرًا بينما كان يسمع ما يـــدور في ذهنـــها بوضوح وهتف بقائده قائلًا:

– هي تسعى لإفاقة العائل الخاص بك، تريده أن يقاوم، ســـيدي علينا الاس...

قاطعه صوت أمل التي كانت تتلوى وهي تحاول إبعاد الأحبـــال السوداء عن عنقها لتتمكن من الحديث قائلة:

– هي لن تُسامحك إن أفقدت ابنتها السَّند، هي تريدك معها لكن حين يحين أجلك لا حين تُقرِّر أنت.

مع نهاية جُملتها كانت هالتها تخبو، تصغر حجمًا وإن ظلَّت على لونها، وبدا كأن نضال يُفيق من سُباتٍ طويل، هالته بدأت تـــصغُر، وتدريجيًّا تتحول لدرجات لون أفتح، حينها بدا أن القائد يشتعل خوفًا وغضبًا في آن، كان ذلك جليًّا في نبرة صوته المرتعشة الهادرة وهـــو يهتف بتابعه قائلًا:

– الآن، علينا احتلال جسديهما الآن.

حدَّق التابع إلى قائده فاغرًا فاه بضع لحظات قبل أن يقول بحذر:

– أو ليس ذلك خطيرا؟ ليسا في أضعف حال، وهذا سيزيد من قوة مقاومتهما وقد...

قطع جملته وكأنما يخشى إن تفوّه بما دار بخلده أن يتحقق، لكن قائده أكملها قائلًا:

- قد يطردوننا خارجًا وحينها تكون النهاية.. أدرك هذا، لكن ما لا تدركه أنت أننا لو انتظرنا لن نحظى حتى بفرصة للدخول، ونكون اتخذنا قرارًا بحتمية الموت، نَفِّذ ما أمرتك به أن أردتَ فرصة.

ومع آخر حروفه كان قد تحوَّل لضباب يندفع نحو فم نضال وأنفه، فلم يجد التابعُ أمامه سوى أن يحذو حذو قائده واندفع نحو أمل التي كانت ما تزال تُقاوِمُ أحبال النِّوار...

كائنات النِّوار عادت إلى هيئتها المستديرة الرخوية وكأنما تأثرت بالصِّراع الدائر داخل جسدي أمل ونضال، كأنها تستمدُّ قدرتها على التشكل وتأثيرها من قوة تلك الكائنات الضبابية، وبدا أن قوتها تأثرت بذاك الصراع الدائر داخل جسدي أمل ونضال للسيطرة على عقليهما ومنه على جسديهما اللذين كانا ينتفضان بعنفٍ..

وعلى حين غرة اندفع الضباب خروجًا من فم نضال ليشتعل ككرات من اللهب بمجرد ملامسته للهواء سرعان ما تحوَّلت لرماد تذروه الرياح، وتلاشى نصف عدد النِّوار من المكان، ويسقط هو أرضًا كأنما كان يُقاتِلُ جيشًا...

وبينما هو مستلقٍ أرضًا رأى ذاك الضباب يندفع خروجًا من فم أمل ليشتعل تمامًا كما حدث معه، إلا أن أمل سقطت أرضًا غائبة عن الوعي، تنزف من أذنيها، وعينيها، وأنفها...

تحامَلَ على نفسه ونهض ليتفقدها، غير أنه حين وصل إليها كان الأوان قد فات، لا أنفاس، لا نبض، لا دلالات حياة على الإطلاق...

لم تكن تملك دافعًا قويًّا كافيًا لتقاوم، لكنها فعلت، وكان هذا كافيًا لمنحه دافعًا للمقاومة، جعلته يدرك أن هناك ما يستحق البقاء لأجله في هذه الدنيا...

- أشكرك.

همس بها في أذنها ونهض عائدًا لغرفته بوجنتين مغرورقتين بالدموع مغمغمًا:

- لا أحد سيُصدِّقُ ما جرى، إن أخبرت سأبقى هنا فترةً أطول، بينما (أمل) تنتظرني لأعرفها باسمها.. وصفتها..

فاطمة الزهراء بدوي

الـهَديَّة

الأحداث عن قصة حقيقية حدثت في إحدى دول الخليج

....

– ألو...هل ما زلتِ معي يا هبة؟

– نعم... أين ذهبتَ؟

– ظننت الباب يطرق، الإنذار كاذب كالعادة، أحيانًا أبناء الجيران يضربون الجرس ويهربون، هؤلاء الأشقياء سأقصف رقبتهم السمينة يومًا ما...ماذا كنا نقول؟

– كنتِ تشتكين عدم عثورك على خادمة.

– حقًّا.. إنها مشكلة فظيعة أعانيها خاصة أن زوجي مسافر في مؤتمر طبي، الخادمة الأخيرة كانت غير نظيفة بالمرة، ولا تعتني بالأولاد بحجة أن العناية بالأطفال ليست من صميم عملها، تحدثتُ مع مكتب الخدمات المنزلية وطلبت منهم أن يراعوا مواصفاتي التي أطلبها نظير

المبالغ الضخمة التي يحصلون عليها كل أول شهر، وعدوني بهدية على حد قولهم.

– وهل وصلت؟

– لم تصل بعد، ما زلتُ بانتظارها..

– أخبريني عنها عندما تصل ربما أتعامل مع مكتب الخدمات الذي تتعاملين معه لو صدقوا معك.

– جرس الباب، لا بد أنهم وصلوا..

ضحكت صديقتها:

– وربما أولاد الجيران الأشقياء المستحقين قصف الرقبة.

– ربما..سنرى سأكلمك لاحقًا..إلى اللقاء.

ازداد إصرار طارق الباب بالضغط على زرِّ الجرس، حتى تمكنت من الوصول وفتحه باستعداد لتوبيخ أولاد الجيران عندما رأت ذلك الوجه الباسم بلباسه الرسمي، بذلة سوداء ورباط عنق باللون نفسه، تبدو باهظة الثمن:

– عفوًا، أأنتِ السيدة ياسمين الوكيل؟

– نعم..ومن تكون؟!

أحنى رأسه باحترام مبالغ:

- مندوب مكتب الخدمات المترلية، يحيى الشرنوبي..

- أه...أهلًا وسهلًا...ولكن لم يتصلوا بي ليخبروني بوصولك.

- قد يكون حدث خطأ ما، أو قد تكون الموظفة المسئولة عن ذلك قد انشغلت بأمر ما عن إخبارك، سأبلغ الإدارة ليتم معاقبتها...أعتذر عن اقتحامي بيتك دون موعد..اسمحي لي...

أفاقت من ذهولها، فقد كان يملك طريقة جذابة بالحديث يجبر المستمع له على الإنصات والتيه في نبرة صوته الرخيمة، بينما تأسرك عيناه..انتبهت لانصرافه فأوقفته قبل أن يبتعد عن عينيها:

- انتظر يا..

التفت بنظرة جعلت القشعريرة تسري في جسدها وهو يكمل:

- يحيى الشرنوبي..

- أه..آسفة...لقد وصلت هنا على أي حال، ولا داعي لأن أكون المتسببة بالأذية للموظفة، قد تكون قد اتصلت بي فعلًا، ولم أسمع الهاتف...

بابتسامة رغم جاذبيتها لم تصل لعينيه:

- نعم...قد يحدث هذا أحيانًا..

- لا بأس بالنسبة لي...لندخل في موضوع سبب وجودك هنا...

- لقد وعدَتْك الإدارةُ بهدية..

- حقًّا...وهل جلبتها معك؟

- بالطبع...أقدِّم لك... مياو..

أخذ خطوة جانبية لتظهر تلك الفتاة القصيرة نسبيًّا...شهقت ياسمين، فالفتاة وكأنها ظهرت من العدم! وضعت يدها على صدرها تُهدِّئ من ضربات قلبها السريعة، تُحدِّجُ الفتاة بنظرة عاجزة عن تفسير ما يحدث:

- أأنتِ بخير سيدة ياسمين؟

- نعم...أعني...هل كانت الفتاة معك من البداية؟

أومأ بابتسامته الجذابة:

- بالطبع..

- ولكنني لم أرَها عندما...

وأخذت تعتصر ذهنها؛ تُعيد تكرار المشهد مرارًا عندما استدار وكان على وشك الرحيل...هتف يستحثُّها:

- سيدة ياسمين... كنتِ تقولين شيئًا؟

كانت ما تزال تُحدِّق إلى الفتاة ذات الملامح الآسيوية عندما انتبهت لنبرته الغريبة التي أخرجتها من أفكارها بقوة مغناطيسية زادت من شعورها بالرهبة:

– لا...ربما كنتُ شاردة الذهن...هل قلتَ اسمها؟

أكمل بتركيز على كل حرف:

– مياو شاو.

– هل تتحدث العربية؟

– بطلاقة..

مدت يدها تصافحها:

– مرحبًا بك مياو...

رفعت الفتاة القصيرة رأسها ولم تمد يدها وهي تحدج يد ياسمين بنظرة مرتابة...ثم نظرت ليحيى الذي أومأ لها بنظرة مشجعة:

– صافحي السيدة ياسمين يا مياو...فهي مخدومتك منذ هذه اللحظة، وعليك طاعتها في كل أوامرها، هل كلامي مفهوم؟

هزت رأسها بقوة:

– مفهوم...الطاعة في كل الأوامر..

ارتعش بدن ياسمين من تلك النظرة الغريبة التي أولتها الفتاةُ ليحيى، قبل أن يستأذن وينصرف وقبل أن تستطيع إيقافه هذه المرة، لتكتشف بعد لحظات أنها لم تتحدث معه عن أي تفاصيل.

انتحت بارتباك وهي تُشير للفتاة أن تدخل:

- تفضلي بالدخول...

- شكرًا مدام...

تأملتها ياسمين وهي تتجاوزها...كانت عادية جدًّا كأي فتاة آسيوية تعمل بخدمة المنازل..بداية من الشعر الأسود الحريري المعقوص ذيل حصان، نزولًا إلى تي شيرت عليه خطوط لرسوم كارتونية، وحتى البنطلون الجينز الكالح، نهاية بحقيبتها القماشية الصغيرة، ولكن نظرة عينيها كانت مختلفة تمامًا عن أي خادمة أخرى...

تجاهلت ياسمين القشعريرة التي أمسكت بمفاصلها، أغلقت الباب وأشارت للخادمة:

- تفضلي...سأرشدُك لغرفتك، ثم أعرفك إلى أولادي.

أومأتْ مرة أخرى بإطراقة وهي تتبعها دون أن تتجوّل عيناها بفضول في محيطها الجديد.

اندفعت بسؤال أثار استغراب مخدومتها:

- هل هم صغار؟

التفتت لها تُضيِّق عينيها مع تقطيبة لجبينها:

- هل هذه مشكلة بالنسبة لك؟ ظننتُ أن شروطي واضحة لمكتب التخديم.

- عفوًا مدام...لم أقصد...أنا أرحب بالأطفال الصغار، فهم رائعون وممتعون.

زفرت ما بصدرها من هواء احتبسته طويلًا:

- جيد...فقد كنتُ على وشك إلحاقك بالسيد يحيى ال-...شرنوبي.

احتضنت الفتاة حقيبتها القماشية مُجيبةً بحماسة ولكن دون ابتسام:

- لا...لا داعي...أنا أحب الأطفال كثيرًا...

فتحت ياسمين باب غرفة بجوار المطبخ ولوحت لها:

- هذه غرفتك...أما أولادي..أتمنى ألا تتراجعي عندما تضجين من مشاكساتهم...بإمكانك اعتياد غرفتك والاغتسال ثم تلحقين بي لأعرفك إلى الأولاد، وأطلعك على قانون المترل، ليكون معلومًا لديك ما هو مطلوب منك بالضبط.

مع استمرار إيماءاتها ساورها الشكُّ أن تكون فهمت كلمة واحدة:

– مياو... هل تفهمين كلامي؟

– نعم مدام...كلام أنت مفهوم تمامًا..أنا أتحدث العربية بطلاقة...سأغتسل وألحق بك لأتعرف إلى الأولاد.

مطَّت شفتيها بإعجاب وتقدير، ثم حيَّتها بابتسامة وهو تغادر غرفتها...

بعد أسبوع..

– هبة..مرحبًا...لم تخبريني في الهاتف أنك قادمة!

كانت عينا هبة تجولان في المكان وهي تصافح صديقتها وتقبلها:

– جئتُ أرى الهدية التي تتباهين بها منذ أسبوع...ما هذا الترتيب؟! وما كل هذه النظافة؟!

رفعت ياسمين حاجبيها بإعجاب متباهٍ:

– وليس هذا فحسب...فهي تهتم بمذاكرة الأولاد وبنظافتهم، بالإضافة لإطعامهم صنوفًا لم تسمعي بها من قبل...

جلست هبة على أريكة الصالون وهي ما تزال مبهورة بالمكان:

– وكم أجرة هذه الهدية في الشهر؟

مطّت ياسمين شفتيها بتنهيدة:

– منذ أن تركها مندوب المكتب عندي، حاولت عشرات المرات الاتصال بهم لمعرفة التفاصيل، ولكن لا أحد يجيب...ربما هاتفهم مُعطّل...سيحاولون الوصول لي بالتأكيد عندما يحين أول الشهر.

هتفت هبة بعينين تبرقان إعجابًا:

– تستحقُّ كل جنيهٍ بلا شكٍّ.

ضحكت ياسمين ثم نادت خادمتها التي أسرعت ملبية النداء بكل همة ونشاط:

– مياو...مياو...

حدجتها هبة باستغراب:

– ما هذا الاسم الغريب؟ حتى ملامحها تُشبِه القطط...

تجاهلتها ياسمين وهي تُوجِّه حديثها لخادمتها:

– مياو...لو سمحتِ...هاتِ الأولاد ثم قدِّمي لنا بعض الحلويات الشهية التي صنعتِها لنا اليوم...

بانحناءة خفيفة لبَّت الفتاة أوامر سيدتها دون أن تنطق، ولكن بعد أن أهدت الضيفة نظرة حادة من زاوية عينها جعلتها تنتفض مما أثار انتباه ياسمين:

- هبة..هل تشعرين بالبرد؟ هل أشعل التكييف؟

أجابتها بذهن شارد وهي تُشيِّع الخادمة حتى اختفت:

- لا...لا داعي...ولكن..

- آه...أنا أيضًا في اليوم الأول كانت نظرات مياو تصيبني بالخوف...ولكن بعد فترة اعتدتها..

ثم تابعت بعد ضحكة مقتصدة:

- أظنُّ أنها طريقتها في مقابلة الغرباء أول مرة...

دخل الأولاد مهللين يرتمون في أحضان الضيفة:

- ما شاء الله...نرمين ومحمود تظهر عليهما النعمة يا ياسمين...

أشارت للطفل بين ذراعي خادمتها:

- ماذا ستقولين عندما ترين ميدو...

اتسعت عيناها بدهشة وهي تتلقف الصبي ذا الوجنات السمينة البيضاء:

- ما شاء الله...الله أكبر...سألتهم هذه الوجنات اللذيذة..

وشرعت بعضة والطفل يناغي ضاحكًا..عندما فوجئوا بالخادمة تضرب قدمها بالأرض باحتجاج:

– مدام...هذا لا يجوز...أنت أمر أن ميدو لي...أنا سألتهمه عندما يصبح سمينًا!

وضجَّت ياسمين بالضحك بينما تشوشت هبة وهي تُجيل النظرات المرتبكة بين صديقتها الضاحكة والخادمة الجادة تمامًا في ملامحها...وضعت ياسمين يدها على يد هبة لتُهدِّئ من روعها..بينما تخاطب الخادمة:

– لا بأس يا مياو...هبة لا تقصد...ميدو لك ولن ينازعك أحدٌ فيه...هيا يمكنك أن تحضري الحلوى لنا..

حدجت هبة بنظرة أخرى رأت فيها التماعًا أصفر غريب ما لبث أن اختفى وهي تدير ظهرها لتنفيذ أوامر مخدومتها:

– هبة...هبة...ماذا بك؟

نظرت لها هبة باستغراب:

– لا تحاولي إقناعي أن تلك الخادمة غريبة الأطوار لا تُخيفُك!

ضجت ياسمين بالضحك مرة أخرى:

– لا أصدق أنك خفتِ منها!

اقشعر بدنها وهي تجيبها بصوتٍ خافت:

– الطريقة التي كانت تتحدث بها...ونظراتها نحو...

ثم نظرت للطفل الذي ما يزال يحاول مداعبتها وأردفت:

– نظراتها نحو ميدو...وكأنها...

أكملت ياسمين ضاحكة بسخرية:

– ستأكله...أليس كذلك؟ أيتها المسكينة! وكأننا في زمن إنسان الغاب طويل الناب...أنتِ نفسك كنت ستلتهمين الصبي بأسنانك المتوحشة...

– هل تظنين أنني أبالغ حقًّا؟

ضَجَّ محمود ونرمين بالضحك وقالت نرمين الأكبر سنًّا:

– هذا الحديث دائمًا تقوله مياو...حتى أنها قسمتنا في جدول...قالت إنها ستبدأ بميدو، ثم محمود...وختمت إنني سأكون التحلية الخاصة...

وتوردت وجنتا الصبية بخجل، فتبرم محمود:

– وكأنها لا تعلم أن لحمك مذاقه مُرٌّ كالعلقم...

ضحكت بصوت عالٍ:

– سأعرف رأيها في مذاق لحمك فستأكلك أنت قبلي...ولن تكون موجودًا عندما تلتهمني...

هتفت هبة بغير تصديق:

– أأنا العاقلة الوحيدة في عائلة المجانين هذه؟!

دخلت مياو تجرُّ عربة الشاي، تحمل ممّا لذَّ وطاب من حلويات وعصائر، بانحناءة خفيفة تمتمت:

– هل من خدمة أخرى مدام؟

– شكرًا مياو...تستطيعين الانصراف...

حدجت هبة بعدائية لا تخفى عن العين المجردة:

– هل أستطيع أن آخذ ميدو معي؟

بدفاع غريزي أحاطته هبة بذراعيها فضحكت ياسمين:

– لا تقلقي يا مياو...هبة تحب أن يبقى معها حتى تذهب... ولا تقلقي لن تأكل منه أي شيء..

تقوّست شفتا الفتاة بغيظ:

– أأنت متأكدة مدام؟

هزّت ياسمين رأسها لا تستطيع منع نفسها من الضحك على موقف صديقتها والخادمة وكأنهما تحولتا لمتباريتين في معركة...

– اذهبي الآن يا مياو...قلتُ لك لا تخافي.

صرخت هبة بذعر:

- لا...مستحيل...لا يمكن...هذه الفتاة غير طبيعية بالمرة...ياسمين ماذا دهاك!

مدّت لها ياسمين يدها بطبق مزدحم بالحلوى الشهية المغطاة بطبقات كثيفة من الشيكولاتة السائلة... سال لعابها فتناولت ياسمين منها الصبي بينما تمسكت بالطبق بكلتا يديها قائلة وهي تلتهم أول قطعة بتلذُّذ كبير:

- أمممم...لذيذة فعلًا...ولكن هذا لا يمنع أن...

ثم تناولت ملعقة أخرى منعها مذاقها السحري من النطق بكلمة واحدة أخرى حتى أنهتْ كامل ما في الطبق...

- ما رأيك؟

لوَّحت بيدها غير قادرة على الإتيان بأي حركةٍ أو حتى الحديث...ناولتها ياسمين الشاي:

- تذوقي هذا الشاي أيضًا، إنه مصنوع من أعشاب خاصة تنمو في بلدة مياو.

ارتشفت أول رشفة ليرتفع حاجباها أتوماتيكيًّا بإعجاب:

- هذا رائع يا ياسمين...متى ستطردين هذه الخادمة؟

- في أحلامك يا عزيزتي...عليكِ البحث عن واحدة أخرى...بلا أي ضمانة من جانبي...فلا يوجد إلا مياو واحدة فقط...

تراجعت هبة في المقعد الوثير تحتضن فنجانها بحميمية ترتشف منه على مَهَلٍ وكأنها لا ترغب بالانتهاء منه أبدًا...

....

بعد أسبوع...

دخلت ياسمين على عجل متأخرة عن موعدها لتجد السفرة معدة بكل ما لذّ وطاب من طعام اعتادته مؤخرًا...

كان محمود ونرمين جالسين في مكانيهما على السفرة، نظيفين تكاد الابتسامة تختفي داخل وجناتهما المكتظة...جلست في مكانها تشتمُّ الرائحة الشهية:

– أعتذر عن التأخير...كيف حالكما يا طفليَّ؟ هل تذمرت مياو لتأخري؟

غمغمت نرمين:

– قالت بعض الكلمات مفادها أنها المرة الأخيرة التي ستسمح لك بالتأخر فيها..

صاحت بصوت مرتفع:

– مياااو لقد عدت...آسفة على التأخير..

ظهرت مياو تحمل باقي الأطباق بين يديها ووضعتهما على السفرة تُحدِّج ياسمين باتهام:

– هذه المرة الأخيرة...غير مسموح بالتأخُّر عن مواعيد الطعام!

– آسفة...لن تتكرر...كيف حال الأولاد اليوم؟

– كل شيء تمام...انتهينا من عمل الواجب المدرسي...أُجهِّز للصغيرين وجبةً كبيرةً من البطاطا الحلوة والحلويات، والآن عليَّ الاستعداد لوجبة الغداء...أليس كذلك يا صغريَّ؟

هَزَّ محمود رأسه بسعادة وتبعته نرمين وشرعا بالتهام أطباق اللحوم والخضراوات أمامهما...

ضحكت ياسمين:

– كنت أعاني إطعام هذين المشاكسين في الماضي...الآن بفضلك أصبحا شرهين للطعام...أسبوع آخر وسنضطر لعمل حمية قاسية حتى لا يصبحان بحجم الأفيال الصغيرة.

صرخت مياو بحدة:

– لا...حمية لا...ممنوع...

عبست ياسمين بغيظ:

- مياو...هذان طفلاي...أشكرك على الاهتمام بطعامهما، ولكن عندما أُقرِّر أنهما وصلا لمرحلة الخطر ولا بد من حمية ما...فلا شأن لك...هل هذا واضح؟

تمتمت بغيظٍ بعد لحظات:

- حاضر مدام..

كانت بطريقها للانصراف عندما سألتها ياسمين:

- وماذا عن ميدو؟ هل هو نائم؟ لا أسمع صوته..

تمتمت بالنبرة المغتاظة غير المبالية نفسها وهي تُلوِّح بيدها:

- الباقي منه في الثلاجة...هل تطلبين شيئًا آخر؟

مرت لحظات كثيرة حتى استوعبت ياسمين كلمات الخادمة...

- عفوًا...ماذا قلت؟

قلبت مياو شفتيها:

- قلت...الباقي منه في الثلاجة...كان سيفسد لو أبقيته خارجها..

خُيِّل إليها أن رئتيها توقفتا عن التنفُّس:

- ماذا يفعل ابني في الثلاجة؟ أخرجيه فورًا.

تأففت الخادمة:

– أنتِ وافقت أن آكله وحدي ولم تطلبي مني اقتسامه معك!

بدأت ياسمين الصراخ بهستيرية:

– ماذا تقولين أيتها المعتوهة! أين ابني؟!

هزّت كتفيها وأنياب زرقاء تستطيل من جانب شفتها العلوية، وعيناها تلتمعان ببريق أصفر مخيف:

– لا تصرخي سأحضر لك ما تبقى منه...ولكن هذه آخر مرة أقتسم معك طعامي...هذان...

وأشارت لنرمين ومحمود اللاهيين عما يحدث في التهام طعامهما بشراهة وأردفت:

– هذان لي...سآكلهما حتى آخر عظمة في جسديهما الصغيرين...ولن تقتسميهما معي!

....

جرس طويل مستمر...يفتح الباب على سيدة مُتأفّفَة:

– ماذا...ألم تري جرسًا في حياتك؟!

– عفوًا سيدتي...لم أقصد إزعاجك.

أعجبتها لهجتها المهذبة ولباسها المهندم... بذلة سوداء مع رباط عنق من اللون نفسه:

– لا بأس..مَن أنت؟

– مندوب مكتب الخدمات المنزلية، ياسمين الوكيل لقد اتصلت بنا تطلبين خادمة... لقد وعدتك الإدارة بهدية..

– حقًّا... وهل جلبتها معك؟

– بالطبع...أقدم لك... مياو...

....

....

ميرفت البلتاجي.

سيلفي_مع_شبح#

– صدقني يا حسام ستكون مغامرة رائعة لن تنساها أبدًا.

نَطَقَ ذلك الفتى ذو الاثني عشر عامًا بالجملة السابقة وهو ينظر إلى فتى يماثله في السن وهما يجلسان معًا في فناء مدرستهما في أثناء فترة فسحتهما المدرسية.. حيث جلسا على أحد المقاعد بعيدًا عن لهو زملائهم وأقرانهما المستمتعين بتلك الدقائق التي يحصلون عليها في منتصف اليوم الدراسي للاستراحة قليلًا من تلاحُق الحصص في أثناء اليوم الدراسي الممل الطويل.

ولقد نظر إليه حسام زميله وصديقه مترددًا خائفًا قبل أن يقول له في جزع:

– ما هذا الذي تقوله يا حازم؟ أجننت؟ هل تريد مني أن أوافقك وبكامل إرادتي الحرة على دخول بيت قاسم بك المهجور؟ أما زلتَ مُصِرًّا على هذه المغامرة المجنونة برغم رفضي القيام بها معك عشرات المرات من قبل؟

قال له حازم متحمسًا ومُحاولًا إقناعه:

- وماذا في هذا؟ صدقني ستكون مغامرة شائقة وممتعة.. سيتكلم الجميع عن شجاعتنا وإقدامنا وجرأتنا.

قال حسام وهو يشيح بيديه في ذعر:

- أو حماقتنا.

هَمَّ حازم بالاعتراض لكن حسام أكمل قائلًا في عصبية:

- أنسيتَ ما يُقال عن هذا البيت والأشباح التي تمرح في أرجائه.. أنسيتَ ما يقوله آباؤنا عمَّن دخلوه ولم يعودوا.. أنسيتَ تحذيراتهم لنا من عدم الاقتراب من ذلك البيت أو محاولة دخوله لئلا ينتقم منا شبحُ قاسم بك الرهيب..أنسيتَ أن رجالًا كبارًا بالغين يخشون دخوله.. كل هذا وتريد منا نحن الفتيان الصغار الضعفاء أن ندخله؟

حاول حازم تهدئته وهو يقول له:

- نعم أعلمُ، وأعلمُ أنهم يقولون لنا إن هذا البيت مهجور منذ أن قام صاحبه قاسم بك المُختل عقليًّا في إحدى نوبات جنونه بقتل زوجته وأطفاله به قبل أن ينتحر.. وذلك منذ عدة سنوات.

قال له حسام عندها:

- إذًا فلقد أخبروك أيضًا أن روح قاسم بك الغاضبة تمرح في المنزل من حينها وتُصيب أي أحدٍ سكنَه بعدها بالرعب والفزع

الرهيب مما جعل أكثر مَن سكنه إقامة به لم يستمر أكثر من ثلاثة أيام قبل أن يُهرع منه هاربًا وهو يتحدث عن تلك الأشياء الرهيبة التي حدثت له بداخله.

قال حازم في حماسةٍ:

– نعم أعلمُ.. ولكني أعلمُ أيضًا ما قاله لي خالي من كذب هذه الروايات.. وأنه لا توجد أشباح في هذا المترل بالرغم من صدق رواية قتل قاسم بك لعائلته.. ولكنه – قاسم بك – لم يعد بعدها سواء كان شبحًا أو غيره. وأن هذه كانت حيلة من أحد الأشخاص الراغبين في شراء المترل بثمن زهيد وذلك عن طريق إشاعة مثل هذه الشائعات حوله وإخافة مَن يسكنه بحيلٍ صِبيانية تافهة.. حتى يعزف المشترون عن شرائه ويهبط ثمنه للحد الأدنى ويأتِي هو لشرائه بأقل سعر.. وهذا ما شجعني على تلك المغامرة.. تخيَّل منظرنا أمام زملائنا ونحن نعود ظافرين سالمين من ذلك البيت الذي يخشاهُ جميع سكان المنطقة.. حاملين معنا حَلًّا لألغازه وكاشفين لأسراره.

قال حسام وعلامات الخوف لا تفارق وجهه:

– وما الذي أدراك أن رواية خالك هي الحقيقية.. ربما يكون مُخطئًا ويكون البيت به أشباح بالفعل.. ما الذي يضمن لنا رجوعنا سالمين عندها.. خصوصًا أنه لم يتقدم أحد لشرائه بالفعل من مدة

طويلة.. ثم ما الإثبات الذي سنثبت به لزملائنا أننا دخلنا هذا المترل وخرجنا منه سالمين.. هذا إن خرجنا أصلًا!

تجاهل حازم النصف الأول من سؤاله والخاص برجوعهم سالمين فلم يكن لديه ردٌّ عليه في الواقع!

وقرَّر الإجابة علي النصف الثاني من تساؤله وهو التساؤل الذي كان ينتظره منذ البداية فقال له بلهجةٍ ذات مغزًى:

– هذه المرة أنا قادر على إقناعك.. فلديَّ الوسيلة التي ستساعدنا في مهمتنا وتساعدنا على كشف الحقيقة، وستثبت للجميع مغامرتنا وتخبرهم بمدى شجاعتنا.

وهنا وكما توقع حازم تمامًا تغلب فضول حسام المعروف على خوفه الأسطوري وهو يسأله باهتمامٍ:

– وما هذا الشيء؟

قال حازم:

– هما في الواقع شيئان.. هذا أولهما.

وقام بإنزال حقيبته المدرسية – التي أصَرَّ على اصطحابها معه أثناء الفسحة – عن كتفه وهو يخرج منها شيئًا ما أراه لحسام قائلًا:

– هذا.

نَظَرَ حسام إلى ذلك الجهاز الأشبه بعصاة طويلة ذات مصباح أحمر صغير في مقدمتها ثم نظر إلى حازم في غباء وهو يسأله في عدم فهم:

– ما هذا؟ أهذا هو سلاحك السري الذي ستضرب به الأشباح إذا جاءت لالتهامنا؟

تجاهَلَ حازم نبرة السخرية الواضحة في صوت حسام وهو يقول له في حماسة:

– هذا أحدث جهاز أميركي لكشف الأشباح.. أنت تعلم أن عمي كان مسافرًا للولايات المتحدة الأمريكية في مهمة عمل، ولقد عاد أمس، وأحضر لي هذا الجهاز معه حسب طلبي منه وإلحاحي عليه.. إن هذا الجهاز له القدرة على كشف الأشباح في محيط مئة متر.. حيث تُنير تلك اللمبة الحمراء ويظهر صوت أزيز عند وجود شبح في المحيط.. يكفي أن تضغط على هذا الزر فيقوم الجهاز بعمله فورًا.

قال حسام وقد عاوده التردُّد والخوف:

– أهذا هو ما سيساعدنا ويثبت للجميع شجاعتنا؟

قال له حازم بسرعة:

– ليس هذا فحسب، ولكن الشيء الآخر أيضًا.

وأخرجَ مُسرعًا شيئًا آخر من حقيبته وأراه لحسام مبتسمًا..

نظر حسام في استنكار إلى ما بيدي صديقه قائلًا:

– ماذا؟ كاميرا؟ وبِم يمكن أن تُفيدنا هذه.. أتنوي التقاط صورة مع الأشباح؟

قالها وانطلقت ضحكاته عالية وقد تغلّب هذه المرة إعجابه بمزحته على خوفه..

ولكن ضحكاته انقطعت وانعقدت في حلقه عندما سمع حازم يقول له:

– بالضبط.. سنلتقط بها صورًا.. أو بالأحرى في حالة وجود شبح سنأخذ بها صورة سيلفي..سيلفي مع الشبح!

لينظر حسام إليه في ذهول وقد عاوده ذُعرُه مُتزايدًا ألف مرة!

***

كان الذهول يبلغُ أشُدَّه على وجه حسام، وهو ينظر في وجه صديقه حازم قبلَ أن يقول بصوت مرتجف:

– ماذا قلت للتوِّ يا حازم.. يُخيَّلُ إليّ أني لم أسمعك جيدًا."

قال له حازم – وقد بدا واضحًا أنه قد تعود جُبن صديقه وتردده – بصوت ملأه بالتشجيع والحماسة:

– لقد سمعتني جيدًا يا صديقي.. وأنا أعني ما قلتُ تمامًا.. سندخُلُ البيت ونستكشف جوانبه.. وإذا وجدنا أي أشباحٍ سنأخذ صورة سيلفي معها ونخرج فورًا.. أما إذا لم نجد فسنأخذ صورًا عادية لنا بداخل المنزل وأمامه ونريها أصدقاءنا في اليوم التالي.

قال حسام بعناد:

– حسنًا.. افترض أني وافقتُك على هذه المغامرة المجنونة.. كيف ستلتقط صورًا للأشباح وهي معروف أنها في الغالب لا تظهر في الصور إلا فيما نَدَرَ؟

قال حازم بفخر وهو يرفع كاميرته الجديدة وقد بدأ يشعر بقرب موافقة حسام:

– هذا ما ستتولاه كاميرتي الجديدة العزيزة.. فإنها ليست بأي كاميرا.. لقد دَفَعَ فيها عمي مبلغًا باهظًا لم يكن ليدفعه لولا حبه الشديد لي؛ ولأنها أول مرة أطلب منه شيئًا.. إن هذه الكاميرا صُنعت خصيصى وبتقنية عالية لتصوير أي شيء.. خصوصًا الأشباح.. حيث تظهر في الصور مهما يكن شكلها وحولها هالة بيضاء منيرة.. صديقي إن هذه كاميرا لتصوير الأشباح!

نظر حسام إلى الكاميرا في دهشة شديدة ثم تناولها من حازم الذي كها له يتفحصها ويقلبها بين يديه وكأنه يتوقع خروج الأشباح منها وإحساسه بقرب موافقة صديقه على هذه المغامرة يتزايد ويتزايد..

ولكنه صُدِمَ صدمة عمره عندما أعاد حسام له الكاميرا قائلًا في حزم الدنيا كله وهو يقف:

– لا يا حازم.. لن أشترك معك في هذه المغامرة المجنونة.. أنت تعلم مدى حبي لك وأني لا أرفضُ لك طلبًا أبدًا منذ بدء صداقتنا التي استمرت منذ طفولتنا ودخولنا المدرسة معًا.. ولكني لن أستطيع.. لن أذهب وهذا قراري النهائي.

وتركَ صديقه المصدوم جالسًا مكانه وانصرف بينما بدأت تظهر على وجه حازم علامات الإحباط الشديد.. فهو يعلم أن شجاعته تلك زائفة وأنه يخاف، وربما أكثر من حسام نفسه، ولكن ذلك التهوُّر الطفولي به هو ما دفعه إلى التفكير في تلك المغامرة.. وكان يعلم أنه لن يدخُلَ ذلك البيت بمفرده..أبدًا! وأن مغامرته انتهت قبل أن تبدأ.

***

في اليوم نفسه وبعد العشاء كان حازم يجلس على سريره في غرفته حزينًا بعد أن ظل بها منذ عودته من المدرسة حيث رَفَضَ تناوُل طعام الغداء برغم إصرار والدته مُتحجِّجًا بأنه قد أكلَ بعض الشطائر بالمدرسة.. ولكن الحقيقة أنه قد فَقَدَ الرغبة في الطعام نهائيًّا بعد رفضِ حسام الاشتراك معه في مغامرته ومع حالة الإحباط الشديدة التي انتابته بعدها.. حتى أنه كان يفكر كيف سيواجه والدته بعدم رغبته في تناول العشاء أيضًا.

ولقد كان يضع أمامه كاميرته الحديثة التي بدأت تورثُه مزيدًا من الحزن برغم وجودها أخيرًا معه وهو الذي كان يحلم بامتلاكها، ولكنه بعد أن امتلكها عَلِمَ أنه لن يستطيع الاستفادة منها..

– حازم.

انطلقَ هذا الهُتاف على مقربة منه فانتفضَ مذعورًا وهو ينظر إلى مصدره ليجد حسام أمامه واقفًا وهو يضحك بشدة قائلًا:

– ماذا حدث لك يا صديقي الشجاع؟

نظر إليه حازم حانقًا قبل أن ينهضَ من سريره قائلًا:

– أهو أنت؟ لقد أفزعتني يا حسام.

واتَّجه إلى ذلك المكتب الصغير بغرفته والذي يستذكر عليه دروسه وجلس خلفه وهو يُشير لحسام بالجلوس كما اعتادا دائمًا خلال مذاكرتهما لدروسهما معًا.. حيث لم تكن أول مرة يزوره بها حسام.. ولقد جلس حسام وهو مستمر في الضحك قائلًا:

– ليتك رأيتَ منظرك يا صديقي وأنت تنتفضُ مذعورًا.. أين ذهبتْ شجاعتُك الفائقة ؟

كان حازم مغتاظًا بشدة من تهكُّم حسام عليه، ومن فزعه أمامه وهو الذي يظهر دائمًا أمامه بمظهر الشجاع المقدام، فأراد تغيير دفة الحديث بعيدًا عن هذا، فسأل حسام:

– منذ متى وأنت هنا؟

قال له حسام:

– أنا أقِفُ أمامك منذ خمس دقائق.. لقد فتحتْ لي والدتُك الباب وقمتُ بطرق غرفتك ولم تجبني فدخلتُ، ووقفتُ أتطلّعُ إليك خمس دقائق كاملة دون أن تشعر بوجودي.

نظر إليه حازم بدهشة وهو يقول:

– ألهذه الدرجة كنتُ لا أشعرُ بما حولي؟

قال له حسام وهو ينظر إليه بإشفاق قائلًا:

– مسكين يا صديقي.. يبدو أن موضوع بيت الأشباح هذا يشغلك بالفعل!

نظر إليه حازم دون أن يجيب، فأكمل حسام:

– حسنًا.. لديَّ خبرٌ سيفرحك.. لقد وافقتُ.. سأذهبُ معك يا صديقي وليحدث ما يحدث.

قَفَزَ حازم من مكانه فرحًا وهو يقول بمنتهى السعادة:

– حقًّا؟! حقًّا ستذهب معي يا حسام؟

أجابه حسام بصوتٍ لم يخلُ من التردُّد:

- نعم يا صديقي.. فلقد شعرتُ بأهمية ذلك الأمر لكَ. وفكرتُ كثيرًا جدًا ووجدت أني لا يجب أن أتخلّى عنك في أمرٍ كهذا.. فأنت لم تتخلَّ عني يومًا، وكنتَ دائمًا نعم الصديق والأخ الذي لم تلده أمي.. ودائمًا كنتَ تحميني وتدافع عني ضد مضايقات زملائنا المشاغبين حيث تعلم أني لا أهوى المشكلات.. فكيف أتخلّى عنك الآن.

اتَّجه حازم إليه ليعانقه في فرح لكن حسام أوقفه قائلًا:

- هيا لا تُضع الوقت.. قم بتغيير ملابسك وسأنتظرك بالأسفل.. فسننطلق الآن.

هَتَفَ حازم بسعادة الدنيا بأكملها:

- الآن؟!

قال حسام وهو يتحرك خارجًا:

- نعم.. مَن يدري؟ فربما لن تُتاح لي فرصة أخرى.. فاليوم هادئ وبين الاثنان ليس لدينا واجبات منزلية كثيرة.. هيَّا، لا تتأخر.

واتَّجه ناحية الباب ولكن حازم استوقفه قائلًا:

- حسام.

توقَّف حسام ونظر إليه مبتسمًا فقال له حازم:

- أشكرك يا صديقي.

اتسعت ابتسامةُ حسام برغم ملامح التردد على وجهه وهو يقول لحازم:

– لا تشكرني يا صديقي فهذا أقل ما أفعله من أجلك، وأَعِدُك بأني سأسعى جاهدا لتحقيق حلمك بأن تنال سيلفي مع شبح.

وخَرَجَ في تردُّد من الغرفة أمام فرحة حازم العارمة وهو يقوم بتغيير ملابسه غير عالمٍ بما سوف تخبئه تلك المغامرة. الرهيبة!

***

وقف الصديقان أمام بيت قاسم بك المهجور يتطلعان إليه والخوف يتسلل شيئًا فشيئًا إلى نفس حازم وهو يفكر في التراجُع عن تلك الحماقة التي أوقع نفسه بها. ولقد أتته الفرصة عندما قال له حسام:

– إذا كنتَ تفكر في التراجُع يا صديقي فالآن هو الوقت المناسب.

نَظَرَ إليه حازم مندهشًا، فلقد بدا كأن حسام قد قرأ أفكاره بتلك الكلمة، ولكنه وبرغم خوفه قال في عناد:

– لا.. لن أتراجع الآن.. سندخل.

قال له حسام:

– حسنًا.. كما تريد.

ثم أشار إليه قائلا:

– تقدَّم أنتَ وأنا وراءك.

بدأت الشجاعة تعود شيئًا فشيئًا إلى حازم وهو يبتسم قائلًا:

– أه.. لقد عادَ لك جُبنُك أيها الجبان!

ابتسمَ حسام وهو يقول:

– كما يقولون..الجبن سيد الأخلاق يا صديقي:

ضَحِكَ حازم برغم خوفه ولم يُعلِّق وهو يتقدَّم حاملًا كاميرته وجهاز كشف الأشباح ليدفع باب حديقة المترل الصدئ الذي انفتح مع دفعته مُصدرًا صريرًا مكتومًا ليدخل منه حازم ووراءه حسام بخطوات بطيئة متوترة. ولقد عبر الاثنان الحديقة وهما يتلفتان حولهما، ولكنهما لم يلاحظا أي شيءٍ غريب أو غير طبيعي باستثناء تلك الأشجار الجافة التي تساقطت أغصانُها وأيضًا تربة الحديقة التي خلت من الأعشاب والحشائش كأمر طبيعي لإهمالها فترة طويلة من الزمن.

ووصل الاثنان إلى باب المترل ليجداه مفتوحًا! نظر حسام إلى حازم الذي قال له مُشَجِّعا بصوت خرج متوترًا:

– طبيعي أن يكون مفتوحًا مع هجره فترةً طويلة.. هيَّا بنا ندخل.

ثم أخرجَ من جيبه كشافًا قويًّا أشعله وهو يتقدَّم إلى داخل البيت بينما تردد حسام قليلًا قبل أن يلحق به.

ووقف الاثنان بالداخل وحازم يُدير كشافه في أرجاء المكان ليظهر لهم البهو الواسع الخالي إلا من بعض الأثاث القديم المتناثر هنا وهناك.

قال حازم بصوت خرج رغمًا عنه مرتجفًا:

- حسنًا.. سأقوم الآن بتشغيل جهاز كشف الأشباح.

ظهر الخوف الشديد، والتوتر على وجه حسام عند هذه النقطة وهو يقول:

- ألا بد مِن هذا؟ لو كانت توجد هنا أشباح فستعثر هي علينا قبل عثورنا عليها!

قال حازم وهو يضغط زر تشغيل جهازه:

- ولكننا على الاقل سنتأ....

وبَتَرَ عبارته مع ذلك الأزيز العالي الذي صَدَرَ من جهازِه بمجرد تشغيله! ومع تراجُع حسام في توتر شديد ارتجفَ جسدُ حازم في رعب أشد، وقد فشلَ في السيطرة على فزعه هذه المرة. فهذا الأزيز العالي يُؤكّد صِدق الشائعات. وأنه يوجد أشباح في هذا البيت..البيت الرهيب!

***

- فلنتراجع الآن يا حازم.

نَطَقَها حسام بصوت مرتجف. وبالفعل كان هذا هو نفس ما يريده حازم بينما كان جهازه يطلق ذلك الأزيز الذي شَقَّ سكون المكان من حولهما..فلقد كان يتوقع - أو يتمنى - أن تكون أشباح البيت مجرد إشاعات وليست حقيقة..ولكن أزيز جهازه أكَّد له أن هذه الروايات ليست إشاعات..ومع ذلك قال في توتر:

- لا يا حسام.. ليس بعد أن وصلنا إلى هذا الحد.. ثم لا تنسَ أن هذا ما جِئنا نبحث عنه في الأساس.. أن نعثر على شبح ونأخذ معه صورة سيلفي ونخرج.. هيا بنا نحاول العثور على هذا الشبح.

وافَقَه حسام برغم علامات التردُّد على وجهه، بينما أوقَفَ حازم أزيز الجهاز المزعج وهما يبدآن التجوُّل في البيت، والعجيب أنه لم يحدث شيء، أي شيء.. لقد استغرقهم التجوُّل ساعتين تفقدا فيها جميع غرفات المنزل وطوابقه وحتى مطابخه وحماماته وقبوه المظلم العفن..

ولكن باستثناء بعض الحشرات والفئران المذعورة لم يقابلا أي مخلوقٍ كان.. سواء كان حيًّا أو ميتًا أو حتى شبحًا!

وبرغم ذلك كان جهاز حازم يُصرُّ على الأزيز في كل مرةٍ يقوم بإدارته فيها، ومع نهاية الساعتين هتف حازم حانقًا:

– تبًّا! أين تلك الأشباح اللعينة.. أهناك مزحة ما أم أن جهازي تالفٌ أو أن عمي تعرَّض لعملية نصب كبيرة؟

قال حسام بصوت ساخر وقد عاد إلى صوته هدوؤه ربما لاطمئنانه بعدم وجود أشباح:

– وربما خافت الأشباح منك أيها البطل!

أحسَّ حازم بالسُّخرية الواضحة في صوت حسام، فالتفتَ إليه وهو يهمُّ بقول شيءٍ ما قبل أن يقاطِعَه ذلك الصوت العالي. انتفضَ جسده بعنفٍ والتفتَ إلى مصدر الصوت مُسرعًا هو وحسام ليشاهدا أحد الفئران وهو يجري على منضدة من المناضد موقعًا بعض الأواني اللامعة من عليها لتحدث ذلك الصوت..

ضحك حسام وهو يقول:

– ما لك أيها البطل؟ أخفتَ من فأر؟

نَظَرَ إليه حازم في غيظٍ وهو يقول له:

– وأنتَ أيها الجبان الأعظم.. أين ذهب خوفُك؟ أبعد أن اطمأننتَ أن المترل خالٍ من الأشباح تتقمَّص دور الشجاع؟

توقَّع أن يثور حسام عليه ولكنه فوجئ به يقول له:

– أعتذرُ لك يا صديقي.. لقد كنتُ أمزحُ فقط، والآن هلَّا خرجنا من هنا؟ لقد تأخَّرنا جدًّا.

كان عنده حق بالفعل.. فلقد تأخَّرا كثيرًا.. ثم إنهم لم يعثروا على شيءٍ بالفعل.. فأشار لحسام بالموافقة، وخرجا معًا من المنزل ولكنهما بمجرد أن عبرا بابه قال حسام:

– مهلًا يا حازم.. لقد نسيتُ شيئًا.. ألن نلتقط صورة لنا مع البيت؟

قال حازم وهو يضرب على رأسه:

– بالفعل.. يا لي من غبيٍّ! لقد نسيتُ.

ثم أخرجَ كاميرته ووقفا هو وحسام أمام المنزل وبعدها رَفَعَ يده بالكاميرا إلى أعلى موجهًا عدستها لهما وشاشتها إلى السماء وحرص هو وحسام على اتخاذ وضعية تصوير تظهر المنظر من خلفهم قبل أن يضغط على زِرِّ التصوير.. وسمع صوت غلق الكاميرا واضحًا قبل أن يسمع صوتًا آخر.. صوت نفاد بطارية الكاميرا!

أنزل يدَه مُسرعًا ونظر إلى شاشة الكاميرا ليجدها مطفأة فهتف:

تبًّا.. لقد نسيتُ شحنَها.. أرجو أن تكون قد التقطت الصورة .

بينما انفجرَ حسام ضاحكًا من سخرية الموقف وهو يقول له:

– يا للأسف! تصوَّر إذا لم تكن الكاميرا قد التقطت الصورة.. سيضيع مجهودنا هباءً!

وقبل أن يعترض حازم بكلمة أشار حسام إليه وهو يقول:

- هيا بنا يا صديقي.

وافقه حازم وخرج معه من باب البيت وعقله يحاول تذكُّر شيءٍ ما غير منطقي لاحَظَه قبل خروجهما من البيت!

أيقظه من خيالاته صوت حسام وهو يقول له:

- إلى هنا نفترق يا صديقي.. فمنزلي من هذه الجهة كما تعلم.

قال حازم:

- حسنًا.. أراك بالغد إذن يا صديقي.. شكرًا لك على مجيئك معي.. لن أنسى لك هذا أبدًا.

ابتسم حسام وهو يقول:

- وأنا أيضًا يا صديقي لن أنسى هذه المغامرة أبدًا.

ثم لوحَّ له وانصرف.. انصرف حازم أيضًا في اتجاه منزله وهو يحاول تذكُّر ذلك الشيء غير المنطقي، وتذكَّر شيئًا فشيئًا.. كان هذا عند سقوط تلك الأواني المصقولة الشبيهة بالمرايا.. حيثُ خُيِّل إليه أنه لمح على سطح أحدها مشهدًا غريبًا.. شيئًا ما غير منطقي.. حاولَ تذكُّر الموقف لمعرفة ما هو غير المنطقي فيه ولكنه لم يتذكَّر.. قط..

***

اليوم التالي في المدرسة.. ذهب حازم متأخرًا وذلك لنومه متأخرًا بعد عودته من ذلك البيت.. كان طابور الصباح قد انتهى والطلبة قد استقروا في الفصول.

صَعَدَ سريعا إلى الفصل، ولحُسن الحظ لم يكن المدرس قد أتى بعد، فاتَّجه إلى منضدته المشتركة مع حسام ولم، يجده كما توقّع فابتسم قائلا لنفسه:

- توقّعتُ هذا.. إنك تتأخر يا حسام في الأيام العادية.. فما بالك باليوم!

وجلس في انتظار المدرس وهو يدعو أن يصل حسام أولًا حتى لا يتعرض لعقاب المدرس.. ولكنه وبعد قليل فوجئ هو والتلاميذ بدخول المدرس وبصحبته ناظر المدرسة، وذلك الأخير يقول بصوتٍ حزين بعد أن وقف في مواجهتهم:

- أبنائي الطلبة.. يُحزنني بشدة أن أخبركم بنبأٍ حزين.. لقد تُوفِّيَ إلى رحمة الله تعالى زميلكم الطالب حسام طلعت، وذلك إثر حادث أليم حيث صدمته سيارةٌ مُسرعة.

شَهقَ الطُّلابُ وانفجر بعضُهم في البكاء، بينما كان وَقْعُ الخبر على حازم كالصاعقة! حسام مات؟! صديقه العزيز مات؟! أخوه الذي لم تلده أمُّه مات؟! ألن يراهُ مرةً أخرى؟! ألن ينعم بقربه بعد ذلك؟! كيف هذا؟! لقد كان معه حتى آخر لحظة أمس!

تغلبتْ عليه مشاعرُه هنا فنهضَ هاتفًا في انهيار شديدٍ:

- كيف هذا؟ مستحيل! ومتى حدث؟ لقد كان معي أمس ليلًا.. مستحيل أن أُصدِّق أنه مات!

نظر إليه الناظر بذهول وهو يقول له:

- أمس ليلًا؟ كيف هذا يا بني.. لقد صدمته السيارة في أثناء عودته من المدرسة عصر أمس وتُوفِّي قبل نقله إلى المستشفى، وتم دفنه مع أذان المغرب.

سَقَطَ حازم على مقعده مذهولًا.

ماتَ أمس عصرًا؟! أي بعد انصرافهم من المدرسة معًا بقليل! كيف هذا؟ لقد كان معه بالليل.. وذهبا إلى المنزل معًا.. تمشيا به وتحدثا و... وأخذا صورة سيلفي معًا!

نَظَرَ إلى حقيبته هنا ثم مَدَّ يده ناحيتها وفتحها في ترددٍ وأخرج منها كاميرته التي قام بشحنها ولكنه لم يقم بتشغيلها بعد، وقام بالضغط على زرِّ التشغيل، وانتفضَ جسدُه بشدة مع ما حدث.. فبدلًا من صورة التشغيل العادية التي يظهر بها اسم الكاميرا وماركتها فوجئ بكلمات تظهر على الشاشة بخط حسام الذي يعرفه جيدًا.. وكانت تقول:

لقد فعلتُ هذا من أجلك يا صديقي.. نفذتُ لك آخر طلب طلبته مني.. سأفتقدُك كثيرًا جدًّا.. إلى اللقاء في عالم آخر..

ملحوظة: المرايا أحيانًا تكون صادقة.

تذكّر هنا ذلك الشيء الغريب الذي لفتَ نظره مع سقوط الأواني.. لقد كانت الأواني المصقولة كالمرايا تنقل قبل سقوطها صورة المكان الذي كانا يقفان به، ولقد رأى على أحدها مشهدًا له وهو يقف بمفرده دون وجود حسام بجانبه برغم أن المشهد كان ينقل المكان الواقف به حسام بالضبط! لقد رأى هذا ولكنه حدث في جزء من الثانية فنسيه مع رُعبه من ما حدث.. تم اكتمال تشغيل الكاميرا بعدها، فقام مترددًا بفتح الأستوديو لينظر إلى الصورة الوحيدة التي به.. وانتفضَ جسدُه رعبًا.. لقد علم الآن لماذا كان الجهاز يصرُّ علي وجود شبح.. لقد كان الشبح موجودًا معه بالفعل وطيلة الوقت! وبعد لحظات من الذهول والرعب انهمرت دمعة حزينة من عينه وهو يقول في خفوت:

-- سأفتقدُك يا صديقي، وشكرًا لك.

فلقد كانت الصورة تظهره بوضوح هو وحسام المبتسم أمام البيت ولكن مع تفصيلة صغيرة مختلفة عن أي صورة عادية..فلقد كان جسد حسام يبدو وحوله هالة..هالة بيضاء!

لقد أوفى له صديقه الراحل بالفعل بوعده له، وحقّق له وبعد موته آخر طلب طلبه منه، وجعله يحصل بالفعل على صورة سيلفي.. سيلفي مع شبح!

وائل عبد الرحيم

#التوراجا ..

في عام 2051م...

ذَهَبَ أحد الباحثين لإجراء بحث وثائقي عن قبائل (التوراجا) وهي إحدى قرى إندونيسيا، إنه (مايكل) تناسَلَ عُمره من الأعوام أربعين عامًا، لبناني الجنسية، جمعته الشاشة الزرقاء ذات يوم بصديق إندونيسي، ولكنه كان يتقن العربية إلى حَدٍّ كبير... تبادلا الكثير من الأحاديث. على مدار عدة أسابيع جمعت بين طياتها ذِكْرِ العادات والتقاليد لدى كل بلد لكل طرف منهما، وبطبيعة عمل (مايكل) بمركز البحوث التي جعلته شخصًا فضوليًّا لا يهدأ إذ جاءته معلومة إلا وهرول إليها باحثا هنا وهناك حتى يأتي قبر فضوله بجثة نهايتها! عندما جاء الحديث عن طقوس (التوراجا) في مراسم العزاء عندهم وكيفية دفن موتاهم والتعامل مع الجثة بعد فرار روحها منها، وأيضًا ما يدور بأذهانهم من اعتقادات صعقته بالدهشة والاستنكار!

ما كان على (مايكل) حينها سوى اتخاذ قرار زيارة (التوراجا) وإجراء بحث عن هذه العادات والتقاليد بذاته دون تدخل أحد، وأيضًا معرفة: هل كل هذا وذاك له تأثير في أهلها سلبي خطأ ما يعتقدونه؟! أم إيجابي نتيجة صحة ما يعتقدونه!

اتخذ موافقة من مركز البحوث وبالفعل أعد عُدته وخلال عدة أيام من قراره هذا كان مايكل بالفعل بالتوراجا!

ذهبَ إلى صديقه ساكن هذه القرية وتقابلا، فقام (مايكل) بشرح ما جاء إليه وبالفعل وعده (هوجو) بمساعدته بما يحتاج للوصول إلى هدفه، فهو خريج رحم هذه القرية، تلك التي جاء على أرضها آباؤه وأجداده، يعلم كل شبر فيها، وتقاليدها موشومة بدواخله فوجودها بنفسه ليس مجرد وجود، واقتناعه بها ليس مجرد أي اقتناع!

عرض عليه (هوجو) أن يبقى معه بمنزله فهو أعزب ووجوده سيسعده كثيرًا، وافقَ (مايكل) على دعوته فركل (هوجو) موافقته بخبر روى ظمأ (مايكل) للبحث والرغبة بالمعرفة بعض الشيء، فقد أخبرَه أن هناك متوفًّى بعائلته مات منذ ثلاثة أشهر وغدًا ستكون مراسم دفنه، سيأخذه معه كي يرى بعينيه ماذا يحدث حرفيًّا، لكن (مايكل) نظر له نظرة تساؤل فسَّرها (هوجو) دون أن ينتظر كلامًا منه مغزاه الاستفسار، علم أنه يستنكر كيف مات ذاك المتوفَّى منذ ثلاثة أشهر وكيف سيكون دفنه غدًا! وأخبره أن باكر سيعلم كل شيء!

ذهبا (مايكل) و(هوجو) إلى مترل العائلة القابع به المتوفَّى، حالة من الحزن كفيلة بأن تُخبِرَك أن المتوفَّى قد ذهبت روحه للتوِّ لا من ثلاثة أشهر كما قال له!

دخل (هوجو) إلى الغرفة الموجودة بها الجثة ودعا (مايكل) للدخول بعد الاستئذان من أهله وما إن تراءت له الجثة حتى اتسعت عينا (مايكل) وبرزت مقلتاه أثر الغرابة التي غرق ببحرها، فأغرقت وجهه بمائه المتصبب من جبينه!

كان المتوفَّى مستقرًّا بتابوت خشبي مزخرف ومزين من الجوانب بالأزهار، مكشوف عنه غطاؤه من أعلى، والميت يرتدي ملابسه العادية في حالة منمقة، مثبتة يداه بشريط من الحرير على جانبيه ربما يدركون أن هذا فيه راحة له! وقبل أن يتساءل أخبره (هوجو) بأن المتوفي لديهم بعد وفاته يحتفظ أهله بجثته لعدة أشهر قبل دفنه، يقدمون له الطعام والشراب ويتحدثون معه أيضًا كأنه حيٌّ، فعقائدهم تجبرهم على الإجزام بأنه الميت هذا ما زال حيًّا وروحه ما زلت بينهم.. يشعر ويحسُّ بكل مَن حوله!

عضَّ (مايكل) على إحدى شفتيه وهزَّ رأسه في حالة تفهُّم..

فاستطرد (هوجو):

أما بالنسبة لتعفن الجثة فهذا من الطبيعي أن يحدث! ولكن بعد الوفاة مباشرة تُحقن بأكملها بمادة (الفورمالين) لحفظها من التعفُّن...

وحتى بعد دفن الجثة أو بالأصح المومياء، يخرجونها من القبر كل ثلاثة أعوام، ويقومون بتنظيفها وتبديل ملابسها ثم إرجاعها إلى مستقرها الذي كانت عليه مرةً أخرى كما أخبرتُك من قبل يا صديقي!

أومأ (مايكل) برأسه وسأله:

– أمن الممكن الذهاب إلى تلك المقابر ورؤية الجثث هذه؟!

رَفَضَ (هوجو) بشدة واستشاط غضبًا وكأنه ألقى على مسامعه بشيءٍ يهين عرضه أو دينه!

قال له إنه فقط من المستطاع أن يجعله يرى المقابر من خارجها مع عدم دخولها لأن ذلك أمر مستحيل وبه إهانة لموتاهم، فهم ليس بفرجة، إنما لهم كل احترام وتقدير لشعورهم ولو كانوا في حسبان الجميع مجرد أموات، فهم على أتم يقين بأنهم ما زالوا أحياء يشعرون!

***

في الساعة الثامنة مساءً كان يتجول (مايكل) بأرجاء القرية بعد أن ترك (هوجو) يستكمل مراسم عزائه مع أهله، من الطواف بالمتوفَّى بأرجاء البلدة، ومشاهدة صراع الثيران ونحرها بعد صراعها، فقد كانوا يظنون بأنها سترسل روح المتوفَّى لحياته الأزلية! وتنتهي تلك المراسم بدفنه بالمدافن العجيبة في تصميمها وتزينها بأصنام منحوتة بوجوه كل متوفَّى من المُتَوَفَّيْنِ المدفونين!

أخذ (مايكل) يسفح بقدميه بخطوات سريعة، كانت سرعتها منبعها انعدام التركيز، فتركيزه في ذاك الحين كان يشمل ما شاهدته في الصباح ويشمل أكثر ما يودُّ أن يراه، وكيف سيجد الفرصة لرؤيته كي يشبع ما أتي إليه، ولا يعود من حيث أتى بمعلومات شفهية فقط... بل بصور موثقة تشعل من قيمة بحثه هذا وتُثير ضجة في النفوس.. تُثير ضجةً حقيقة!

وصلت به قدماه إلى مكان يشبه الغابات كثيرًا، ذي أشجار عالية وضخمة في حجمها، نخيل، وأرض يكسوها الحشائش، اهتدى إلى أعمدة الإنارة التي تبثُّ أضواء فتغزو الكادر من حوله، وجلس على أحد المقاعد الخشبية.. شَرَدَ في تفكيره.. فسحبه من ذاك الشرود أصوات.. أصوات لأطفال تبكي.. أصواتها تعلو أكثر فأكثر.. انتبهَ وأدار نظره في لهفة مشوبة بالخوف.. لم يجد لها مصدرًا بل أخذت أصوات الأطفال تعلو وتعلو.. انتصب من مستقره وركض.. ظل يركض دون عزم إلى اتجاه معين وكأنه يهرب من شيء ما حتى كفت الأصوات وسكنت تمامًا!

عاد إلى (هوجو) مرة أخرى وعندما سأله: أين كان؟ أخبره بأنه كان يتجول بالقرية...يتنزه لا أكثر!

***

في اليوم التالي قرَّر (مايكل) أن يذهب للمقابر التي عرف مكانها وأن يقتحم أحدها واتخاذ ما يريد من لقطات حية سِرًّا بالكاميرا الخاصة التي كانت بحوزته ومن ثم سيعود إلى حيث أتى فهنا سيحقق مراده، وبالفعل في المساء ذهب إلى المقابر، أثارت رهبته تلك الأصنام المتراصة بجوار بعضها البعض والمنحوت على كل صنم وجه أحدهم الذي يقبع بداخلها! لكنه تجاهَلَ شعوره هذا عن قصد وأخرج آلة حديدية وهمَّ في تحطيم أقفال القبر حتى تمكن من تحطيمه.. اتَّخذ المصباح الذي كان معه ودلف للداخل.. عشرات من الجثث المتراصة من حوله والمكفنة بكفن ملفوف بلفة واحدة صارت عليها كل الجثث.. تقدَّم بخطواته ومَدَّ يده لنزع أحد الأكفان عن جثة منها، وباليد الأخرى يتحسس الكاميرا وكأنه يحثُّها على أن تجهز، ومرة واحدة انطفأ المصباح وانغلق الباب عليه!

دبَّت بنفسه حالة من الفزع، وأخذ جسدُه يرتجف كما المصعوق، شعر بيدٍ تتحسَّس ظهره، التفتَ بشدة إلى الخلف مما جعله يسقط على الأرض، شعر بيد تقبض على قدمه من أسفل وتشدُّ جسده ليحتكَّ بأرض القبر، فيصرخ صرخة كادت تنشقُّ لها الجدران من حوله!

اقترب منه شخصٌ لم يرَه فقد. ابتلعت العتمة نواظره! وهمس بأذنه:

- ستخرج، وستأتيني بأحدهم حيًّا من سلالتنا، وسبع أصابع لطفل ميت منا.. ستجده بأشجارنا، وإلا ستبقى إلى الأزل معنا!

ثم كرر:

- ستخرج وستأتي بحي منا، وإلا ستظلُّ معنا!

أخذ (مايكل) يردد من دون وعي عبارات تدلُّ على موافقته.. انفتح الباب فقام من مرقده وهرول إلى الخارج في اتجاهٍ يعلمه جيدًا!

***

ذهبَ إلى تلك المساحة التي لا توصف إلا بكونها غابة.. غابة لا يمكن تسميتها بغير ذلك.. تذكّر ما يجوف أشجارها.. تذكّر ما أخبره (هوجو).. تلك الأشجار كانت مجوفة بصغار الأطفال.. بل بالأدق والأحرى حديثي الولادة الذين تُوفُّوا.. قد كانت جذوع الأشجار هي مقابرهم في (التوراجا)!

قام (مايكل) بحفرها بذات الآلة الحديدية التي قد حطّم بها أقفال القبر من قبل، فتراءت له هيكل لجثة صغيرة...أخرجها وفتش عن عظام يديها، وأخرج من جيبه آلةً تُشبه في هيئتها الخنجر، ثم قام ببتر سبع أصابع ووضعها بقطعة من القماش قد وجدها بين الأعشاب!

هَرولَ تجاه القبر الذي فَرَّ منه وتركه مفتوحًا ثم قام بإلقاء الأصابع وهو واقفٌ بالخارج على بابه.. ثم قام بإرسال رسالة إلى (هوجو)

مضمونها أنه بالفعل ذهبَ إلى هناكَ بمقابر عائلته وأنه موجود هناك الآن!

رَكَضَ (هوجو) نحو المقابر، وما إن وصل حتى وقعت عيناه على باب المقبرة المفتوح، وقد تسربت منها أشعة ضوء من الداخل، فعَلِمَ أن (مايكل) هو مَن بالداخل!

اقترب منها ووجهُه كاد ينفجر من الغضب.. تقدَّم بخطواته في حذرٍ حتي تأكد (مايكل) أنه أصبح بالداخل.. فخرج من مخبئه بسرعةٍ، وفجأة أغلقَ عليه الباب من الخارج!

أخذ (هوجو) يصيح ويصرخ مستفهمًا ماذا يحدث!

فقال (مايكل) وهو في حالة ادِّعاء بالشفقة عليه:

لا تحزن يا صديقي.. أعتذر منك كثيرًا.. فأنا لا أعلم سواك من أبناء سلالتهم كي أُقدِّمَه لهم وأخرجَ من قبضتهم... نعم أنا من فعلتُ ولم أُطِعِ أمرَك، ولم أعمل بنصيحتِك لي من قبل... ارتكبتُ حماقتي ومع كل أسفي كنتَ أنتَ الثمن... الوداع يا صديقي..

استمرَّ (هوجو) في الصِّياح لما يقرب من ساعة كاملة... مُستغيثًا عَلَّ أحدهم يسمعه ويُخرجُه من وقعتِه هذه.. ولكن صوتَه توقَّف... توقَّف فجأةً... وللأبد!

منى عبد العزيز

الفهرس

حملة
اعرفوهم

اقترب أكثر عندما لمحها تقف بظهرها بين أشجار الليمون القريبة.

– جيتي زي ما قلتلك، أنا مبسوط جدًا.

لكنها استدارت سريعًا، وغرست شيئًا حادًا بين ساقيه، جُنَّ جُنونه، وهو يشعر بشلال الدماء يتدفق من أسفل جسده، صرخ صرخة مدوية وشعر أن قواه تخور تدريجيًا.

بديعة – إيهاب عصمت

صرخت واستدارت لتعدو مبتعدة عنه، وما هي إلا خطوات حتى وجدته يسد طريقها واقفًا بلا حراك، كأنه لم يتحرك قط، فالتفتت بفزع خلفها لتتأكد أنها تركته لتوّها خلفها، ولكن لا أثر خلفها له، إنه يأتي من العدم..

فمَدَّ يده لها بهدوء..

فعادت خطوات للخلف وهي تنتفض وتبكي فقال لها:

لن تهربي.. حاولت قبلك مرارًا الهرب ولم أفلح..

الدُائرة – سالي مجدي

شعر أحمد برعب شديد وحاول أن يجري، لكن يديه رفضتا أن تتخليا عن رقبة منى التي جحظت عيناها وهي تحاول أن تتنفس حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.. فصرخ أحمد في رعب وهو ينظر إلى يديه بينما اقتربت تلك المخلوقات أكثر منه وهي تحاول أن تَمسك به، ولكنه تقهقرَ للخلف تاركًا جثة منى التي اقتربوا منها، بينما هو ظلَّ يتراجَعُ بظهره حتى خرجَ خلف هذا المكان المهجور وهو يجري هائمًا على وجهه في الصحراء.. لم يدرِ: ماذا فعل ولماذا؟ أو حتى أين هو أو لماذا يحدث كل ذلك؟

الوهم – عمرو مرزوق

– هَبَّ من مرقدك أيها الفاني، وأنصت جيدًا لسيدك المتعالي.

– هو قدر محتوم كعتمة الليالي، وسيصيبك باليت أم لم تُبال.

– هي لعنة كل يوم تتوالى، وستراق لها الدماء كالنهر الجاري.

– هل بعينيك الخلاص الآني؟ سيأتيك الجواب قبل الكابوس الثاني.

لعنة الدم – راضي عبده

Cover by #ahz_art

9789774885341


دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com
01144552557